

المكتبة الصوفية

عَوَالِفُ الْمُعَالِمِ

للسَّهَرَوَرْدِي

(المتوفى سنة ٨٦٣ هـ)

تحقيق وضبط

أ. د. أحمد عبد الرحيم الساجي الأستاذ / توفيق علي وهدية

المجلد الأول

الناشر

مكتبة اشفاقية الدمشقية



المكتبة الصوفية

عوارف المعاني

للسَّهْرُورِيِّ

كتابخانه
مرکز تحقیقات کلامی و فقهی علوم اسلامی
شماره ثبت: ۶۸۷۹
تاریخ ثبت:

(الترغی سنة ۱۳۴۴ هـ)

تحقیق و ضبط

أ.د/ أحمد عبد الرحيم الساج المستشار/ توفيق علي وهبة

المجلد الأول

الناشر

مكتبة الثقافة الدينية



مركز البحوث والدراسات الإسلامية

جميع الحقوق محفوظة للناس

الطبعة الأولى

١٤٢٧ هـ / ٢٠٠٦ م

الناشر

مكتبة الثقافة الدينية

٥٢٦ شارع بورسعيد / القاهرة

ت ٥٩٢٢١٢ - ٥٩٢٨٤١١ / فاكس ٥٩٢٢٢٢٢

ص ب ٢١ توزع القاهرة - القاهرة

E-mail: alsakafa_alDinaya@hotmail.com

٢٠٠٦/٥٦٠٢	رقم الإيداع
977-341-263-6	الترقيم الدولي I.S.B.N.

مقدمة التحقيق

الحمد لله رب العالمين - نحمده - سبحانه وتعالى - حمدا كثيرا طيبا.
والصلاة والسلام على سيدنا محمد المرسل رحمة وهدية للناس اجمعين.
وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين.

أما بعد

فإن كتاب "عوارف العارف" للإمام السهروردي المتوفى سنة ٦٣٢هـ من
الكتب الجليلة التي جاءت في التصوف..

وعوارف العارف. دافع أصيل للمعارف الصوفية، ومعرفة من كل
الوجوه. لا يستغنى عنه عالم متبحر، ولا باحث متلهف، ولا طالب علم، ولا
داعية يبذل ما في وسعه ليبلغ الحق إلى الناس.

وقد يكون واضحا، أن التصوف الإسلامي باعتباره علما كسائر العلوم
الإسلامية، لا بد له من تعريف يميزه عن غيره.

ولما كانت مدارس التصوف متعددة فاختلفا فهم فيه ليس اختلاف
التفكير في المفهوم، ولكنه الاختلاف في الإحاطة بأطراف الحقيقة.

فمنهم من يجمع منها طرفا واحدا، ومنهم من يجمع أكثر من
طرف. ومنهم من يشير إشارة، أو يلوح تلويحا.

ومنهم من يرنوا إلى الغاية. ومنهم من يتحدث عن الوسيلة. كل
حسب وقته وحاله وحسب المناسبة التي ورد الحديث في شأنها، والتركيز
على ناحية من نواحي التصوف تبعاً لذلك.

فهو راجع إلى منازل أصحاب السلوك في معارج السلوك. فكل واحد
منهم ترجم إحساسه في مقامه. وهو لا يعارض أبدا مقام سواه. فالحقيقة
واحدة، وهي كالبيستان الجامع. كل سالك وقف تحت شجرة منه،
فوصفها.

ولم يقل إنه ليس بالبيستان شجرة سواها. ومهما اختلفت التعريفات
فإنها تلتقى عن رتبة من التزكي والتقوى عن طريق الهجرة إلى الله.

يقول أبو القاسم الغشيري: "وتكلم الناس في التصوف، ما معناه؟ وفي
الصوفي: من هو؟ فكل غير بما وقع له".

ويتجه الكثير من الناس - في تعريف التصوف - إلى الجانب الخلقي.

وهذا الاتجاه شائع عند الصوفية أنفسهم، وعند غيرهم من الباحثين في التصوف والتورخين.

والجانب الخلقي يسيطر على كثير من التعاريف التي جاءت في التصوف.

يقول أبو بكر الكتاني للتوفي سنة ١٢٢ هـ: "التصوف خلق. فمن زاد عليك في الخلق، فقد زاد عليك في الصفاء".

ويقول أبو محمد الحريري للتوفي سنة ٣١١ هـ: "التصوف الدخول في كل خلق سني، والخروج من كل خلق دني".

ويذكر أبو الحسين النوري أن: "التصوف ليس رسماً، ولا علماً ولو كان علماً لحصل بالتعليم، ولكنه تخلق بأخلاق الله، ولن تستطيع أن تقبل على الأخلاق بعلم لو رسم".

فهذه التعريفات - كما ترى - وغيرها كثير. فنطلق بمعنى الأخلاق، ويتردد فيها معنى الصفاء. فعماد التصوف تصفية القلب من أوضاع المادة، وقوامه صلة الإنسان بالخالق سبحانه وتعالى.

ومن هذا النطلق اتجه كثير من الصوفية في تعريفهم للتصوف إلى ملاحظة الجانب الخلقي إدراكاً لأهمية تحقيق ذلك الجانب.

والتعريفات التي لا تذكر فيها الفاظ الأخلاق نصاً تنول في نهاية الأمر إلى الناحية الخلقية إن لم تكن بعناصرها كلها، فبالعناصر الغالبة فيها، ومن هنا بيان لوجه نظر الكثير في اعتبار الأخلاق وجهاً أساسياً من وجوه التصوف، بل لا تتحقق حقيقة التصوف بغير وجود، لا من الناحية النظرية، ولا من الناحية العملية.

وفي هذا المقام يقول ابن عربي: إن حرص الصوفية بالمجاهدة للوصول إلى مكارم الأخلاق، لأن بها تتطهر النفوس من آوائها، وتتخلص من أمراضها. ولذلك كان التخلص من شكل الأخلاق للذهوم فرضاً عند الصوفية، لأن الأخلاق للذهوم شكلاً كالنجاسة التي تحول بين النفوس وصفائها.

وقد أقر التصوف بهذه الصفة، واحد من أكبر مفكري السلف، وهو الإمام ابن قيم الجوزية، فانت تراه يقول: "واجتمعت كلمة الناطقين في هذا العلم على أن التصوف هو الخلق".

وأيضاً يقول أبو حفص الحنبل: "التصوف كله أدب لكل وقت أدب، ولكل حالة أدب، ولكل مقام أدب. فمن لزم أدب الأوقات بلغ مبلغ الرجال، ومن ضيع الأدب فهو بعيد من حيث يظن القريب ومردود من حيث يرجو القبول".

وحسن أدب الظاهر عنوان حسن أدب الباطن لأن النبي ﷺ قال: "لو خشع قلبه لخشعت جوارحه".

ويقول الهجویری: "اعلم أن زينة وحلية جميع الأمور الدينية والدينية، متعلقة بالأدب، ولكل مقام من مقامات أصناف الخلق أدب، والكافر والسلم، والوحد واللحد، والسني والبتدع، متفقون على أن حسن الأدب في المعاملات طيب، ولا يثبت أي رسم في العالم بدون استعمال الأدب.

والأدب في الناس: حفظ المروءة، وفي الدين: حفظ السنة. وفي المحبة: حفظ الحرمة. وهذه الثلاثة مرتبطة ببعضها البعض، لأن كل من ليست له مروءة لا يكون متابعاً للسنة، وكل من لا يحفظ السنة لا يرقى الحرمة.

وحفظ الأدب في المعاملة يحصل من تعظيم الطلوب في القلب، وتعظيم الحق وشعائره في التقوى، ومن ينس تعظيم شواهد الحق بلا حرمة، لا يكن له أي نصيب في طريق التصوف، ولا يمنع السكر، والغلبة الطالب من حفظ الأدب بأي حال. لأن الأدب يكون لهم عادة، والعادة تكون قربة الطبيعية، وسقوط الطبائع عن الحيوان في أي حال محال ما دامست الحياة قائمة.

فقالا كانت لشخاصهم قائمة فإنهم في كل الأحوال، تجرى عليهم أدب المتابعة أحياناً بالتكلف، وأحياناً بدون تكلف.

فحين يكون حالهم الصحو. فإنهم يحفظون الأدب بالتكلف، وعندما يكون حالهم السكر. فإن الحق تعالى يحفظ الأدب عليهم وتارك الأدب لا يكون بأية صفة ولياً لأن اللودة عند الأدب وحسن الأدب صفة الأحياء.

فالتصوف أدب وأخلاق، في جميع الأوقات، وفي سائر الأحوال والمقامات. فمن لم يتحقق بأدبه وأخلاقه بآء بالخسران.

يقول الجنيد: "الصوفي كالأرض، يطرح عليها كل قبيل، ولا يخرج منها إلا كل مليح".

ويقول أبو تراب النخشي: "الصوفي لا يكثره شيء ويصفو به كل شيء".

فالتصوف باعتبارها أدباً تراعى في كل لحظة ومطرفة، وحركة وسكنة، تنعكس على نفس صاحبها. فتطبعها بطابعها الأخلاقي العام. بحيث يصبح صفاء في نفسه، وعالم صفاء فيمن يحيط به. إنه رجب الصدر، يسع الجميع برحابة صدره على أي أخلاق كانوا من البر أو الفجور. وهو معطاء من ذات نفسه. فهو لا يمنع بره وخيره ونوره من حوله. يشع هدى وصلاً. وهو لا يبالي من نصيب بخيره من الناس لبراً كانوا أم فجاراً. لأن بره يغطي ويغطي فيعمل في تحويل الناس عن غيهم وفجورهم.

ومن لم يستجب منهم فليس ذلك إليه. وإنما هو إليهم، وهذا متفق مع قول عائشة رضي الله عنها حين قيل لها: أخبرينا عن خلق النبي ﷺ؟ فقالت: اقرأ من القرآن قول الله تعالى: ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ [سورة العنكبوت: ١٨].

ومن هنا كان للتصوف لا يركن إلى حسن الخلق فحسب، بل إنه لا يقنع إلا بما هو أحسن.

ولعل كل هذه الأمور، توضح للباحثين والدارسين، مدى الجهد في السلوك، للتخلق بالأخلاق الطيبة. وقد سئل محمد بن علي القصاب أستاذ الجليل، عن التصوف، ما هو؟ فقال: "أخلاق كريمة، ظهرت في زمان كريم، من رجل كريم، مع قوم كرام". أي أن التصوف من أهم أسسه العامة، التحلي بالأخلاق الفاضلة، التي حث عليها الإسلام.

وأخيراً فالتصوف عبارة عن أخلاق، والأخلاق عنصر لا بد أن يشترك مع كافة العناصر الصوفية، حتى يمكن أن تتكون منها حقيقة التصوف. فإذا خلا وقت من أوقات الصوفي، من هذا العنصر الأخلاقي كان ذلك ضعفاً في سلوكه، وخروجاً من مقتضى الطريق الصوفي الذي يلزمه.

وهذه الأخلاق ليست عملاً ظاهراً فحسب تقتزين بالجوارح، وتتصور فيه الأعمال، ولكنه مسألة قلبية، تظهر آثارها على الجوارح والأعمال. وهذا سبب صعوبتها ومشقتها، والداعي لاستمرار اليقظة والجهد في معالجتها.

ويذكر العلماء، أن الاتجاه الأخلاقي في تعريف التصوف شائع في الشرق، وفي الغرب، وهو أيضاً شائع في الزمن القديم، وفي الزمن الحديث. ومع

ذلك، فإنه لا يعبر عن التصوف تعبيراً دقيقاً، على أن هؤلاء الذين ذكروا التعاريف الأخلاقية للتصوف، ذكروا هم أنفسهم تعاريف أخرى.

وذلك - على الأقل - يدل دلالة لا لبس فيها على أنهم: لم يروا كفاية الجانب الأخلاقي في تحديد التصوف وتعريفه.

على أنه من الطبيعي، أن تكون الأخلاق الكريمة، أساساً من أسس التصوف، وأن تكون الأخلاق في اسمى صورة من صورها ثمرة للتصوف. ومن الطبيعي أيضاً أن تكون الأخلاق الكريمة شعار الصوفي فيما بين الأساس والثمره.

هالأخلاق إذن ملازمة للتصوف والصوفي، ملازمة تامة، لا تتخلى عنه، ولا يتخلى عنها. ولكنه ليس معنى ذلك أنها هي التصوف.

والباحث في التصوف ومعانيه يجد أن هناك اتجاه أكثر شيوعاً من تعريف التصوف بالأخلاق، وهو تعريف التصوف بالزهد، وحينما يسمع كثير من الناس كلمة التصوف يفهم منها معنى "الزهد" ولا يفهم من كلمة "صوفي" إلا الزهد في الدنيا. وبعد الصوفي التعلق بالدنيا رأس كل خطيئة، وترك الدنيا ينبوعاً لكل خير، والزهاد ثلاث طبقات.

الطبقة الأولى: البتلخون. وهم أولئك الزهاد الذين قصرت بنهم عن الدنيا، وخلا قلبهم من طمع الدنيا مثل أيديهم. سئل الجنيد: ما الزهد؟ فقال: خلو اليد من ملك الدنيا، وخلو القلب من الطمع.

الطبقة الثانية: وهم للتحققون في الزهد الذين هم مصداق قول رويم بن أحمد حيث يقول: "الزهد هو ترك حظوظ النفس من كل ما في الدنيا" ذلك لأن في الزهد لذة نفسية.

بمعنى أن الزهد يسبب راحة خاطر، واستراحة الضمير. كما يجلب المدح، وإعجاب الناس بالنسبة للزاهد، ويجعله عزيزاً محترماً في نظرهم. فالزهد الواقعي بحسب ما يراه رويم يتحقق عندما يترك القلب كل لذة.

الطبقة الثالثة: طبقة الزهاد الخواص. الذين رموا كل شيء وراءهم ظهيراً، قال ذو النون المصري: الزهاد ملوك الآخرة، والعرفاء هم ملوك الزهاد.

وقال أيضاً: آية حب الله هي أن يترك العبد كل ما يشغله عنه تعالى حتى يبقى هو شغل الله فقط.

وقال سفيان الثوري: الزاهد هو الذي يحقق الزهد بفعله في الدنيا،
والتزهد من كان زهده بلسانه.

وقال أيضاً: ليس الزهد في الدنيا ارتداء الخرقة، وأكل خبز الشعير،
ولكنه عدم تعلق القلب بالدنيا وتقصير الأمل.

وما من شك في أن الصوفي لا يتعلق قلبه بالدنيا، ولو كان عنده الآلاف
واللايين. بيد أن الزهد في الدنيا شيء، والتصوف شيء آخر، ولا يلزم عن
هكون الصوفي زاهداً أن يكون التصوف هو الزهد.

ولخلط الناس بين الزهد، والعباد، والصوفي، حاول ابن سينا أن يفرق
بينهم وبين أهداف كل منهم، يقول في كتابه: "الإشارات".

١- العرض عن متاع الدنيا وطبائنها يخص باسم "الزاهد".

٢- المواظب على فعل العبادات، من القيام والصيام ونحوهما. يخص باسم
"العابد".

٣- للتصرف بفكره إلى قس الجبروت، مستندهما لشروق نور الحق في سره،
يخص باسم "العارف".

والعارف عند ابن سينا هو الصوفي. ويتحدث ابن سينا - كما يذكر
غيره - أن الزاهد قد يكون عابداً، والعابد قد يكون زاهداً، فيمتزج الزهد
والعبادة في شخص واحد، ولا يكون بعبادته وزهده معاً، صوفياً، ولكن الصوفي
لا محالة "زاهد عابد".

وهناك تعريفات كثيرة جاءت عن علماء الصوفية، يحسن أن نذكر
بعضاً منها.

قال أبو سعيد الخراز المتوفى سنة ٣٦٨ هـ: "الصوفي من صفى ربه قلبه،
فامتلاً قلبه نورا، ومن دخل في عين الله يذكرك الله".

وقال الجنيد البغدادي المتوفى سنة ٢٩٧ هـ: "التصوف هو أن يميئك الحق
عنك ويحيبك به".

وقال أبو بكر الكتاني المتوفى سنة ٣٢٢ هـ: "التصوف صفاء ومشاهدة".

وقال جعفر الخليلي المتوفى سنة ٣٤٨ هـ: "التصوف طرح النفس في
العبودية، والخروج من البشرية، والنظر إلى الحق بالكلية".

وهناك تعريفات أخرى كثيرة، يجدها الباحث منتشرة في كتب التصوف.. وهي على كثرتها تعبر في أغلب الأحيان عن زاوية من زوايا التصوف، تتصل بالوسيلة، أو تتصل بالغاية.

والباحث في تعريفات التصوف الإسلامي يجد أنها تقوم على ما يلي:

١- تعريفات تتحدث عن البداية، ويقصد بها ما تحس النفس بفطرتها إلى أن هناك حقيقة تتوق إليها الروح، وتطلب السير إليها غير أن هذا لا يتأتى إلا لأن أوتي حظاً كبيراً من العزم وصدق التوبة.

٢- وهناك تعريفات تتحدث عن المجاهدات، ويقصد بها الجانب العملي في المجاهدة المرتبطة بالشريعة.

٣- وهناك تعريفات تتحدث عن اللذات، ويقصد بها ثمرة المجاهدات المرجوة. إلا أن جميع التعريفات التي تتصل بالأخلاق والقامات والأحوال تعتبر جماع التربية الخلقية الصوفية.

وذلك لأن إصلاح الباطن عند الصوفية يتوقف على ثلاثة أمور:

الأمر الأول، معرفة النفس ونوازعها ورغباتها.

الأمر الثاني، تطهير القلب، وتصفية الروح من الرذائل، وذلك عن طريق المجاهدات.

الأمر الثالث، التحلي بالفضائل والكارم الخلقية، ومن شأن هذه الأخلاق والقامات، أن تجعل من الصوفي إنساناً مشغول القلب بالله، مطيعاً للجلوس بين يديه، متنعماً بعز الطاعة له، شاعراً بالنقمة والأمن واليقين في رحابه.

والأخلاق عند الصوفية، تصفية النفس، وتجميلها بكل للكارم والفضائل الخلقية، وتزكيتها، بحيث تصبح النفس في جميع تصرفاتها، وفقاً لمراد الله تعالى.

من هنا كان كتاب "عوارف للعارف" زاخراً بالعارف التي ترشد إلى كل ما يفيد فمن لم يقرأ كتاب عوارف للعارف للسهروردي فقد جهل كثيراً من علم التصوف وأحوال أهل الطريق..

نسأل الله أن ينفع به.

المستشار

توفيق علي وهبه

الأستاذ الدكتور

أحمد عبد الرحيم السايح

مقدمة المؤلف

الحمد لله العظيم شأنه ، القوي سلطانه ، الظاهر إحسانه ، الباهر حجته وبرهانه ، المحتجب بالجلال والنفرد بالكمال ، والتردى بالعظمة في الآباد والأزال ، لا يصوره وهم وخيال ، ولا يحصره حد ومثال ، ذى العز الدائم السرمدي ، واللك القاتم اليدومي ، والقدرة الممتنع إدراك كنهها ، والسطوة المستوعر طريق استيفاء وصفها ،

نطقت الكائنات بأنه الصانع للبدع ، ولاح من صفحات ذرات الوجود بأنه الخالق للخرق ، وسم عقل الإنسان بالعجز والنقصان ، وألزم فصيحاته اللسان وصف الحصر في حلبة البهتان ، وأحرقت سبحات وجهه الكريم اجنحة طائر الفهم ، وسلبت تعززا وجلالا مسالك الوهم ، وأطرق طامح البصيرة تعظيما وإجلالا ، ولم يجد من فرط الهيبة في قضاء الجبروت مجالا ، فعاد البصر ككليا ، والعقل عليلا ، ولم ينتهج إلى كنهه الكبرياء سبيلا .

فسبحان من عزت معرفته لولا تعريفه ، وتعلز على العقول تحديده وتكليفه ، ثم ألبس قلوب الصفة من عباده ملابس العرفان ، وخصهم من بين عباده بخصائص الإحسان ، فصارت ضمائرهم من مواهب الأنس مملوءة ، ومرآى قلوبهم بنور القدس مجلوة .

فتنهات لقبول الإملاء القدسية ، واستعنت لبورود الأنوار العلوية ، واتخذت من الأنفاس العطرية بالأحكار جلاسا ، وأقامت على الطاهر والباطن من التقوى حراسا ، واشعلت في ظلم البشرية من اليقين نبراسا ، واستحقرت فوائد الدنيا ولذاتها ، وانكرت مصائد الهوى وتبعاتها ، وامتطت غوارب الرغبات والرهوبات ، واستفرشت بعلو همتها بساط الملكوت ، وامتدت إلى المعالي أعناقها ، وطمعت إلى اللامع العلوي أحباؤها ، واتخذت من اللأ الأعلى مسامرا ومحاورا ، ومن النور الأغر الأقصى مزورا ومجاورا .

أجساد أرضية بقلوب سماوية ، وأشياح فرشية بأرواح عرشية ، نفوسهم في منازل الخدمة سيارة ، ولرواحهم في قضاء القرب طيارة ، مذاهبهم في العبودية مشهورة ، وأعلامهم هي لقطار الأرض منشورة ، يقول الجاهل بهم فقلوا وما فقلوا ، ولكن سمت أحوالهم فلم يتركوا ، وعلا مقامهم فلم يملكوا ، كائنات بالجنان ، بآئين بقلوبهم عن أوطان الحقائق ، لأرواحهم حول العرش تطواف ، ولقلوبهم من خزائن اليراسعاف ، يتنعمون بالخدمة في النياجر ، ويتلذذون من وهج الطلب بظلمة الهواجر .

تسلوا بالصلوات عن الشهوات، وتعوضوا بحلاوة التلاوة عن اللذات،
يلوح من صفحات وجوههم بشر الوجدان، وينم على مكنون سرائرهم نضارة
العرفان.

لا يزال في كل عصر منهم علماء، بالحق دعاة للخلق، منحوا بحسن
للتابعة رتبة النعوة، وعلاوا للمتقين قنوة، فلا يزال تظهر في الخلق آثارهم،
وتزهر في الأفاق أنوارهم.

من اقتدى بهم اقتدى، ومن انكرهم ضل واعتدى.

قلله الحمد على ما هبأ للعباد من بركة خواص حضرته من أهل
الوداد، والصلاة على نبيه ورسوله محمد، وآله واصحابه الأكرمين الأمجاد.

ثم إن إيناري لهدى هؤلاء القوم، ومحبتى لهم علما بشرف حالهم،
وصحة طريقتهم للنية على الكتاب والسنة، للتحقق بهما من الله الكريم
الفضل والمنة، حذاني أن أنب عن هذه العصابة بهذه الصبابة، وأؤلف أبوابا
في الحقائق والآداب، معرفة عن وجه الصواب فيما اعتنوه، مشعرة بشهادة
صريح العلم لهم فيما اعتنوه، حيث كثر للتشبهون واختلقت أحوالهم،
وتستر بزيمهم التسترون وفست أعمالهم، وسبق إلى قلب من لا يعرف أصول
سلفهم سوء ظن، وكاد لا يسلم من وقية فيهم وطعن، ظنا منه أن
حاصلهم راجع إلى مجرد رسم، وتخصصهم عائد إلى مطلق اسم.

ومما حضرني فيه من النية، أن أكثر سواد القوم بالاعتزاء إلى
طريقتهم، والإشارة إلى أحوالهم، وقد ورد "من كثر سواد قوم فهو منهم"
وأرجو من الله الكريم صحة النية فيه، وتخليصها من شوائب النفس.

وكل ما فتح الله تعالى على فيه، منح من الله الكريم وعوارف، وأجل
المنح عوارف للعارف.

والكتاب يشتمل على نيف وستين بابا - والله العين -.

- باب الأول : في منشأ علوم الصوفية
- باب الثاني : في تخصيص علوم الصوفية
- باب الثالث : في بيان فضيلة علم الصوفية والإشارة إلى أبعادها
- باب الرابع : في شرح حال الصوفية واختلاف طريقتهم فيها.

الباب الحادي عشر :	ففى ذكر ما هي تصوف
الباب الثاني عشر :	ففى ذكر تصنيفاتهم بهذا الاسم
الباب الثالث عشر :	ففى ذكر التصوف والمتشابه
الباب الرابع عشر :	ففى ذكر اللامتنى وشرح حاله
الباب الخامس عشر :	ففى ذكر من انتمى إلى الصوفية وليس منهم
الباب السادس عشر :	ففى شرح مرتبة المشايخ
الباب السابع عشر :	ففى شرح حال الخادم ومن يتشبه به
الباب الثامن عشر :	ففى شرح خرقصة المشايخ الصوفية
الباب التاسع عشر :	ففى فضيلة سبكان الربسط
الباب العاشر :	ففى مشابهاة أهل الربسط بأهل الصفة
الباب الحادي عشر :	ففى خصائص أهل الربط فيما يتعاهدونه بينهم
الباب الثاني عشر :	ففى اختلاف احوال المشايخ بالسفر والقام
الباب الثالث عشر :	ففى احتاج السافر إليه من الفرائض والنوافل والفضائل
الباب الرابع عشر :	ففى القنوم من السفر ودخول الرباط والأدب فيه
الباب الخامس عشر :	ففى حلال الصوفى المتسبب
الباب السادس عشر :	ففى حال مسن يأكل من الفسوح
الباب السابع عشر :	ففى شرح حال المتجرد من الصوفية والمتأهل
الباب الثامن عشر :	ففى القول فى السماع قبل ولا وإثارة
الباب التاسع عشر :	ففى القول فى السماع ردا وإنكارا
الباب العاشر :	ففى القول فى السماع ترفعا واستغناء
الباب الحادي عشر :	ففى القول فى السماع تأديبا واعتناء
الباب الثاني عشر :	ففى خاصية الأربعينية التى يتعاهدونها الصوفية
الباب الثالث عشر :	ففى ذكر فتوح الأربعينية
الباب الرابع عشر :	ففى كيفية الدخول فى الأربعينية
الباب الخامس عشر :	ففى ذكر أخلاق الصوفية وشرح الخلق

باب الثلاثين	في ذكر تفصيل الأخلاق
باب الحادي والثلاثون	في الأدب ومكانته من التصوف
باب الثاني والثلاثون	في أدب الحضرة لأهل القرب
باب الثالث والثلاثون	في أدب الطائفة وهارة ومقدماتها
باب الرابع والثلاثون	في أدب الوضوء وأسراره
باب الخامس والثلاثون	في أدب أهل الخصوم والصوفية فيه
باب السادس والثلاثون	في فضيلة الصلاة وكبر شأنها
باب السابع والثلاثون	في وصف صلاة أهل القرب
باب الثامن والثلاثون	في ذكر أدب الصلاة وأسرارها
باب التاسع والثلاثون	في فضيل الصوم وحسن ثمره
باب الأربعون	في أصول الصوفية في الصوم والإفطار
باب الحادي والأربعون	في أدب الصوم ومهامه
باب الثاني والأربعون	في ذكر الطعام وما فيه من الصلحة والفسدة
باب الثالث والأربعون	في أدب الأكل
باب الرابع والأربعون	في ذكر أدبهم في اللباس ونياتهم ومقاصدهم فيه
باب الخامس والأربعون	في ذكر فصل في قيام الليل
باب السادس والأربعون	في الأسباب المعينة على قيام الليل
باب السابع والأربعون	في أدب الانتباه من النوم والعمل بالليل
باب الثامن والأربعون	في تفصيل قيام الليل
باب التاسع والأربعون	في استتقال النهار والأدب فيه
باب الخمسون	في ذكر العمل في جميع النهار وتوزيع الأوقات
باب الحادي والخمسون	في أدب الرعية مع الشيخ
باب الثاني والخمسون	فيما يعتمد عليه الشيخ مع الأصحاب والقلامنة
باب الثالث والخمسون	في حقيقة الصلحة وما فيها من الخير والشر
باب الأربعون والخمسون	في أدب حقوق الصلحة والأخوة في الله تعالى

- الباب الحامس والخمسون : في آداب المحجبة والأحـمـدة
 الباب السادس والخمسون : في معرفة الإنسان نفسه ومكاشفات الصوفية من ذلك
 الباب السابع والخمسون : في معرفة الخواطر وتفصيلها وتعيينها
 الباب الثامن والخمسون : في شرح الحال والمقام والفرق بينهما
 الباب التاسع والخمسون : في الإشارة إلى المقامات على الاختصار أو الإيجاز
 الباب العاشر والستون : في ذكر إشارات الشايخ في المقامات على الترتيب
 الباب الحادي والستون : في ذكر الأحوال وشروحها
 الباب الثاني والستون : في شرح كلمات من اصطلاح الصوفية مشيرة إلى الأحوال
 الباب الثالث والستون : في ذكر شيء من البدايات والنهايات وصحتها

فهذه الأبواب تحررت بعون الله تعالى، مشتملة على بعض علوم
 الصوفية وأحوالهم ومقاماتهم، وأدبهم وأخلاقهم، وغرائب مواجيدهم،
 وحقائق معرفتهم وتوحيدهم، ودقيق إشاراتهم، ولطيف إصطلاحاتهم.

فعلومهم كلها أنباء عن وجبات، واعتزاء إلى عرفان، وذوق تحقيق
 بصدق الحال، ولم يف باستيفاء كنهه صريح المقال، لأنها مواهب ربانية،
 ومناهج حقانية، استنزلها صفاء السرائر، وخلوص الضمائر، فاستعصت
 بكنهها على الإشارة، وطفحت على العبارة، ونهادتها الأرواح بدلالة التسمام
 والانتلاف، وكرعت حقانها من بحر الألفاظ وقد اندرس كثير من
 دقيق علومهم، كما انطمس كثير من حقائق رسومهم.

وقد قال الجيد رحمه الله : علمنا هذا قد طوى بساطة منذ كذا
 سنة، ونحن نتكلم في حواشيه.

بدا هذا القول منه في وقته مع قرب العهد بعلماء السلف وصالحى
 التابعين، فكيف بنا مع بعد العهد وقللة العلماء الزاهدين، والعارفين بحقائق
 علوم الدين.

والله المأمول أن يقابل جهد القل بحسن القبول، والحمد لله رب العالمين.

الباب الأول في ذكر منشأ علوم الصوفية

حدثنا شيخنا شيخ الإسلام أبو النجيب عبد القاهر بن عبد الله بن محمد السهروردي إمام من أفضله في شوال سنة ستين وخمسمائة، قال أنبأنا الشريف نور الهدى أبو طالب الحسين بن محمد الزينبي، قال أخبرتنا مكريمة بنت أحمد بن محمد للروزية المجاورة بمكة حرسها الله تعالى، قالت أخبرنا أبو الهيثم محمد بن مكي الكشميهني، قال أنبأنا أبو عبد الله محمد بن يوسف الفربري، قال أخبرنا أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، قال حدثنا أبو مكريم، قال حدثنا أبو أسامة عن بريد عن أبي بردة عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: "بينما مثلي ومثل ما بعثني الله به كمثّل رجل أتى قوماً فقال يا قومى إني رأيت الجيش بعينى، وإني أنا النذير العريان، فالنجاء النجاء، فأطاعه طائفة من قومه فادخلوا، فانطلقوا على مهلهم فنجوا، وكذبت طائفة منهم فأصبحوا مكانهم، فأصبحهم الجيش فأهلكهم واجتاحهم، فذلك مثل من أطاعنى فأتبع ما جئت به، ومثل من عصانى وكذب بما جئت به من الحق".

وقال ﷺ: "مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثّل الفيث الكثير أصاب أرضاً فكانت طائفة منها طيبة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والحب الكثير، ومكانت منها طائفة أخافت الماء فتفح الله تعالى بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا، ومكانت منها طائفة أخرى فبعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ، فذلك مثل من تفرقه في دين الله وتفرقه ما بعثني الله به فعلم وعلم، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به".

قال الشيخ : لعد الله تعالى لقبول ما جاء به رسول الله ﷺ أصفى القلوب وأركى النعوس، فظهر تفاوت الصفاء واختلاف التزكية هي تفاوت الفائدة والنفع، فمن القلوب ما هو بمثابة الأرض الطيبة التي أنبتت الكلاً والعشب الكثير، وهذا مثل من انتفع بالعلم في نفسه واهتدى، ونفعه علمه وهداه إلى الطريق القويم من متابعة رسول الله ﷺ .

ومن القلوب ما هو بمثابة الأخاذة، أي الخمران جمع أخاذة، وهو الصنع والخدير الذي يجتمع فيه الماء. النفوس العلماء الزاهدين من الصوفية والشيوخ تزكيتهم وقلوبهم صفت فاختلفت بمزيد الفائدة فصاروا أخاذات.

قال مسروق : صحبت أصحاب رسول الله ﷺ فوجدتهم كالأخاذات، لأن قلوبهم كانت واعية، فصارت أوعية للعلوم بما رزقت من صفاء الفهوم.

أخبرنا الشيخ الإمام رضي الدين أبو الخير أحمد بن إسماعيل القزويني إجازة، قال أنبأنا أبو سعيد محمد الخليلي، قال أنبأنا القاضي أبو سعيد محمد الفرخزادي، قال أنبأنا أبو إسحاق بن محمد، قال حدثنا أبي، قال حدثنا إبراهيم بن عيسى، قال حدثنا علي بن علي، قال حدثنا أبو حمزة الثمالي، قال حدثني عبد الله بن الحسن، قال، حين نزلت هذه الآية: ﴿ وَتَعِيَهَا أُنْ وَاعِيَةً ﴾ ^(١) قال رسول الله ﷺ لعلي، «سألت الله سبحانه وتعالى أن يجعلها أذنك يا علي»، قال علي: فما نسبت شيئاً بعد وما كان لي أن أنسى.

قال أبو بكر الواسطي : أذن وعيت عن الله تعالى أسرره.

وقال أيضاً : واعية في معادنها ، ليس فيها غير ما شهدته شيء، فهي الخالية عما سواه، فما اضطراب الطبايع إلا ضرب من الجهل.

قلوب الصوفية واعية لأنهم زهدوا في الدنيا بعد أن أحكموا أساس التقوى، فبالتقوى زكيت نفوسهم، وبالزهد صفت قلوبهم، فلما عدموا

شواغل الدنيا بتحقيق الزهد، انفتحت مسام بواطنهم، وسمعت آذان قلوبهم، وأعانهم على ذلك زهدهم في الدنيا. فعلماء التفسير، وأئمة الحديث، وفقهاء الإسلام، أحاطوا علماً بالكتاب والسنة، واستنبطوا منها الأحكام، وردوا الحوادث المتجددة إلى أصول من النصوص، وحمى الله بهم الدين.

وعرف علماء التفسير وجه التفسير، وعلم التأويل، ومذاهب العرب في اللغة، وغرائب النحو والتصريف، وأصول القصص، واختلاف وجوه القراءة، ووصفوا في ذلك الكتب، فاتسع بطريقتهم علوم القرآن على الأمة.

وأئمة الحديث ميزوا بين الصحاح والحسان، وفردوا بمعرفة الرواة وأسامي الرجال، وحكموا بالجرح والتعديل، لئيبين الصحيح من السقيم، ويتميز المعوج من المستقيم، فاحتفظ بطريقتهم طريق الرواية والسند حفظاً للسنة.

وانتنب العقهاء لاستنباط الأحكام، والتفريع في المسائل، ومعرفة التعليل، ورد الفروع إلى الأصول بالعلل الجوامع، واستيعاب الحوادث بحكم النصوص.

وتفرع من علم الفقه والأحكام علم أصول الفقه، وعلم الخلاف، وتفرع من علم الخلاف علم الجدل. وأحوج علم أصول الفقه إلى شيء من علم أصول الدين، وكان من علمهم علم الفرائض، ولزم منه علم الحساب والجبر والمقابلة، إلى غير ذلك، فتمهنت الشريعة، وتأيدت، واستقام الدين الحنيفي، وتفرع وتواصل الهدى للنبي للصطفوى، فأنبتت أراضى قلوب العلماء الكلاً والعشب، بما قبلت من مياه الحياة من الهدى والعلم.

قال الله تعالى: ﴿ أَنْزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا ﴾^(١).

قال ابن عباس رضي الله عنهما: لواء العلم، والأودية القلوب.

قال أبو بكر الواسطي رحمه الله : خلق الله تعالى درة صافية، فلاحظها بعين الجلال، فذابت حياء منه، فسالت فقال (انزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها) فصفاء القلوب من وصول ذلك الماء إليها.

وقال ابن عطاء، (انزل من السماء ماء) هذا مثل ضربه الله تعالى للعبد، وذلك إذا سال السيل في الأودية، لا يبقى في الأودية نجاسة إلا كسها وذهب بها، كذلك إذا سال النور الذي قسمه الله تعالى للعبد في نفسه، لا تبقى فيه غفلة ولا ظلمة (انزل من السماء ماء) يعني قسمة النور (فسالت أودية بقدرها) يعني في القلوب الأنوار على ما قسم الله تعالى لها في الأزل، (فأما الزبد فيذهب جفاء) فتصير القلوب منورة لا تبقى فيها جفوة (وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض) تذهب البوائط وتبقى الحقائق.

وقال بعضهم: (انزل من السماء ماء) أنواع الكرامات، فأخذ كل قلب بحظه ونصيبه، فسالت أودية قلوب علماء التفسير والحديث، والعقده بقدرها، وسالت أودية قلوب الصوفية من العلماء الزاهدين في الدنيا، المتمسكين بحقائق التقوى بقدرها. فمن كان في باطنه لوث محبة الدنيا من فضول المال والجاه، وطلب للناصب والرفعة، سال وادى قلبه بقدره، فأخذ من العلم طرفاً صالحاً ولم يحط بحقائق العلوم، ومن زهد في الدنيا اتسع وادى قلبه، فسالت فيه مياه العلوم، واجتمعت وصارت أخلافت.

فيل للحسن البصري : هكذا قال الفقهاء، فقال : وهل رأيت فقيهاً قط، إنما الفقيه الزاهد في الدنيا.

فالصوفية أخذوا حظاً من علم الدراسة فأخذهم علم الدراسة العمل بالعلم، فلما عملوا بما علموا أخذهم العمل علم الوراثة، فهم مع سائر العلماء في علومهم، وتميزوا عنهم بعلوم زائدة، هي علوم الوراثة، وعلم الوراثة هو المقه في الدين.

قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانِ الْمُؤْمِنُونَ لِتَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا
نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا
إِلَيْهِمْ...﴾^(١)

فصار الإنذار مستفاداً من الفقه، والإنذار إحياء للنذر بماء العلم،
والإحياء بالعلم رتبة الفقه هي الدين، فصار الفقه هي الدين من أكمل
التراتب وأعلاها، وهو علم العالم الزاهد في الدنيا، التقى، الذي يبلغ رتبة
الإنذار بعلمه.

فمورد العلم والهدى رسول الله ﷺ أولاً، ورد عليه الهدى والعلم من الله
تعالى، فارتوى بذلك ظاهراً وباطناً، فظهر من ارتواء ظاهره الدين، والدين
هو الانقياد والخضوع، مشتق من اللون، فكل شيء اتضع فهو لون، فالدين
أن يضع الإنسان نفسه لربه.

قال الله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا
إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا
فِيهِ...﴾^(٢)

فبالانفراق في الدين يستولى النبول على الجوارح، وتذهب عنها نضارة
العلم، والنضارة في الظاهر بتزيين الجوارح بالانقياد في النفس والنال، مستفاد
من ارتواء القلب والقلب في ارتوانه بالعلم بمثابة فبحر، فصار قلب رسول الله
ﷺ بالعلم والهدى بحراً موجاً، ثم وصل من بحر قلبه إلى النفس، فظهر على
نفسه الشريفة نصارة العلم وريه، فتبدلت نعوت النفس وأخلاقها، ثم وصل
إلى الجوارح جنول فصارت ريانة ناضرة، فلما استتمت نضارة وامتلات ربا
بعنه الله تعالى إلى الحلق، فاقبل على الأمة بقلب موج بمياه العلوم، واستقبل

(١) سورة التوبة، الآية ١٢٢.

(٢) سورة الشورى، الآية ١٣.

جداول الفهوم، وحرى من بحرہ فی کل جدول قسط ونصيب، وذلك القسط
الواصل إلى الفهوم هو المقه فی الدين.

روى عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ قال: «ما عبد
الله عز وجل بشيء أفضل من فقه في الدين، وفقه واحد أشد على الشيطان
من ألم عابد، ولكل شيء عماد وعماد هذا الدين الفقه».

حدثنا شيخ الإسلام أبو النجيب إمامنا، قال حدثنا سعيد بن حفص،
قال حدثنا أبو طالب الزيتي، قال أخبرتنا ريمة بنت أحمد بن محمد الروزية،
قالت أخبرنا أبو الهيثم، قال أخبرنا الفريزي، قال أخبرنا البخاري، قال حدثنا
ابن وهب، عن يونس، عن ابن شهاب، عن حميد بن عبد الرحمن، قال،
سمعت معاوية خطيباً يقول سمعت رسول الله ﷺ يقول، «من يرد الله به خيراً
يفقهه في الدين، وإنما أنا قاسم والله يعطي».

قال الشيخ، إذا وصل العلم إلى القلب انفتح بصر القلب، فابصر الحق
والباطل، وتبين له الرشيد من الغي.

ولما قرأ رسول الله ﷺ على الأعرجي «فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره»
ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره»، قال الأعرجي، حسبي حسبي، فقال رسول
الله ﷺ، «فقه الرجل».

وروى عبد الله بن عباس، أفضل العباد الفقه في الدين.

والحق سبحانه وتعالى جعل الفقه صفة القلب، فقال: (مَنْ قُلُوبٌ لَا
يَفْقَهُونَ بِهَا وَهُمْ^(١)) فلما فقهوا علموا، ولما علموا عملوا، ولما عملوا
عرفوا، ولما عرفوا اهتدوا، فكل من كان الله مكانت نفسه أسرع إجابة،
واكثر انقياداً لعالم الدين، وأوفر حظاً من نور اليقين.

فالعلم جملة موهوبة من الله للقلوب، والعرفة تميز تلك الجملة،
والهدى وجدان القلوب ذلك، فالنبي ﷺ لما قال: «مثل ما بعثني الله به من
الهدى والعلم» أخبر أن وجد القلب النبوي العلم، وكان هادياً مهدياً، وعلمه
صلوات الله عليه منهما وراثة معجونة فيه من آدم أبي البشر ﷺ حيث علم
الأسماء كلها، والأسماء سمة الأشياء، فكرمه الله تعالى بالعلم

وقال تعالى: ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾^(١).

فآدم لما ركب من العلم والحكمة صار ذا الفهم والفطنة والعرفة،
والرأفة واللفظ، والحب والبغض، والفرح والغم، والرضا والغضب، والكياسة.
ثم اقتضاه استعمال كل ذلك وجعل لقلبه بصيرة واهتداء إلى الله تعالى
بالنور الذي وهب له.

فالنبي ﷺ بعث إلى الأمة بالنور للوروث وللوهوب له خاصة.

وقيل: لما خاطب الله السموات والأرض بقوله: «أتينا طوعاً أو مكرهاً»
فألتا أتينا طائعين» نطق من الأرض وأجاب موضع الكعبة، ومن السماء ما
يحاذيها.

ولقد قال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: أصل طينة رسول الله ﷺ
من سررة الأرض بمكة.

فقال بعض العلماء: هذا يشعر بأن ما أحاط من الأرض ذرة الصطفى
محمد ﷺ، ومن موضع الكعبة حيث الأرض، فصار رسول الله ﷺ هو الأصل
في التكوين، والكائنات تبع له. وإلى هذا الإشارة بقوله ﷺ «كنت نبياً وادم
بين الماء والطين»^(٢)، وفي رواية «بين الروح والجسد» وقيل لذلك سمي أمياً،
لأن مكة أم القرى، وذرته أم الخليفة وتربة الشخص منه، فكان يقتضي أن
يكون منه بمكة حيث كانت تربته منها، ولكن قيل الماء لما تموج رمى

(١) سورة العلق، الآية ٥.

(٢) أي قدر الله نبوته كما قدر الأشياء كلها.

الزهد إلى النواحي ف وقعت جوهرة النبي ﷺ إلى ما يحاذي تربته بالدينه،
وكان رسول الله ﷺ مكيا مدنيا، حنينا إلى مكة، وتربته بالدينه^(١).

والإشارة فيما ذكرناه من ذرة رسول الله ﷺ هو ما قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ
أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ
بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى...﴾^(٢) ورد في الحديث أن الله تعالى مسح ظهر آدم وأخرج
ذريته منه كهيئة الذر، استخرج الذر من مسام شعر آدم، فخرج الذر
كمخرج العرق.

وقيل: كان المسح من بعض الملائكة، فأضاف الفعل إلى السبب.

وقيل: معنى القول بأنه مسح أي أحصى كما تحصى الأرض بالمساحة،
وكان ذلك ببطن نعمان، وإذ بجانب عرفة بين مكة والطائف. فلما خاطب
الذر وأجابوا ببلى كتب العهد في ورق أبهى، وأشهد عليه الملائكة، وأقم
الحجر الأسود فكانت ذرة رسول الله ﷺ هي المحبة من الأرض، والعلم والهدى
فيه معجوزان، فبعث بالعلم والهدى موروذا له وموهوبا^(٣).

(١) هذا تعسف في التأويل لا يمر له فلم يخلق من الطين، إلا آدم عليه السلام فالحلق على أربعة
أصناف

أ- من الطين لقوله جل وعز، ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ﴾ [سورة السجدة آية ٧] وهو
آدم عليه السلام.

ب- من آب يثون أم وهي حواء خلقت من آدم عليها السلام لقوله تعالى، ﴿بَنَيْنَاهَا آلَاسَ أَنْتُمْ
وَرَبُّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجَعَلَكُمْ زَوْجًا﴾ [سورة النساء آية ١].

ج- من أم بلا أب وهو المسيح عليه السلام لقوله جل وعلا، ﴿وَمَرْيَمُ ابْنَتْ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَيْنَا
فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا﴾ [سورة التحريم آية ١٢]. ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَمْرُؤُكُمْ إِنَّ اللَّهَ يَبْشُرُكُمْ
بِكِتْمَانٍ آتِيهِ السَّيِّحُ عِمِّيَ لَنْ مَرْتَمَ وَجَعَلَهَا فِي الْغَنَى وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُفْرِيُونَ﴾ [سورة آل
عمران آية ٤٥].

د- من رجل وامرأة وهم سلق البشر ومنهم الأنبياء لقوله جل وعز، ﴿وَلَكِنْ مَتَّعْنَاهُمْ لَا كَثِيرًا
وَنِسَاءً﴾ [سورة النساء آية ١] أي من آدم وحواء ثم من جاءوا بعدهم وهكذا حتى يرث الله
الأرض ومن عليها.

(٢) سورة الأعراف الآية ١٧٢.

(٣) علم الرسول ﷺ من الله سبحانه وتعالى إما بطريق الوحي أو الإلهام.

وقبل، لما بعث الله جبرائيل وميكائيل ليقبضا قبضة من الأرض فابت،
حتى بعث الله تعالى عزرائيل، فقبض قبضة من الأرض، وكان إبليس قد
وطن الأرض بقدميه، فصار بعض الأرض بين قدميه، وبعض الأرض بين
موضع قدميه، فخافت النفس مما مس قدم إبليس، فصارت ماوى الشر^(١)،
وبعضها لم يصل إليه قدم إبليس، فمن تلك التربة اصل الأنبياء والأولياء.

وكانت ثرة رسول الله ﷺ موضع نظر الله تعالى من قبضة عزرائيل،
لم يمسها قدم إبليس، فلم يصبه حظ الجهل، بل صار منزوع الجهل، موافرا
حظه من العلم، فبعثه الله تعالى بالهدى والعلم، وانتقل من قلبه إلى القلوب،
ومن نفسه إلى النفوس، فوكلت للناسبة في اصل طهارة الطينة، ووقع التأليف
بالتعارف الأول.

فكل من كان أقرب مناسبة بنسبة طهارة الطينة، كان أوفر حظا
من قبول ما جاء به، فكانت قلوب الصوفية أقرب مناسبة، فاخذت من العلم
حظا وافرا وصارت بواطنهم أخافت، فعلموا وعملوا، كالأخاذ الذي يسقى
منه ويزرع منه، وجمعوا بين فائدة علم الدراسة وعلم الوراثة بأحكام أساس
التقوى.

ولما تزككت النفوس، انجلت مرابا قلوبهم، بما صقلها من التقوى،
فانجلى فيها صور الأشياء على هيئتها وماهيتها، فبان للنفوس بقبورها
فرفضوها، وظهرت الآخرة بحسنها فطلبوها. فلما زهقوا في الدنيا، انصببت
إلى بواطنهم أقسام العلوم انصبابا، وانضاف إلى علم الدراسة علم الوراثة.

(١) هذه أمور غيبية لم يشهد بها أحد لقوله سبحانه وتعالى: ﴿ مَا أَفْتَدِيكُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِكُمْ ﴾ [سورة الكهف: ٢٥]، فليس هناك دليل يسمد مثل هذه
الحكايات، وما ذنب الإنسان الذي خلقه الله مما مس قدم الشيطان حتى تكون نفسه ماوى للشر.

واعلم أن كل حال شريف نعزوه إلى الصوفية في هذا الكتاب، هو حال المقرب، والصوفي هو المقرب، وليس في القرآن اسم الصوفي، واسم الصوفي ترك ووضع للمقرب على ما سنشرح ذلك في بابه.

ولا يعرف في طرق بلاد الإسلام شرقاً وغرباً هذا الاسم لأهل القرب، وإنما يعرف للمترسمين وحكم من الرجال للقربين في بلاد الغرب وبلاد تركستان وما وراء النهر لا يسمون صوفية، لأنهم لا يتزيون بزى الصوفية، ولا مشاحة في الألفاظ فيعلم لنا نعتي بالصوفية القربين.

المشايخ الصوفية الذين أسماؤهم في الطبقات وغير ذلك من الكتب كلهم مكانوا في طريق القربين، وعلومهم علوم أحوال القربين، ومن تطلع إلى مقام القربين من جملة الأبرار هو متصوف ما لم يتحقق بحالهم، فإذا تحقق بحالهم صار صوفياً، ومن عداها ممن تميز بزى ونسب إليهم فهو متشبه، وفوق كل ذي علم عليه.

الباب الثاني في تخصص الصوفية بحسن الاستماع

حدثنا شيخنا شيخ الإسلام أبو النجى ب السهروردي إماماً، قال أنا أبو منصور النخري، قال أنا الإمام الحافظ أبو بكر الخطيب، قال أنا أبو عمرو الهاشمي، قال أنا أبو علي اللؤلؤي، قال أنا أبو داود السجستاني، قال حدثنا مسدد، قال حدثنا يحيى، عن شعبه، قال حدثني عمر بن سليمان من ولد عمر ابن الخطاب، عن عبد الرحمن بن أبان، عن أبيه، عن زيد بن ثابت، قال سمعت رسول الله ﷺ يقول، «نضر امرأ سمع منا حديثاً فحفظه حتى يبلغه غيره، فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه، ورب حامل فقه وليس بفقيه».

أساس كل خير حسن الاستماع.

قال الله تعالى، ﴿ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ ^ط... ﴾ ^(١).

يقول بعضهم، علامة الخير في السماع أن يسمع العبد بفناء أوصافه ونعوته ويسمعه بحق من حق.

وقال بعضهم: لو علمهم أهلاً للسمع لفتح آذانهم للاستماع. فمن تملكته الوسوس وغلب على باطنه حديث النفس لا يقدر على حسن الاستماع.

فالصوفية وأهل القرب لما علموا أن كلام الله تعالى ورسائله إلى عباده ومخاطباته إياهم، رأوا كل آية من كلامه تعالى بمرآة من أبحر العلم، بما تتضمن من ظاهر العلم وباطنه، وجليه وخفيه، وباباً من أبواب الجنة، باعتبار ما تنبيه أو تدعو إليه من العمل.

ورأوا كلام رسول الله ﷺ الذي لا ينطق به عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى، من عند الله تعالى، يتعين الاستماع إليه، فكان من أهم ما عندهم الاستعداد للاستماع، ورأوا أن حسن الاستماع قرع باب الملكوت، واستنزال بركة الرغبات والرغبات.

ورأوا أن الوسوس أئمة فائرة من نار النفس الأمارة بالسوء، وقتام يتراكم من نفث الشيطان، وأن الخطوط العاجلة والأقسام الدنيوية التي هي مناط الهوى ومثار الردى بمثابة الخطب الذي تزداد النار به تاججا، ويزداد القلب به تحرجا، فرفضوا الدنيا وزهدوا فيها.

فلما انقطعت عن نار النفس أحطابها، وفترت تيرانها، وقل دخانها، شهدت بواطنهم وقلوبهم ومصادر العلوم، فهبتوا مولدها بصفاء الفهم، فلما شهدوا سمعوا، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾^(١).

قال الشبلي رحمه الله: موعظة القرآن لمن قلبه حاضر مع الله لا يعفل عنه طرفة عين.

قال يحيى بن معاذ الرازي: القلب قلبان:

قلب قد احتشى بأشغال الدنيا، حتى إذا حضر أمر من أمور الطاعة لم يدر صاحبه ما يصنع من شغل قلبه بالدنيا.

وقلب قد احتشى بأحوال الآخرة، حتى إذا حضر أمر من أمور الدنيا لم يدر صاحبه ما يصنع لذهاب قلبه في الآخرة.

فانظر كم بين بركة تلك الأفهام الثابتة، وشؤم هذه الأشغال الفانية التي أعمتتك عن الطاعة.

وقال بعضهم: إن كان له قلب سليم من الأغراض والأمراض.

قال الحسين بن منصور: ^(١) لئن كان له قلب لا يخطر فيه إلا شهود

الرب وأنشد:

أنعى إليك قلوباً طائفاً هطلت سبحانه الوحي فيها أبجر الحكم

وقال ابن عطاء: قلب لاحظ الحق بعين التعظيم، فذاب له وانقطع له

عما سواه.

وقال الواسطي: أي تذكرى لقوم مخصوصين لا لسانر الناس، لئن كان له قلب أي في الأزل وهم الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأُحْيَيْنَاهُ...﴾ ^(٢).

وقال أيضاً: الشاهدة تذهل، والحجبة تفهم، لأن الله تعالى إذا تجلى لشيء خضع له وخضع.

وهذا الذي قاله الواسطي صحيح في حق أقوام. وهذه الآية تحكم بخلاف هذا لأقوام آخرين، وهم أرباب التمكين، يجمع لهم بين الشاهدة والفهم. فموضع الفهم محل الحادثة والكاللة، وهو سمع القلب، وموضوع الشاهدة بصر القلب. والسمع حكمة وفائدة، والبصر حكمة وفائدة. فمن هو في سكر الحال يغيب سمعه في بصره، ومن هو في حال الصحو والتمكين لا يغيب سمعه في بصره، لتملكه ناصية الحال، ويفهم بالوعاء الوجودى المستعد المقال، لأن الفهم لفهم مورد الإلهام والسمع.

والإلهام والسمع يستدعيان وعاء وجودياً، وهذا الوجود موهوب منشأ إنشاء ذاتياً للتمكن في مقام الصحو، وهو غير الوجود الذي يتلاشى عند لعان نور الشاهدة لمن جاز على ممر الفناء إلى مقام البقاء.

(١) الحلاج.

(٢) سورة الأنعام، الآية ١٢٢.

وقال ابن سمعون: إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب يعرف آداب الخدمة وأدب القلب، وهي ثلاثة أشياء:

فالقلب إذا ذاق طعم العبادة عتق من رق الشهوة، فمن وقف على شهوته وجد ثلث الأدب.

ومن اعتقر إلى ما لم يجد من الأدب بعد الاشتغال بما وجد فقد وجد ثلثي الأدب.

والثالث امتلاء القلب بالذي بدأ بالفضل عند الوفاء تفضلاً، فقد وجد كل الأدب.

وقال محمد بن علي الباقر، موت القلب من شهوات النفس، فكلمنا رهب شهوة نال من الحياة بقسطها، فالسمع للأحياء لا للأموات. قال الله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتِينَ...﴾^(١).

قال سهل بن عبد الله: القلب رفيق تؤخر فيه الخطوات الذمومة، وأخر القليل عليه كثير. قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾^(٢)، فالقلب عمال لا يفر، والنفس بقطانه لا ترقد، فإن كان العبد مستمعاً إلى الله تعالى، وإلا فهو مستمع إلى الشيطان والنفس.

لكل شيء سد باب الاستماع فمن حركته النفس، وفي حركتها بطرق الشيطان. وقد ورد، لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بني آدم لنظروا إلى ملكوت السموات.

وقال الحسن بن بصائر البصريين، ومعارف العارفين، ونور العلماء الربانيين، وطرق السابقين الناجين، والأزل والأبد وما بينهما من الحدث لمن كان له قلب أو تقى السمع.

(١) سورة النمل، الآية ٨٠.

(٢) سورة الزخرف، الآية ٣٦.

وقال ابن عطاء: هو القلب الذي يلاحظ الحق ويشاهده ولا يغيب عنه
خطرة ولا فترة، فيسمع به، بل يسمع منه، ويشهد به، بل يشهده، فإذا لاحظ
القلب الحق بعين الجلال، فزع ولرعد، وإذا طالعه بعين الجمال هدأ واستقر.

وقال بعضهم: لمن كان له قلب بصير يقوى على التجريد مع الله تعالى،
والتفريد له، حتى يخرج من النخيا والخلق والنفس، فلا يشتغل بخيره، ولا
يركض إلى سواه، فقلب الصوفي مجرد عن الالكوان، ألقى سمعه، وشهد
بصره.

فسمع السموعات، وأبصر البصرات، وشاهد الشهودات، لتخلصه إلى الله
تعالى، واجتماعه بين يدي الله. والأشياء كلها عند الله، وهو عنده، فسمع
وشاهد، فأبصر وسمع جملها، ولم يسمع وبشاهد تفاصيلها، لأن الجمل تدرك
لجنة عين الشهود، والتفاصيل لا تدرك لضيق وعاء الوجود. والله تعالى هو
العالم بالجمال والتفاصيل.

وقد مثل بعض الحكماء تفاوت الناس في الاستماع وقال: إن البائر خرج
ببذره فملاً منه كفة، فوقع منه شيء على ظهر الطريق فلم يلبث أن
انحط عليه الطير فاخطفه، ووقع منه شيء على الصفوان وهو الحجر
الأمس عليه تراب يسير وندى قليل فنبتت حتى إذا وصلت عروقه إلى
الصفاء لم تجد مساعاً تتغذ فيه فيبس.

وقع منه شيء في أرض طيبة فيها شوك فنبتت فلما ارتفع خنقه
الشوك فأفسده واختلط به، ووقع منه شيء على أرض طيبة ليست على
ظهر الطريق ولا على الصفوان ولا فيها شوك فنبت وبما وصلح.

فمثل البائر مثل الحكيم، ومثل البذر كمثل صوب الكلام، ومثل ما
وقع على ظهر الطريق مثل الرجل يسمع الكلام وهو لا يريد أن يسمعه، فما
يلبث للشيطان أن يختطفه من قلبه فينساه.

ومثل الذي وقع على الصفوان مثل الرجل يستمع الكلام فيستحسنه ثم تفضي الكلمة إلى قلب ليس فيه عزم على العمل فينسخ من قلبه.

ومثل الذي وقع في أرض طيبة فيها شوك، مثل الرجل يسمع الكلام وهو ينوي أن يعمل به، فإذا اعترضت له الشهوات قهنته عن النهوض بالعمل، فترك ما نوى عمله لخلابة الشهوة، كالزراع يختنق بالشوك.

ومثل الذي وقع في أرض طيبة مثل المستمع الذي ينوي عمله فيفهمه ويعمل به ويجانب هواه.

وهذا الذي جانب الهوى انتهج سبيل الهدى هو الصوفي، لأن للهوى حلاوة والنفس إذا تشربت حلاوة الهوى فهي تترك إلهه وتستلذه، واستلذاله الهوى هو الذي يخلق النبت كالشوك، وقلب الصوفي نازله حلاوة الحب الصافي، والحب الصافي تعلق الروح بالحضرة الإلهية، ومن قوة انجذاب الروح إلى الحضرة الإلهية بداعية الحب تستتبع القلب والنفس.

وحلاوة الحب للحضرة الإلهية تعلق حلاوة الهوى، لأن حلاوة الهوى كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار، لكونها لا ترتقي عن حد النفس، وحلاوة الحب كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء، لأنها متصلة في الروح، فرعها عند الله تعالى وعروقها ضاربة في أرض النفس، فإذا سمع الكلمة من القرآن أو من كلام رسول الله ﷺ يتشربها بالروح والقلب والنفس، ويفضيها بكلية ويقول،

أشتم منك نسيماً لست أعرفه أظن لاء جرت فيك أردالا

فتعمه الكلمة وتشمله، وتصير لكل شجرة منه سمماً، وكل ذرة منه بصراً، فيسمع الكل بالكل، ويبصر الكل بالكل، ويقولون:

إن تأملتكم فكلي عيون أو تذكرتكم فكلي قلوب

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿... فَبَشِّرْ عِبَادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾^(١).

قال بعضهم: القلب والعقل مائة جزء، تسعة وتسعون في النبي ﷺ وجزء في سائر المؤمنين، والجزء الذي في سائر المؤمنين أحد وعشرون سهماً، فسهم يتساوى المؤمنون كلهم فيه، وهو شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وعشرون جزءاً يتفاضلون فيها على مقادير حقائق إيمانهم.

قيل: في هذه الآية فضيلة رسول الله ﷺ، أي الأحسن ما يأتي به، لأنه لما وقعت له صحبة التمكين، ومقارنة الاستغفار قبل خلق الكون، ظهرت عليه الأنوار في الأحوال كلها، وكان معه أحسن الخطاب وله السبق في جميع المقامات، ألا تراه ﷺ يقول: «نحن الآخرون السابقون» يعني الآخرون وجوداً، السابقون في الخطاب الأول في الفضل في محل النفس.

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ...﴾^(٢).

قال الجنيد: تنسموا روح ما دعاهم إليه، فاسرعوا إلى محو العلانق للشغلة، وهجموا بالنفوس على معانقة الحشر، وثجعوا مراراً للكسابة، وصدقوا الله في المعاملة، وأحسنوا الأدب فيما توجهوا إليه، وهانت عليهم المصائب، وعرفوا قدر ما يطلبون، وسجنوا همهم عن التفلت إلى مذكور سوى وليهم، فحيوا حياة الأبد بالحي الذي لم يزل ولا يزال.

وقال الواسطي رحمه الله تعالى: حياً بما تصفيتها عن كل معلول لفضلاً وفعللاً.

(١) سورة الرعد: الآيات ١٧ - ١٨.

(٢) سورة الأنفال، الآية ٢٤.

وقال بعضهم: استجبوا لله بسر أركانكم، وللرسول بظواهركم، فحياة النفوس بمتابعة الرسول ﷺ، وحياة القلوب بمشاهدة العيوب، وهو الحياء من الله تعالى برؤية التقصير.

وقال ابن عطاء: في هذه الآية الاستجابة على أربعة أوجه: أولها إجابة التوحيد، والثاني إجابة التحقيق، والثالث إجابة التسليم، والرابع إجابة التقريب. فالاستجابة على قدر السماع، والسماع من حيث التفهم، والمهم على قدر المعرفة بقدر الكلام، والمعرفة بالكلام على قدر المعرفة والعلم بالكلم، ووجوه الفهم لا تنحصر، لأن وجوه الكلام لا تنحصر.

قال الله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾^(١) قاله تعالى في كل كلمة من القرآن كلماته التي بنفد دون نفاذها، فكل الكلام كلمة نظرا إلى ذات التوحيد، وكل كلمة كلمات نظرا لسعة العلم الأزلي.

حدثنا شيخنا أبو النجيب السهروردي، قال: أنبأنا الرئيس أبو علي بن نبهان، قال: أنا الحسن بن شاذان، قال: أنا دعلج بن أحمد، قال: أنا أبو الحسن ابن عبد العزيز البغوي، قال: أنا أبو عبيد بن القاسم بن سلام، قال: حدثنا حجاج عن حماد بن سلمة، عن علي بن زيد عن الحسن، برفعه إلى النبي ﷺ قال: «ما نزل من القرآن آية إلا ولها ظهر وبطن، ولكل حرف حد، ولكل حد مطلع»، فقال: فقلت يا أبا سعيد ما المطلع؟ قال: يطالع قوم يعملون به. قال أبو عبيد: أحسب أن قول الحسن هنا إنما ذهب إلى قول عبد الله ابن مسعود، قال أبو عبيد، حدثني حجاج، عن شعبة، عن عمرو بن مرة، عن مرة، عن عبد الله بن مسعود، قال: ما من حرف أو آية إلا وقد عمل بها قوم أو لها قوم سيعملون بها. فالمطلع للصعد يصعد إليه من معرفة علمه، فيكون المطلع الفهم يفتح الله تعالى على كل قلب بما يزرق من النور.

واختلف الناس في معنى الظهر والبطن.

قال قوم: الظهر لفظ القرآن، والبطن تاويله.

وقيل: الظهر صورة القصة مما أخبر الله تعالى عن غضبه على قوم وعقابه إياهم، فظاهر ذلك إخبار عنهم، وباطنه عظة وتنبيه لمن يقرأ وبسمع من الأمة.

وقيل: ظاهره تنزيله الذي يجب الإيمان به، وباطنه وجوب العمل به.

وقيل: ظهره تلاوته حكماً نزل. قال الله تعالى: ﴿...وَرَيَّلَ الْقُرْآنَ أَنْ تَرْتِيلاً﴾^(١).

وبطنه التدبر والتفكير فيه. قال الله تعالى: ﴿كَتَبَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾^(٢).

وقيل: قوله لكل حرف حد، أي في التلاوة لا يجاوز للصنف الذي هو الإمام، وفي التفسير لا يجاوز السموع للنقول.

وهرق بين التفسير والتاويل. فالتفسير علم نزول الآية وشأنها وفصلتها والأسباب التي نزلت فيها، وهذا محظور على الناس كافة القول إلا بالسمع والأثر. وأما التاويل فصرف الآية إلى معنى تحتمله إذا كان المحتمل الذي يراه يوافق الكتاب والسنة. فالتاويل يختلف باختلاف حال التأويل على ما ذكرناه من صفاء الفهم ورتبة المعرفة ومنصب القرب من الله تعالى.

قال أبو الدرداء، لا يفقه الرجل كل الفقه حتى يرى للقرآن وجوهاً كثيرة.

فما أعجب قول عبد الله بن مسعود: ما من آية إلا ولها قوم سيعملون بها.

(١) سورة الرمل، الآية ٤.

(٢) سورة ص، الآية ٢٩.

وهذا الكلام محرض لكل طالب صاحب همة أن يصفى موارد الكلام،
وبفهم دقيق معانيه وغامض أسراره من قلبه.

فالمصوفي بكمال الزهد في الدنيا، وتجريد القلب عما سوى الله تعالى،
مطلع من كل آية، وله بكل مرة في التلاوة مطلع جديد وفهم عتيق، وله
بكل فهم عمل جديد، ففهمهم يدعو إلى العمل، وعملهم يجلب صفاء الفهم
ودقيق النظر في معاني الخطب. فمن العلم علم، ومن العلم عمل، والعلم
والعمل يتناوبان فيه.

وهذا العمل أنفياً إنما هو عمل القلوب، وعمل القلوب غير عمل القالب،
وأعمال القلوب للطفها وصناعاتها مشاكسة للعلوم، لأنها نيات وطويات
وتعلقات روحية، وتأديت قلبية، ومسامرات سرية.

وكلما أتوا بعمل من هذه الأعمال رفع لهم علم من العلم، واطلعوا
على مطلع من فهم الآية جديد. ويخالف سرى أن يكون اللطع ليس بالوقوف
بصفاء الفهم على دقيق المعنى وغامض السر في الآية، ولكن اللطع أن يطلع
عند كل آية على شهود التكلم بها، لأنها مستودع وصف من أوصافه، وبعث
من نعوته، فيتجدد له التجليات بتلاوة الآيات وسماعها، ويصير له مرآة
منبهة عن عظيم الجلال.

ولقد نقل عن جعفر الصادق رضي الله عنه أنه قال، لقد يجلي الله تعالى
لعباده في كلامه ولكن لا يبصرون، فيكون كل آية مطلع من هذا الوجه،
فالحمد لكلام، وللطالع الرقي عن حد الكلام إلى شهود التكلم.

وقد نقل عن جعفر الصادق أيضاً أنه خر مغشياً عليه وهو في الصلاة،
السئل عن ذلك فقال، ما زلت أردد الآية حتى سمعتها من التكلم بها.

فالمصوفي لما لاح له نور ناصية التوحيد، وألقى سمعه عند سماع الوعد
والوعيد، وقلبه بالتخلص عما سوى الله تعالى، صار بين يدي الله حاضراً
شهيذا يرى لسانه أو لسان غيره في التلاوة كشجرة موسى عليه السلام

حيث أسمع الله منها خطابه إياه بأنى الله. فإذا كان سماعه من الله تعالى واستماعه إلى الله صار سماعه بصره، وبصره سمعه، وعلمه عمله، وعمله علمه، وعاد آخره أوله، وأوله آخره. ومعنى ذلك أن الله تعالى خاطب الله بقوله.

ويحتاج الطالب للعلوم والأخبار وسير أهل الصلاح وحكاياتهم وأنواع الحكم والأمثال التي فيها نجات من غلب الآخرة أن يكون في ذلك كله متادياً بأدب حسن الاستماع، لأنه نوع من ذلك.

وحكما أن القلب استعداد بحسن الاستماع بالزهد والتقوى حتى أخذ من كل ما سمعه أحسنه فيكون أخذاً بالطالعة من كل شيء أحسنه.

ومن الأدب في الطالعة أن العبد إذا أراد أن يطالع شيئاً من الحديث والعلم يعلم أنه قد تكون مطالعة ذلك ببلابة النفس وقلة صبرها على الذكر والتلاوة والعمل فتستروح بالطالعة حكماً لتروح بمجالسة الناس ومكالتهم.

فإن فقد للتفطن نفسه في ذلك ولا يستحلى مطالعة الكتب إلى حد يأخذ ذلك من وقته، ويراعى الإفراط فيه، فإذا أراد مطالعة كتاب أو شيء من العلم لا يبادر عليه إلا بعد التثبت والإنابة والرجوع إلى الله تعالى، وطلب التأييد من رحمة الله تعالى فيه، فإنه قد يرزق بالطالعة ما يكون من مزيد حاله، ولو قدم الاستخارة لذلك مكان حسناً، فإن الله تعالى يفتح عليه باب الفهم والتفهم موهبة من الله زيادة على ما يتبين من صورة العلم، فللعلم صورة ظاهرة وسر باطن وهو الفهم.

والله تعالى نبه على شرف الفهم بقوله: ﴿فَفَهَّمْنَهَا سُلَيْمَنٌ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا...﴾^(١) أشار إلى الفهم بمزيد اختصاص وتمييز عن الحكم والعلم. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ﴾^(٢).

(١) سورة الأنبياء: الآية ١٨.

فإن كان السمع هو الله تعالى يسمع قلرة بواسطة اللسان، وتارة بما يرزق بمطالعة الكتب من التبيان، فصار ما يفتح الله تعالى بمطالعة الكتب على معنى ما يرزق من السمع ببركة حسن الاستماع، ليتفقد العبد حاله في ذلك، ويتعلم علمه وأدبه، فإنه باب كبير من أبواب الخير، وعمله صانع من أعمال الشايخ والصوفية والعلماء الزاهدين للتبتلين لاستفتاح أبواب الرحمة والزيد من كل شيء ينفع سلوك الآخرة.

الباب الثالث

في بيان فضيلة علوم الصوفية والإشارة إلى أنموذج منها

حدثنا شيخ الإسلام أبو النجيب السهروردي رحمه الله، قال أنبأنا أبو عبد الرحمن الصوفي، قال: لنا عبد الرحمن بن محمد، قال: أنا أبو محمد عبد الله بن أحمد السرخسي، قال: لنا أبو عمران السمرقندي، قال: أنا أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي، قال: حدثنا نعيم بن حماد، قال: حدثنا بقية عن الأحوص بن حكيم، عن أبيه قال: سأل رجل النبي ﷺ عن الشر فقال: «لا تسألوني عن الشر وسلوني عن الخير، بقولها ثلاثاً، ثم قال: إن شر البشر شرار العلماء، وإن خير الخير خيار العلماء».

فالعلماء أدلاء الأمة، وعمد الدين، وسرج ظلمات الجهالات الجبلية، وبقباء ديوان الإسلام، ومعادن حكم الكتاب والسنة، وأمناء الله تعالى في خلقه وأطباء العباد، وجهابذة اللغة الحنمية، وحملة عظيم الأمانة. فهم أحق الخلق بحقائق التقوى، وأحوج العباد إلى الزهد في الدنيا، لأنهم يحتاجون إليها لأنفسهم ولغيرهم، ففسادهم فساد متعدد، وصلاحهم صلاح متعدد.

قال سفيان بن عيينة: أجهل الناس من ترك العمل بما يعلم، وأعلم الناس من علم بما يعلم، وأفضل الناس أخشعهم لله تعالى.

وهذا قول صحيح، يحكم بأن العالم إذا لم يعمل بعمله فليس بعالم، فلا يترك تشدقه واستطالته، وحناقته وقوته في المناظرة والمجادلة، فإنه جاهل وليس بعالم، إلا أن يتوب الله عليه ببركة العلم، فإن العلم في الإسلام لا يضيع أهله، ويرجي عود العالم ببركة العلم.

والعلم فريضة وفضيلة، فالفريضة ما لا بد للإنسان من معرفته، ليقوم بواجب حق الدين. والفضيلة ما زاد على قدر حاجته مما يكسبه

فضيلة في النفس موافقة للكتاب والسنة. وكل علم لا يوافق الكتاب والسنة، وما هو مستفاد منهما، أو معين على فهمهما، أو مستند إليهما كأننا ما كان، فهو رذيلة وليس بفضيلة، يزهد الإنسان به هواناً ورذيلة في الدنيا والآخرة.

قال العلم الذي هو فريضة لا يسمع الإنسان جهله، على ما حدثنا شيخنا شيخ الإسلام أبو النجيب قال: أنا الحافظ أبو القاسم المستعلي، قال: أنا الشيخ العالم أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري، قال: أنا أبو محمد عبد الله ابن يوسف الأصفهاني، قال أنا أبو سعيد بن الأعرابي، قال: حدثنا جعفر بن عامر العسكري، قال: حدثنا الحسن بن عطية، قال: حدثنا أبو عاتكة، عن أنس بن مالك، قال: قال رسول الله ﷺ «اطلبوا العلم ولو بالصين، فإن طلب العلم فريضة على كل مسلم».

واختلف العلماء في العلم الذي هو فريضة.

قال بعضهم: هو طلب علم الإخلاص، ومعرفة آفات النفوس وما يفسد الأعمال، لأن الإخلاص مأمور به، كما أن العمل مأمور به. قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُو إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ﴾^(١).

هذا الإخلاص مأمور به. وخدع النفس وغرورها ونسائسها وشهواتها الخفية تخرب مباني الإخلاص للأمور به، فصار علم ذلك فرضاً حيث كان الإخلاص فرضاً، وما لا يصل العبد إلى الفرض إلا به صار فرضاً.

وقال بعضهم: معرفة الخواطر وتفصيلها فريضة، لأن الخواطر هي أصل الفعل ومبدؤه ومنشؤه، وبذلك يعلم الفرق بين لمة الملك ولمة الشيطان، فلا يصح الفعل إلا بصحتها، فصار علم ذلك فرضاً حتى يصح الفعل من العبد لله.

(١) سورة البقرة، الآية ٢٠٠.

وقال بعضهم، هو طلب علم الوقت.

وقال سهل بن عبد الله، هو طلب علم الحال، يعني حكم حاله الذي بينه وبين الله تعالى في دنياه وآخرته.

وقيل، هو طلب علم الحلال حيث كان أكل الحلال فريضة. وقد ورد طلب الحلال فريضة بعد الفريضة، فنصار علمه فريضة من حيث إنه فريضة.

وقيل، هو طلب علم الباطن، وهو ما يزداد به العبد يقيناً. وهذا العلم هو الذي يكتسب بالصحة ومجالسة الصالحين من العلماء للوفنيين، والزهاد المقربين، الذين جعلهم الله تعالى من جنوده، يسوق الطالبين إليهم، ويقويهم بطريقتهم، ويرشدهم بهم، فهم وارث علم النبي عليه السلام، ومنهم يتعلم علم اليقين.

وقال بعضهم، هو علم البيع والشراء، والنكاح والطلاق، إذا أراد الدخول في شيء من ذلك يجب عليه طلب علمه.

وقال بعضهم، هو أن يكون العبد يريد عملاً يجهل ما الله عليه في ذلك، فلا يجوز له أن يعمل برأيه، إذ هو جاهل فيما له وعليه في ذلك، فراجع عالماً يسأله عنه ليحبيه على بصيرة ولا يعمل برأيه، وهذا علم يجب طلبه حيث جهل.

وقال بعضهم، طلب علم التوحيد فرض، فمن قائل يقول طريقه النظر والاستدلال، ومن قائل يقول إن طريقه النقل.

وقال بعضهم، إن كان العبد على سلامة الباطن وحسن الاستسلام والانقياد في الإسلام، ولا يحيك في صدره شيء فهم سالم، فإن حاك في صدره شيء أو توسوس بشيء يقدح في العقلية، أو يتلى بشبهة لا تؤمن غائلتها أن

تجره إلى بدعة أو ضلالة، فيجب عليه أن يستكشف عن الاشتباه، ويراجع أهل العلم ومن يفهمه طريق الصواب.

وقال الشيخ أبو طالب الكي رحمه الله: هو علم الفرائض الخمس التي بني عليها الإسلام، لأنها افترضت على المسلمين، وإذا كان عملها فرضاً صار علم العمل بها فرضاً. وذكر أن علم التوحيد داخل في ذلك، لأن أولها الشهادتان، والإخلاص داخل في ذلك، لأن ذلك من ضرورة الإسلام. وعلم الإخلاص داخل في صحة الإسلام.

وحيث أخبر رسول الله ﷺ أنه فريضة على كل مسلم يقتضي أن لا يسع مسلماً جهله، وكل ما تقدم من الأقاويل أكثرها ما يسع المسلم جهله لأنه قد لا يعلم علم الخواطر، وعلم الحال، وعلم الحلال بجميع وجوهه، وعلم اليقين الاستعداد من علماء الآخرة كما ترى، وأكثر للمسلمين على الجهل بهذه الأشياء. ولو كانت هذه الأشياء فرضت عليهم لعجز عنها أكثر الخلق إلا ما شاء الله.

ومبني في هذه الأقاويل إلى قول الشيخ أبي طالب أكثر، وإلى قول من قال يجب عليه علم البيع والشراء والنكاح والطلاق إذا أراد الدخول فيه. وهذا لعمرى فرض على المسلم علمه، وهكذا الذي قاله الشيخ أبو طالب. وعندي في ذلك حد جامع لطلب العلم للفرض، والله أعلم، فاقول،

العلم الذي طلبه فريضة على كل مسلم، علم الأمر والنهي، والمأمور ما يثاب على فعله ويعاقب على تركه، والنهي ما يعاقب على فعله ويثاب على تركه. والمأمورات والنهيات منها ما هو مستمر لازم للعبد بحكم الإسلام، ومنها ما يتوجه الأمر فيه والنهي عنه عند وجود الحادثة.

فما هو لازم مستمر لزومه متوجه بحكم الإسلام علمه به واجب من ضرورة الإسلام، وما يتجدد بالحوادث ويتوجه الأمر والنهي فيه فعلمه عند

تجلده فرض، لا يسع مسلماً على الإطلاق أن يجهله. وهذا الحد أعم من الوجوه التي سبقت والله أعلم.

ثم إن الشايخ من الصوفية وعلماء الآخرة الزاهدين في الدنيا شمروا عن ساق الجد في طلب العلم المفترض حتى عرفوه، وأقاموا الأمر والنهي، وخرجوا من عهد ذلك بحسن توفيق الله تعالى. فلما استقاموا في ذلك متابعين لرسول الله ﷺ حيث أمره الله تعالى بالاستقامة فقال تعالى: ﴿فَأَسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ...﴾^(١) فتح الله عليهم أبواب العلوم التي سبق ذكرها.

قال بعضهم: من يطبق مثل هذه الخاطبة بالاستقامة إلا من أهد من المشاهدات القوية، والأنوار البينة، والآثار الصادقة، بالتهنيت برهان عظيم، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَنْ نَبْتَثُكَ﴾^(٢) ثم حفظ في وقت الشاهدة ومشاهدة الخطاب، وهو للزمن بمقام القرب، والخطاب على بساط الأنس محمد ﷺ، وبعد ذلك خوطب بقوله: ﴿فَأَسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ...﴾ ولولا هذه اللقائات ما أطلق الاستقامة التي أمر بها.

فهل لأبي حفص، أي الأعمال الفضل؟

قال، الاستقامة، لأن النبي ﷺ يقول: «استقيموا ولن تحصوا».

وقال جعفر الصادق في قوله تعالى: ﴿فَأَسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ...﴾ أي افتقر إلى الله بصحة العزم.

ورأى بعض الصالحين رسول الله ﷺ في المنام قال: قلت يا رسول الله روي عنك أنك قلت شيبتي سورة هود وأخواتها، فقال نعم، قال: فقلت له، ما الذي شيبك منها، فقص الأنبياء وهلاك الأمم؟ فقال لا، ولكن قوله: ﴿فَأَسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ...﴾.

(١) سورة هود، الآية ١١٢.

(٢) سورة الاسراء، الآية ٧٤.

فكما أن النبي ﷺ بعد مقدمات الشاهدات خوطب بهذا الخطاب، وطولب بحقائق الاستقامة، فكنك علماء الآخرة الزاهدون ومشايخ الصوفية المقربون، منحهم الله تعالى من ذلك بقسط ونصيب، ثم ألهمهم طلب النهوض بواجب حق الاستقامة، ورأوا الاستقامة أفضل مطلوب وأشرف مأمور.

قال أبو علي الجوزجاني، مكن طالب الاستقامة لا طالب الكرامة، فإن نفسك متحركة في طلب الكرامة وربك يطلب منك الاستقامة.

وهذا الذي ذكره أصل كبير في الباب، وسر غفل عن حقيقته كثير من أهل السلوك والطلب، وذلك أن المجتهدين والتعبديين سمعوا بسير الصالحين المتقدمين، وما منحوا به من الكرامات وخوارق العادات، فأبدا نفوسهم لا تزال تتطلع إلى شيء من ذلك، ويعبون أن يرزقوا شيئاً من ذلك.

ولعل أحدهم يبقى منكسر القلب، متهماً لنفسه في صحة عمله، حيث لم يكشف شيء من ذلك، ولو علموا سر ذلك لهان عليهم الأمر فيه، فيعلم أن الله سبحانه وتعالى قد يفتح على بعض المجتهدين الصادقين من ذلك باباً. الحكمة فيه أن يزاد بما يرى من خوارق العادات وآثار القدرة بدينها، فيقوى عزمه على الزهد في الدنيا، والخروج من نواحي الهوى، وقد يكون بعض عباده يكشف بصرف اليقين، ويرفع عن قلبه الحجاب.

ومن مكوشف بصرف اليقين استغنى بذلك عن رؤية خوارق العادات، لأن المراد منها كان حصول اليقين وقد حصل اليقين، فلو مكوشف هذا الرزوق صرف اليقين بشيء من ذلك ما زدد يقيناً، فلا تقتضي الحكمة مكشف القدرة بخوارق العادات لهذا الوضع لاستغنائه، وتقتضي الحكمة كشف ذلك لآخر الوضع حاجته، فكان هذا الثاني يكون أتم استعداداً واهلية من الأول حيث رزق حاصل ذلك وهو صرف اليقين بغير واسطة من رؤية قدره، فإن فيه لذة وهو العجب، فأغنى عن رؤية شيء من ذلك.

فيسبيل الصادق مطالبة النفس بالاستقامة فهي كل الكرامة. ثم إذا وقع في طريقة شيء من ذلك جاز وحسن، وإن لم يقع فلا يبالي ولا ينقص بذلك، وإنما ينقص بالإخلال بواجب حق الاستقامة. فليعلم هذا لأنه أصل كبير للصالحين.

فالعلماء الزاهدون ومشايخ الصوفية والقريبون حيث أكرموا بالقيام بواجب حق الاستقامة، رزقوا سائر العلوم التي أشار إليها للتقدمون كما ذكرنا، وزعموا أنها فرض، فمن ذلك علم الحال، وعلم القيام، وعلم الخواطر.

وسنشرح علم الخواطر وتفصيلها في باب إن شاء الله تعالى، وعلم اليقين، وعلم الإخلاص، وعلم النفس ومعرفتها ومعرفة أخلاقها.

وعلم النفس ومعرفتها من أعز علوم القوم، وأقوم الناس بطريق القريبين والصوفية ألومهم بمعرفة النفس، وعلم معرفة أقسام الدنيا، ووجود دقائق الهوى، وخفايا شهوات النفس وشرها وشرها، وعلم الضرورة ومطالبة النفس بالوقوف على الضرورة قولاً وفعلاً، ولبساً وخلعاً، وأكلاً ونوماً.

ومعرفة حقائق التوبة، وعلم خفي الذنوب، ومعرفة سيئات هي حسنات الأبرار، ومطالبة النفس بترك ما لا يعني ومطالبة الباطن بحصر خواطر العصية، ثم يحصر خواطر الفصول، ثم علم الرقابة، وعلم ما يقدح في الرقابة، وعلم الحاسبة والرعاية، وعلم حقائق التوكل، وذنوب التوكل في توكله، وما يقدح في التوكل وما لا يقدح، والفرق بين التوكل الواجب بحكم الإيمان وبين التوكل الخاص المختص بأهل العرفان.

وعلم الرضا وذنوب مقام الرضا، وعلم الزهد وتجنيد بهما يلزم من ضرورته وما لا يقدح في حقيقته، ومعرفة الزهد في الزهد، ومعرفة زهد خالص بعد الزهد في الزهد، وعلم الإنابة والاتجاه، ومعرفة أوقات الدعاء،

ومعرفة وقت السكوت عن الدعاء، وعلم المحبة، والفرق بين المحبة العامة
المسرة بامتثال الأمر والمحبة الخاصة.

وقد أنكر طائفة من علماء الدنيا دعوى علماء الآخرة المحبة الخاصة،
كما أنكروا الرضا وقالوا: ليس إلا الصبر ونقسام المحبة الخاصة إلى محبة
الذات وإلى محبة الصفات، والفرق بين محبة القلب ومحبة الروح، ومحبة
العقل ومحبة النفس، والفرق بين مقام الحب والمحبوب، والمريد والراي، ثم
علوم الشاهدات، كعلم الهيبة والأنس، والقبض والبسط، والفرق بين القبض
والهم والبسط والنشاط، وعلم الفناء والبقاء، وتفاوت أحوال الفناء، والاستتار
والتجلى، والجمع والفرق، واللوامع والطوائع، والبوادي والصحو والسكر، إلى
غير ذلك، لو اتسع الوقت ذكرناها وشرحناها في مجلدات، ولكن العمر
قصير، والوقت عزيز، ولولا سهم الغفلة، لضاق الوقت عن هذا القدر أيضاً.

وهذا المختصر المؤلف يحتوي من علوم القوم على طرف صالح نرجو
من الله الكريم أن ينفع به ويجعله حجة لنا لا حجة علينا. وهذه كلها علوم
من ورائها علوم عمل بمقتضاها وظفر بها علماء الآخرة الزاهدون، وحرم
ذلك علماء الدنيا الراغبون، وهي علوم نوقية لا يكاد النظر يصل إليها إلا
بنوق ووجدان، كالعلم بكيفية حلالة السكر لا يحصل بالوصف، فمن ذاقه
عرفه.

وينبئك عن شرف علم الصوفية وزهاد العلماء أن العلوم كلها لا
يتعذر تحصيلها مع محبة الدنيا والإخلال بحقائق التقوى، وربما كان محبة
الدنيا عوناً على اكتسابها لأن الاشتغال بها شاق على النفوس، فحبلى
النفوس على محبة الجاه والرفعة، حتى إذا استشعرت حصول ذلك بهصول
العلم أجابت إلى تحمل تكلفه وسهر الليل، والصبر على الغربة والأسفار،
وتعذر اللاذ والشهوات.

وعُلوم هؤلاء القوم لا تحصل مع محبة الدنيا، ولا تنكشف إلا بمجانبة الهوى، ولا تسرس إلا في مدرسة التقوى. قال الله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾^(١) جعل العلم ميراث التقوى.

وغير علوم هؤلاء القوم متيسر من غير ذلك بلا شك. فعلم فضل علم علماء الآخرة حيث لم يكشف النقاب إلا لأولى الألباب، وأولوا الألباب حقيقة هم الزاهدون في الدنيا.

قال بعض الفقهاء: إذا توصى رجل بماله لأعقل الناس بصرف إلى الزهاد، لأنهم أعقل الخلق.

قال سهل بن عبد الله التستري: لتعلم ألف اسم، وتكل اسم منه ألف اسم، وأول كل اسم منه ترك الدنيا.

حدثنا الشيخ الصالح أبو الفتح محمد بن عبد الباقي، قال: أنا أبو الفضل أحمد بن أحمد، قال أنا الحافظ أبو نعيم الأصفهاني، قال حدثنا محمد بن أحمد بن محمد، قال حدثنا العباس بن أحمد الشاشي، قال حدثنا أبو عقيل الوصافي، قال أنا عبد الله الخواص، وكان من أصحاب حاتم، قال: دخلت مع أبي عبد الرحمن حاتم الأصم الري ومعه ثلثمائة وعشرون رجلاً يريدون الحج، وعليهم الصوف والزمرمانقات، ليس معهم جراب ولا طعام.

فدخلنا الري على رجل من التجار متنسك بحب التقيين، فاضافنا تلك الليلة، فلما كان من الغد قال لحاتم: يا أبا عبد الرحمن ألك حاجة فإني أريد أن أعود فقيهاً لنا هو عليل؟ فقال حاتم: إن كان لكم فقيه عليل فعيادة الفقيه لها فضل، والنظر إلى الفقيه عبادة، فأنا أيضاً أجيء معك. وكان العليل محمد بن مقاتل قاضي الري فقال: سر بنا يا أبا عبد الرحمن.

فجاءوا إلى الباب فإذا باب مشرف حسن، فبقى حاتم متفكراً يقول باب عالم على هذا الحال؟ ثم أين لهم قد دخلوا، فإذا دار قوراء، وإذا بهزة ومنعة وستور وجمع، فبقى حاتم متفكراً، ثم دخلوا إلى المجلس الذي هو فيه، فإذا بفرش وطينة، وإذا هو راقع عليها، وعند رأسه غلام وبهذه مذبذبة.

فقعد الرازي يسأله وحاتم قائم، فأوماً إليه ابن مقاتل أن القعد، فقال لا أقعد، فقال له ابن مقاتل، لعل لك حاجة؟ قال: نعم، قال: وما هي؟ قال: مسألة أسألك عنها، قال: سلني، قال: فقم فاستو جالساً حتى أسألكها، فأمر غلامانه فأسندوه، فقال له حاتم: علمك هذا من أين جئت به؟ قال: الثقات حدثوني به، قال: عمن؟ قال: عن أصحاب رسول الله ﷺ. قال: وأصحاب رسول الله ﷺ عمن؟ قال: عن رسول الله ﷺ. قال: رسول الله من أين جاء به؟ قال: عن جبرائيل.

قال حاتم: ففيماء أده جبرائيل عن الله، وأده إلى رسول الله، وأده رسول الله إلى أصحابه، وأده أصحابه إلى الثقات، وأده الثقات إليك؟ هل سمعت في العلم من مكان في داره أميراً ومنعته أكثر، وكانت له النزلة عند الله أكثر؟ قال: لا. قال: فكيف سمعت؟ قال: من زهد في الدنيا، ورغب في الآخرة، وأحب المساكين، وقدم لآخرته، كان له عند الله المنزلة أكثر.

قال حاتم: فأنت بمن التفتيت، بالنبي وأصحابه الصالحين، أم بفرعون ونمرود أول من بنى بالجص والأجر؟ يا علماء السوء مثلكم يراه الجاهل الطالب للدنيا الراغب فيها فيقول: العالم على هذه الحالة لا أكون أنا شراً منه. وخرج من عنده.

فازداد ابن مقاتل مرضاً. فبلغ أهل الري ما جرى بينه وبين ابن مقاتل، فقالوا له: يا أبا عبد الرحمن بقروين عالم أكبر شأناً من هذا، وأشاروا به إلى الصنائسي. قال فسار إليه معتمداً قد دخل عليه، فقال: رحمك الله أنا رجل

اعجمي، احب ان تعلمني اول مبتدئ ديني ومفتاح صلاتي وكيف أتوضأ للصلاة، قال نعم وكرامة.

يا غلام هات إناء فيه ماء، فأتى بإناء فيه ماء فقع الطنافسي فتوضأ ثلاثاً ثلاثاً ثم قال هكذا فتوضأ، فقع فتوضأ حاتم ثلاثاً ثلاثاً، حتى إذا بلغ غسل الذراعين غسل أربعاً، فقال له الطنافسي: يا هذا أسرقت فقال له حاتم هي ماذا؟ قال: غسلت ذراعيك أربعاً، قال حاتم: يا سبحان الله أنا في كف ماء أسرقت وأنت في هذا الجمع كله لم تسرق؟ فعلم الطنافسي أنه أراد به ذلك ولم يرد منه التعلم، فدخل البيت ولم يخرج إلى الناس أربعين يوماً.

وكتب تجار الري وفزوين ما جرى بينهما وبين ابن مقاتل والطنافسي، فلما دخل بغداد اجتمع إليه أهل بغداد، فقالوا له: يا أبا عبد الرحمن أنت رجل الكن اعجمي ليس بكلمك أحد إلا وقطعته، قال: معي ثلاث خصال بهن أظهر على خصمي، قالوا: أي شيء هي؟ قال: أفرح إذا أصاب خصمي، وأحزن إذا أخطأ، وأحفظ نفسي إلا أجهل عليه.

فبلغ ذلك أحمد بن حنبل، فحجاء إليه وقال: سبحان الله ما أعقله. فلما دخلوا عليه قالوا يا أبا عبد الرحمن ما السلامة من النخيا؟ قال حاتم: يا أبا عبد الله لا تسلم من النخيا حتى يكون معك أربع خصال، قال: أي شيء هي يا أبا عبد الرحمن؟ قال: تغفر للقوم جهلهم، وتمنع جهلك عنهم، وتبذل لهم شيئك، وتكون من شيتهم أبساً، فإذا كان هذا سلمت. ثم سار إلى المدينة.

قال الله تعالى: ﴿... إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ...﴾^(١) ذكر بكلمة إنما، فينتفي العلم عمن لا يخشى الله، كما إذا قال إنما يدخل الدار بغدادى ينتفى دخول غير البغدادى الدار. فلاح لعلماء الآخرة أن الطريق مسدود إلى اتصبة العارف ومقامات القرب إلا بالزهد والتقوى.

قال أبو يزيد رحمه الله يوماً لأصحابه : بقيت البارحة إلى الصباح أجهد أن أقول لا إله إلا الله ما قدرت عليه. قيل ولم ذلك ؟ قال : ذكرت كلمة قلتها في صباه فجاعتني وحشة تلك الكلمة فمنعتني عن ذلك، وأعجب ممن يذكر الله تعالى وهو متصف بشيء من صفاته. فبصفاء التقوى وكمال الزهادة يصير العبد راسخاً في العلم.

قال الواسطي : الراسخون في العلم هم الذين رسخوا بأرواحهم في غيب الغيب في سر السر فعرفهم ما عرفهم، وخاضوا في بحر العلم بالفهم لطلب الزيادات، فأنكشف لهم من مدخور الخزائن ما تحت كل حرف من الكلام من الفهم وعجائب الخطاب، فنطقوا بالحكم.

وقال بعضهم: الراسخ من اطلع على محل الرد من الخطاب.

وقال الخراز: هم الذين كملوا في جميع العلوم وعرفوها، واطلعوا على همم الخلائق كلهم أجمعين.

وهذا القول من أبي سعيد لا يعني به أن الراسخ في العلم ينبغي أن يقف على جزئيات العلوم ويكمل فيها، فإن عمر بن الخطاب عليه السلام كان من الراسخين في العلم ووقف في معنى قوله تعالى: ﴿وَفَلِكِهَةٌ وَأَبَّاءٌ﴾^(١)، وقال ما الأب ؟ ثم قال : إن هذا إلا تكلف.

ونقل أن هذا الوقوف في معنى الأب كان من أبي بكر رضي الله تعالى عنه وإنما عني بذلك أبو سعيد ما يفسر أول كلامه بآخره وهو قوله : اطلعوا على همم الخلائق كلهم، لأن التقى حق التقوى، والزاهد حق الزهادة في الدنيا. صفا باطنه، وانجلت مرآة قلبه، ووقعت له محاذاة بشيء من اللوح المحفوظ، فأدرك بصفاء الباطن أمهات العلوم، وأصولها .

(١) سورة عبس، الآية ٢٦.

فيعلم منتهى أقسام العلماء في علومهم، وفائدة كل علم، والعلوم الجزئية متجزئة في النفوس بالتعليم والممارسة، فلا يغنيه عامة الكلي أن يراجع في الجزئي أهله الذين هم لو عيته، فنفس هؤلاء امتلأت من الجزئي واشتغلت به، وانقطعت بالجزئي عن الكلي.

ونفس العلماء الزاهدين بعد الأخذ مما لا بد لهم منه في أصل الدين وأساسه من الشرع أقبلوا على الله، وانقطعوا إليه، وخلصت أرواحهم إلى مقام القرب منه، فأفاضت أرواحهم على قلوبهم أنواراً تهيأت بها قلوبهم لإدراك العلوم. فأرواحهم ارتفعت عن حد إدراك العلوم، بعكوفها على العالم الأزل، وتجردت عن وجود يصلح أن يكون وعاء للعلم، وقلوبهم بنسبة وجهها الذي يلي النفوس صارت أوعية وجودية، تتناسب وجود العلم بالنسبة الوجودية، هالفت العلوم، وذالفتها العلوم بمناسبة انفصال العلوم باتصالها باللوح المحفوظ. وللعنى بالانفصال التقاشها في اللوح لا غير، وانفصال القول عن مقام الأرواح لوجود انجذابها إلى النفوس، فصار بين الانفصلين نسبة اشتراك موجب لتألف، فحصلت العلوم لذلك، وصار العالم الرباني راسخاً في العلم،

أوحى الله تعالى في بعض الكتب المرلة: يا بني إسرائيل لا تقولوا العلم في السماء من ينزل به، العلم مجمول في قلوبهم، تأدبوا بين يدي بآداب الروحانيين، وتخلقوا إلى باخلاق الصديقين، نهر العلم من قلوبكم حتى يغطيكم أو يغمركم .

هالتأدب بآداب الروحانيين حصر النفوس عن تقاضي جبلاتها، وقمعها بصريح العلم في كل قول وفعل، ولا يصح ذلك إلا لمن علم وقرب وتطرق إلى الحضور بين يدي الله تعالى فيحتفظ بالحق للحق،

أخبرنا شيخنا أبو النجيب عبد القاهر السهروردي إجازة، قال أخبرنا أبو منصور ابن خيرون إجازة، قال لنا أبو محمد الحسن بن علي الجوهري إجازة، قال أنا أبو عمر محمد بن العباس، قال حدثنا أبو محمد يحيى بن صاعد، قال حدثنا الحسين بن الحسن الروزي، قال لنا عبد الله بن المبارك، قال أنا

الأوزاعي، عن حسان بن عطية، بلغني أن شبلد بن أوس رضي الله عنه نزل منزلاً فقال، انتونا بالسفرة نعبث بها، فأنكر منه ذلك، فقال ما تكلمت بكلمة منذ أسلمت إلا وأنا أخطئها ثم أزمها غير هذه فلا تحفظوها على فمثل هذا يكون التأنيب بأدب الروحانيين.

مكتوب في الإنجيل، لا تطلبوا علم ما لم تعلموا حتى تعملوا بما قد علمتم. وقد ورد في خير عن رسول الله صلى الله عليه وسلم "إن الشيطان ربما يسوقكم بالعلم" قلنا يا رسول الله كيف يسوقنا بالعلم؟ قال "يقول اطلب العلم ولا تعمل حتى تعلم فلا يزال العبد في العلم قائلاً وللعمل مسوقاً حتى يموت وما عمل"

وقال ابن مسعود رضي الله عنه، ليس العلم بكثرة الرواية، إنما العلم الخشية.

وقال الحسن، إن الله تعالى لا يعبا بذي علم ورواية، إنما يعبا بذي فهم ودراية،

فعلوم الوراثة مستخرجة من علم الدراسة. ومثال علوم الدراسة كاللبن الخالص السائغ للشاربين، ومثلاً علوم الوراثة كالزبد المستخرج منه، فلو لم يكن زبد، ولكن الزبد هو الدهنية للطلوبة من اللبن. والمائية في اللبن جسم قام به روح الدهنية، والمائية بها القوام. قال الله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا ۚ ﴾^(١)

وقال تعالى: ﴿ أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ ۚ ﴾^(٢) أي كان ميتاً بالكفر فأحييناه بالإسلام. فألحياء بالإسلام هو القوام الأول والأصل الأول.

وللإسلام علوم وهي علوم مباني الإسلام، والإسلام بعد الإيمان، نظراً إلى سبب التصديق، ولكن للإيمان فروع بعد التحقيق بالإسلام، وهي مراتب كعلم اليقين، وعين اليقين، وحق اليقين، فقد يقال للتوحيد، والعرفة، والشهادة.

(١) سورة الأنبياء آية ٢٠.

(٢) سورة الأنعام آية ١٢٢.

وللإيمان في كل فرع من فروع علوم، فعلوم الإسلام علوم اللسان، وعلوم الإيمان علوم القلوب. ثم علوم القلوب لها وصف خاص، ووصف عام، فالوصف العام علم اليقين، وقد يتوصل إليه بالنظر والاستدلال، ويشترك فيه علماء الدنيا مع علماء الآخرة، وله وصف خاص يختص به علماء الآخرة، وهي السكينة التي أنزلت في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم. فعلى هذا جميع الرتب يشملها اسم الإيمان بوصفه الخاص، ولا يشملها بوصفه العام، فبالنظر إلى الوصف الخاص اليقين ومراتبه من الإيمان، وإلى وصفه العام اليقين زيادة على الإيمان، والشاهدة وصف خاص في اليقين، وهو عين اليقين. وعين اليقين وصف خاص وهو حق اليقين، فحق اليقين إذن فوق الشاهدة، وحق اليقين موطنه ومستقره في الآخرة، وفي الدنيا منه ملح يسير لأهله، وهو من أعز ما يوجد من لقاسم العلم بالله لأنه وجدان. فصار علم الصوفية وزهاد العلماء نسبتهم إلى علم علماء الدنيا الذين ضلّوا باليقين بطريق النظر والاستدلال، كنسبة ما ذكرناه من علم الوارثة والدراسة علمهم بمثابة تلك، ففضيلة الإنسان بفضيلة العلم، ووزانة الأعمال على قدر الحظ من العلم.

وقد ورد في الخبر "فضل العالم على العابد كفضلي على امتي" والإشارة في هذا العلم ليس إلى علم البيع والشراء، والطلاق والعقاق، وإنما الإشارة إلى العلم بالله تعالى وقوة اليقين. وقد يكون العبد عالماً بالله تعالى، ذا يقين مكامل، وليس عنده علم من فروع الكفايات، وقد كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أعلم من علماء التابعين بحقائق اليقين وحقائق العرفة، وقد كان علماء التابعين فيهم من هو أقوم بعلم التقوى والأحكام من بعضهم. روي أن عبد الله بن عمر كان إذا سئل عن شيء يقول: سلوا سعيد بن المسيب.

وكان عبد الله بن عباس يقول: سلوا جابر بن عبد الله، لو نزل أهل البصرة على فتياهم لوسعهم.

وكان انس بن مالك يقول: سلوا مولانا الحسن، فإنه قد حفظ ونسينا.

فكانوا يردون الناس إليهم في علم الفتوى والأحكام، ويعلمونهم حقائق اليقين ودقائق المعرفة، وذلك لأنهم كانوا أقوم بذلك من التابعين، صافيتهم طراوة الوحي للنزل، وغمرهم غزير العلم الجميل والفصل، فتلقى منهم طائفة مجتلة ومفصلة، وطائفة مفصلة دون مجتلة. والمجمل أصل العلم، ومفصلة للكتسب بطهارة القلوب وقوة الغريزة وكمال الاستعداد، وهو خاص بالخواص. قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم ﴿أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِّ لَهُم بِالنِّبْيِ هِيَ أَحْسَنُ﴾ (١). وقال تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ﴾ (٢).

فهذه السبيل سائبة، ولهذه الدعوات قلوب قابلة، فمنها نفوس مستعصية جامدة، باقية على خشونة طبيعتها وجبلتها، فليتها بنار الإنذار والوعظة والحدار، ومنها نفوس زكية من تربة طيبة، موافقة للقلوب، قريبة منها، فمن كانت نفسه ظاهرة على قلبه دعاه بالحكمة.

فالدعوة بالوعظة أحب بها الأبرار، وهي الدعوة بذكر الجنة والنار، والدعوة بالحكمة أحب بها القريبون، وهي الدعوة بتلويح منح القرب، وصفو العرف، وإشارة التوحيد. فلما وجبوا التلويحات الحقائقية، والتعريفات الربانية، أحبابوا بأرواحهم وقلوبهم ونفوسهم، فصارت متابعة، الأقوال إجابتهم نفساً، ومتابعة، الأعمال إجابتهم قلباً، والتحقق بالأحوال إجابتهم روحاً. فإجابة الصوفية بالكل، وإجابة غيرهم بالبعض.

قال عمر رضي الله عنه: رحم الله تعالى صيباً لو لم يخف الله لم يعصه، يعني لو كتب له كتاب الأمان من النار حمله صرف المعرفة بعظيم أمر الله على القيام بواجب حق العبودية لاء لما عرف من حق العظمة.

(١) سورة النحل آية ١٢٥

(٢) سورة يوسف آية ١٠٨

فإجابة الصوفية إلى الدعوة إجابة للحب للمحبوب على اللذات
وذهاب العسر وإجابة غيرهم على الكابدة والجاهلة، وهذه الإجابة يظهر مع
الساعات أثرها في القيام بحقائق الاستقامة والعبودية.

قال الله تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ﴿٦٦﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ﴿٦٧﴾ فَسَنبَرُهُ لِلْيُسْرَى ﴿٦٨﴾ ﴾^(١).

قال بعضهم: أعطى الدارين ولم ير شيئاً، واتقى اللغو والسينات، وصدق
بالحسنى، أقام على طلب الزلفى.

والآية قيل نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

ويلاحظ في الآية وجه آخر: (أعطى) بالمواظبة على الأعمال، (واتقى)
الوساوس واللهو واجس، (وصدق بالحسنى) لازم البطن بنصفية مراد الشهود
عن مزاحمة لوث الوجود (فسنببره لليسرى) تفتح عليه باب السهولة في
العمل والعيش والأنس (وأما من بخل) بالإعمال (واستغنى) امتلاً بالأحوال
(وكذب بالحسنى) لم يكن في للكوت بنفوذ بصيرته بالأحوال فسنببره
لليسرى) سد عليه باب اليسر في الأعمال.

قال بعضهم: إذا أراد الله بعبد سوءاً سد عليه باب العمل، وفتح عليه
باب الكسل.

فلما أجابت نفوس الصوفية وقلوبهم وأرواحهم الدعوة ظاهراً
وباطناً، كان حظهم من العلم أوفر، ونصيبهم من المعرفة أكمل، فكانت
أعمالهم أزكى وأفضل.

جاء رجل إلى معاذ قال: أخبرني عن رجلين أحدهما مجتهد في العبادة،
كثير العمل، قليل الذنوب، إلا أنه ضعيف اليقين، يعتوره الشك. قال معاذ:
ليحبطن شكه عمله. قال: فأخبرني عن رجل قليل العمل إلا أنه قوى اليقين،
وهو في ذلك كثير الذنوب، فسكت معاذ فقال الرجل الله لئن أحبط شك
الأول أعمال بره، ليحبطن يقين هذا ذنوبه كلها. قال فأخذ معاذ بيده
وقال: ما رأيت الذي هو أفقه من هذا.

(١) سورة الليل من آية ٥ إلى آية ٧

وفي وصية لقمان لابنه: يا بني لا يستطاع العمل إلا باليقين، ولا يعمل
للره إلا بقدر يقينه، فكان اليقين لأفضل العلم، لأنه ادعى إلى العمل، وما كان
ادعى إلى العمل كان ادعى إلى العبودية وما كان ادعى إلى العبودية كان
ادعى إلى القيام بحق الربوبية، وكمال الحظ من اليقين والعلم بالله
للسوئية والعلماء الزاهدين، فإن بذلك فضاهم وفصل علمهم.

ثم إنني أصور مسألة يستبين بها للغير فضل العالم الزاهد، العارف
بصفات نفسه على غيره:

عالم دخل مجلساً وقعد، وميز لنفسه مجلساً يجلس فيه، كما في
نفسه من اعتقاده في نفسه لمحله وعلمه، فدخل داخل من أبناء جنسه وقعد
هواه، فأنعصر العالم وأظلمت عليه الدنيا، ولو أمكنه لبطش بالداخل فهذا
عارض عرض له، ومرض اعتراه وهو لا يفطن أن هذه علة غامضة، ومرض
يحتاج إلى الدواوق، ولا يتفكر في منشأ هذا المرض. ولو علم أن هذه نفس تارت
وظهرت بجهلها، لوجود كبرها، وكبرها برؤية نفسها خيراً من غيرها.

فعلم الإنسان أنه أكبر من غيره كبر، وأظهاره ذلك إلى الفعل كبر،
فحيث أنعصر صار فعلاً به تكبر فزاهد لا يميز نفسه بشيء دون المسلمين،
ولا يرى نفسه في مقام تمييز يميزها بمجلس.

فالسوئي العالم مخصص مميز، ولو قدر له أن يتلي بمثل هذه
الواقعة، وينعصر من تقدم غيره عليه وترفعه، يرى النفس وظهرها، ويرى
أن هذا داء وأنه إن استرسل فيه بالإصغاء إلى النفس وإنحصارها صار ذلك
ذنب حاله، فيرفع في الحال داءه إلى الله تعالى، ويشكو إليه ظهور نفسه،
ويحسن الإنابة، ويقطع دبر ظهور النفس، ويرفع القلب إلى الله تعالى
مستغيثاً من النفس، فيشغله اشتغاله برؤية داء النفس في طلب دوائها من
الفكر فيمن قعد فوقه، وربما أقبل على من قعد فوقه بمزيد التواضع و
الأنكسار، تكميراً للذنب الوجود، وتكذيباً لذاته الحاصل. فتبين بهذا الفرق
بين الرجلين

فإذا اعتبر العتير، وتفقد حال نفسه في هذا المقام، يرى نفسه كنفوس
عوام الخلق، وطالبي الناصب النخبوية. فأي فرق بينه وبين غيره ممن لا
علم له،

ولو أكثرنا تصوير السائل لغيره من فضيلة الزاهدين، وقصصان
الراضين، لأورث اللال. وهذا من أوئل العلوم الصوفية، فما ظنك بنانس
علومهم، وشرائف أحوالهم .
والله الوفي للصواب.

الباب الرابع في شرح حال الصوفية واختلاف طريقهم

أخبرنا الشيخ العالم ضياء الدين أبو أحمد عبد الوهاب بن علي، قال
أخبرنا أبو الفتح عبد الملك بن أبي القاسم الهروي، قال لنا أبو نصر عبد العزيز
بن محمد الترياقلي، قال أنا أبو محمد عبد الجبار بن محمد الجراحي، قال أنا
أبو العباس محمد بن أحمد الحبوبلي، قال أنا أبو عيسى محمد بن عيسى
الترمذي، قال حدثنا مسلمة بن حاتم الأنصاري، قال حدثنا محمد بن عبد
الله الأنصاري، عن أبيه، عن علي بن زيد، عن سعيد بن المسيب قال، قال أنس
بن مالك رضي الله عنه، قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم "يا بني إن
قدرت أن تصبح وتمسي وليس في قلبك غش لأحد فافعل" ثم قال "يا بني
وذلك من سنتي، ومن أحيا سنتي فقد أحياني، ومن أحياني كان معي في
الجنة"

وهذا أتم شرف وأكمل فضل، أخبر به الرسول صلى الله عليه وسلم
في حق من أحيا سنته.

فالصوفية هم الذين أحياوا هذه السنة، وطهارة الصدور من الغل
والغش عماد أمرهم، وبذلك ظهر جوهرهم، وبان فضلهم، وإنما قدرُوا على
إحياء هذه السنة، ونهضوا بواجب حقها لزهدهم في الدنيا، وتركها لأربابها
وطلابها، لأن منار الغل والغش محبة الدنيا، ومحبة الرقعة واللذة عند
الناس، والصوفية زهدوا في ذلك كله، كما قال بعضهم: طريقنا هذا لا
يصلح إلا لأقوام كنست بأرواحهم للزبل، فلما سقط عن قلوبهم محبة
الدنيا وحب الرقعة أصبحوا وأمسوا وليس في قلوبهم غش لأحد
فقول القائل: كنست بأرواحهم للزبل، إشارة منه إلى غاية التواضع،
وأن لا يرى نفسه تمييز عن أحد من المسلمين لحقارته عند نفسه، وعند
هنا ينسد باب الغش والغل.

وحبرت هذه الحكاية، فقال بعض الفقهاء من أصحابنا:

وقع لي أن معنى كنست بأرواحهم الزميل أن الإشارة بالزميل إلى النفوس، لأنها مأوى كل رجب ونجم كالزيلة، وكنسها بنور الروح الواصل إليه، لأن الصوفية أرواحهم في مجال القرب، ونورها يسري إلى النفوس، ويوصل نور الروح إلى النفس تطهر النفس، ويذهب عنها الدُموم من القل والغش والحقد والحسد، فكانها تكتس بنور الروح وهنا صحيح وإن لم يرد القائل بقوله ذلك.

قال الله تعالى في وصف أهل الجنة ﴿ وَتَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلِيٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ ﴾^(١).

قال أبو حفص، كيف يبنى العمل في قلوب اتلفت بالله، واتممت على محبته، واجتمعت على مودته، وأنست بذكره، إن تلك قلوب صافية من هواجس النفوس وظلمات الطبائع، بل مكملت بنور التوفيق، فصارت إخواناً، فالخلق حجابهم عن القيام بإحياء سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم قولاً وفعلًا وحالاً صفات نفوسهم، فإذا تبللت نعوت النفس، ارتفع الحجاب، وصحت المتابعة، ووقعت الموافقة في كل شيء مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، ووجبت المحبة من الله تعالى عند ذلك.

قال الله تعالى، ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾ جعل متابعة الرسول صلى الله عليه وسلم آية محبة العبد ربه، وجعل جزاء العبد على حسن متابعة الرسول محبة الله إياه.

فأوفر الناس حظاً من متابعة الرسول لو فرهم حظاً من محبة الله تعالى.

والصوفية من بين طوائف الإسلام ظفروا بحسن المتابعة، لأنهم اتبعوا أقواله، فقاموا بما أمرهم، ووقفوا عما نهاهم.

قال الله تعالى، ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾^(٢)

(١) سورة الحجر آية ٤٧.

(٢) سورة الحشر آية ٧.

ثم اتبعوه في أعمالهم من الجد والاجتهاد في العبادة، والتهجد والنوافل من الصوم والصلاة وغير ذلك، ورزقوا ببركة التابعة في الأقوال والأفعال التحلق بأخلاقه، من الحياء والحلم، والصقح والعفو، والرافة والشفقة، والندرة والتصحية والتواضع، ورزقوا قسطاً من أحواله من الخشية والسكينة، والهيبة والتعظيم، والرضا والصبر، والزهد والتوكل، فاستوفوا جميع أقسام التابعات، وأحيوا سنته بأقصى الغايات.

قيل لعبد الواحد بن زيد من الصوفية عنك؟ قال، الغانمون بعقولهم على فهم السنة، والعاكفون عليها بقلوبهم، والعنصمون بسيدهم من شر نفوسهم هم الصوفية.

وهذا وصف تام وصفهم به،

فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم دائم الافتقار إلى مولاه حتى يقول « لا تكني إلى نفسي طرفه عين، اكلائي كلاءة الوليد »

ومن أشرف ما ظفر به الصوفي من متابعة رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا الوصف، وهو دوام الافتقار ودوام الالتجاء.

ولا يتحقق بهذا الوصف من صديق الافتقار إلا عبد مكشوف باطنه بصفاء المعرفة، وأشرق صدره بنور اليقين، وخلص قلبه إلى بساط القرب، وخلا سره بلذلة للسامرة، فبقيت نفسه بين هذه الأشياء كلها أسيرة مأمورة، ومع ذلك كله يراها مأوى كل شر، وهي بمثابة النار لو بقيت منها شرارة أحرقت عالماً، وهي وشيكة الرجوع، سريعة الانفلات والانقلاب.

قاله تعالى بكمال لطفه عرفها إلى الصوفي، وكشفها له على شيء من معنى ما كشفه لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فهو دائم الاستغاثة إلى مولاه من شرها، وكأنها جعلت سوطاً للعبد، تسوقه لعرفته، بشرها، مع اللحظات إلى جناب الالتجاء، وصديق الافتقار والنداء، فلا يخلو الصوفي عن مطالعتها أدنى ساعة، كما لا يخلو عن ربه أدنى ساعة، وربط معرفتها

بمعرفة الله تعالى، فيما ورد: من عرف نفسه فقد عرف ربه، كربط معرفة الليل بمعرفة النهار.

ومن الذي يقوم بإحياء هذه السنة من سنن رسول الله صلى الله عليه وسلم غير الصوفي العالم بالله، الزاهد في الدنيا، التمسك من التقوى بأوثق العرى.

ومن الذي يهتدي إلى فائدة هذه الحال غير الصوفي، فنوام افتقاره إلى ربه تمسك بجانب الحق وليد به، وفي هذا الياز استغراق الروح واستتباع القلب إلى محل الدعاء، وفي انجذاب القلب إلى محل الدعاء بلسان الحال والكون فيه نبو النفس عن مستقرها من الأقسام العاجلة، ونزولها إليها في ملراج العلم، محفوفة بحراسة الله تعالى ورعايته. والنفس الذبيرة بهذا التدبير من حسن تدبير الله تعالى مأمونة الفائلة من الحل والغش والحقد والحسد وسائر المذمومات. فهذا حال الصوفي.

ويجمع جمال حال الصوفي شيان هما وصف الصوفية، وإليهما الإشارة بقوله تعالى:

﴿اللَّهُ يُجْتَنَى إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾^(١)

فقوم من الصوفية حصوا بالاجتناء الصريف، وقوم منهم خصوا بالهداية بشرط مقدمة الإنابة، فالاجتناء اللص غير معلل بكسب العبد، وهذا حال المحبوب المراد بآئنه الحق بمنحه، ومواهبه من غير سابقة كسب منه يسبق كشف اجتهاده، وفي هذا أخذ بطائفة الصوفية رفعت الحجب عن قلوبهم، وبادرهم سطوع نوع اليقين، فانار نازل الحال فيهم شهوة الاجتهاد والأعمال، فاقبلوا على الأعمال باللذات والعيش فيها قرة أعينهم، فسهل الكشف عليهم الاجتهاد كما سهل على سحرة فرعون لذاتة والعيش فيه

(١) سورة الشورى آية: ١٢.

قرة أعينهم، فسهل الكشف عليهم الاجتهاد كما سهل على سحرة فرعون
لذلة النازل لهم من صفو العرفان تحمل وعيد فرعون، فقالوا: ﴿قَالُوا لَنْ
نُؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْيَقِينِ﴾^(١)

قال جعفر الصادق رضي الله عنه: وجلوا ارواح العناية القنينة بهم،
فالتجأوا إلى السجود شكرا وقالوا: ﴿قَالُوا ءَامَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(٢)

اخبرنا ابو زرعة طاهر بن ابي الفضل إجازة، قال أنا ابو بكر احمد بن
علي بن خلف إجازة، قال أنا عبد الرحمن السلمي، قال سمعت منصورا يقول،
سمعت ابا موسى الرقاق يقول، سمعت ابا سعيد الخراز يقول، اهل الحاضرة
الذين هم الرادون، اجتباهم مولاهم، واكمل لهم النعمة، وهيا لهم الكرامة،
فاسقط عنهم حركات الطلب، فصارت حركاتهم في العمل والخدمة على
الألفة والذكر، والتنعم بمناجاته، والانفراد بقربه.

وبهذا الإسناد إلى ابي عبد الرحمن السلمي قال: سمعت علي بن سعيد
يقول: سمعت أحمد بن الحسن الحمصي يقول: سمعت فاطمة المعروفة
بجويرية تلميذة ابي سعيد تقول: سمعت الخراز يقول: المراد محمول في حالة،
معان على حركاته، وسعيه في الخدمة، مكفى مصون عن الشواهد
والنواظر.

وهذا الذي قاله الشيخ ابو سعيد هو الذي اشتبه حقيقته على طائفة
من الصوفية، ولم يقولوا بالإكثار من النوافل، وقد راوا جميع من المشايخ
قلت نوافلهم، فظنوا ان ذلك حال مستمر على الإطلاق، ولم يعلموا ان الذين
تركوا النوافل واقتصروا على الفرائض، كانت بداياتهم بدايات الريدين،
فلما وصلوا إلى روح الحال، وأدركتهم الكشوف بعد الاجتهاد، امتلأوا بالحال،
فحطروا نوافل الأعمال.

(١) سورة ملة آية، ٧٢.

(٢) سورة الشعراء آية، ٢٧.

فاما المرادون فتبقى عليهم الأعمال والنوافل وفيها فرة أعينهم. وهذا
أتم وأكمل من الأول.

فهذا الذي أوضحناه أحد طريقي الصوفية.

فاما الطريق الآخر، طريق الريعين، وهم الذين شرطوا لهم الإنابة
فقال الله تعالى،

﴿ وَتَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ ۝ ﴾^(١).

فطوبوا بالاجتهاد أولا قبل الكشف قال الله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا
فِيْنَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۝ ﴾^(٢). يدرجهم الله تعالى في سائر الكسب، بأنواع
الرياضيات والمجاهدات، وسهر الدياجر طمأ الهواجر، تتأجج فيهم نيران
الطلب، وتتعجب نونهم لوامع الإرب، يتقلبون في رمضاء الإرادة، وينخلعون
عن كل مألوف وعادة، وهي الإنابة التي شرطها الحق سبحانه وتعالى لهم،
وجعل الهداية مقرونة بها، وهذه الهداية إنما هداية خاصة، واهتدوا إليه بعد
أن اهتدوا له بالكابدات، فخلصوا من مضيق العسر إلى قضاء اليسر، وبرزوا
من وهج الاجتهاد إلى روح الأحوال، فسبق اجتهادهم مكشوفهم، والريعون
سبق مكشوفهم اجتهادهم.

أخبرنا الشيخ الثقة أبو الفتح محمد بن عبد الباقي قال: أنا أبو الفضل
أحمد ابن أحمد، قال، سمعت محمد بن عبد الله الرازي يقول، سمعت أبا
محمد الجريري يقول، سمعت الجنيد رحمه الله عليه يقول، ما أخذنا
التصوف عن القيل والقال، ولكن عن الجوع، وترك الدنيا، وقطع المألوفات
والستحسنات.

فقال محمد بن خفيف: الإرادة سمو القلب لطلب الراد، وحقيقة الإرادة
استدامة الجد وترك الراحة.

(١) سورة الشورى آية: ١٣.

(٢) سورة العنكبوت آية: ٢٩.

وقال أبو عثمان، الريد الذي ملت قلبه عن كل شيء، دون الله تعالى
فيريد الله وحده يريد قربة ويشتاق إليه، حتى تذهب شهوات الدنيا عن قلبه
لشدة شوقه إلى ربه.

وقال أيضاً: عقوبة قلب الريد أن يحجبوا عن حقيقة المعاملات
والقامات إلى أصنافها.

فهذان الطريقان يجمعان أحوال الصوفية.

دونهما طريقان آخران ليسا من طرق التحقق بالتصوف:

أحدهما: مجذوب أبقى على جذبه ما رد إلى الاجتهاد بعد الكشف.

والثاني: مجتهد متعب ما خلاص إلى الكشف بعد الاجتهاد.

وللصوفية في طريقتهما باب مرينهم، وصحة طريقتهما بحسن المتابعة .

ومن ظن أن يبلغ غرضاً أو يظفر بمراد لا من طريق المتابعة فهو محنول
مغرور.

أخبرنا شيخنا أبو النجيب السهروردي قال، أنا عصام الدين عمر بن
حمد الصفار، قال، أنا أبو بكر أحمد بن علي بن خلف، قال، أنا أبو عبد
الرحمن، قال، سمعت نصر بن أبي نصر يقول، سمعت قسيما غلام الزقاق
يقول: سمعت أبا سعيد السكري يقول: سمعت أبا سعيد الخراز يقول: كل
باطل يخالفه ظاهر فهو باطل.

وكان يقول: الجنيد رحمه الله علمنا هذا مشتبك بحديث رسول الله
صلى الله عليه وسلم .

وقال بعضهم: من أمر السنة على نفسه قولاً وفعلًا نطق بالحكمة،
ومن أمر الهوى على نفسه قولاً وفعلًا نطق بالبدعة.

حكى أن أبا يزيد البسطامي رحمه الله قال ذات يوم لبعض أصحابه: قم
بنا حتى ننظر إلى هذا الرجل الذي قد شهر نفسه بالولاية، وكان الرجل في
ناحيته مقصوداً ومشهوراً بالزهد والعبادة، فمضينا إليه، فلما خرج من بيته

يقصد السجدة رمى بزاوية نحو القبلة، فقال أبو يزيد: انصرفوا، فانصرف ولم
يسلم عليه، وقال، هذا رجل ليس بمامون على أدب من أدب رسول الله صلى
الله عليه وسلم، فكيف يكون مأموناً على ما يدعيه من مقامات الأولياء
والصديقين.

وسأل خادم الشبلي رحمه الله ماذا رأيت منه عند موته؟ فقال، لما أمسك
لسانه، وعرق جبينه أشار إلى أن وضعتي للصلاة، فوضأته، فنسيت تخليل
لحيته، فقبض على يدي وادخل أصابعي في لحيته يخلها.

وقال سهل بن عبد الله: كل وجد لا يشهد له الكتاب والسنة فباطل.
هذا حال الصوفية وطريقهم. وكل من يدعى حالاً على غير هذا
الوجه فمدع مفتون كذاب.

الباب الخامس في ماهية التصوف

أخبرنا الشيخ أبو زرعه طاهر أبي الفضل في كتابه قال: أنا أبو بكر أحمد بن علي بن خلف الشيرازي إجازة، قال: أنا الشيخ أبو عبد الرحمن السلمي، قال: أنا إبراهيم بن محمد بن رجاء، قال: حدثنا عبد الله بن أحمد البغدادي، قال: حدثنا عمر بن أسد، عن مالك بن أنس، عن نافع، عن ابن عمر، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «الكل شيء مفتاح، ومفتاح الجنة حب المساكين. والفقراء الصبر هم جلساء الله يوم القيامة».

قال فقر مكانن في ماهية التصوف وهو أساسه، وبه قوامه

قال ربيع، التصوف مبنى على ثلاث خصال، التمسك بالفقر والافتقار، والتحقيق بالبذل والإيثار بالفقر لم يتحقق بالتصوف.

وسئل الشبلي عن حقيقة الفقر فقال: إن لا يستغني بشيء دون الحق.

وقال أبو الحسين النوري: نعت الفقير السكون عند العدم، والبذل والإيثار عند الوجود.

وقال بعضهم: إن الفقير الصادق ليحترز من الغني حزر أن يدخل عليه الغني فيفسد فقره، كما أن الغني يحترز من الفقير حزر أن يدخل عليه الفقر فيفسد عليه غناه.

وبالإسناد الذي سبق إلى أبي عبد الرحمن، قال: سمعت أبا عبد الرحمن الرازي يقول: سمعت مظفراً القرميستي يقول: الفقير الذي لا يكون له إلى الله حاجة.

قال: وسمعته يقول: سألت أبا بكر المصري عن الفقير، فقال: الذي لا يملك ولا يملك.

قوله: لا يكون له إلى الله حاجة، معناه أنه مشغول بوظائف عبوديته،
 دام الثقة بربه، عالم بحسن كلائته به، لا يحوجه إلى رفع الحاجة لعلمه
 بعلم الله بحاله، فيرى السؤال في البين زيادة.

وأقوال المشايخ تتنوع معانيها، لأنهم أشاروا فيها إلى أحوال في أوقات دون
 أوقات، ونحتاج في تفصيل بعضها من البعض إلى الضوابط، فقد تذكر أشياء
 في معنى التصوف ذكر مثالها في معنى الفقر، وتذكر أشياء في معنى الفقر
 ذكر مثالها في معنى التصوف.

وحيث وقع الاشتباه فلا بد من بيان فاصل، فقد تشبهت الإشارات في
 الفقر بمعاني الزهد تارة، وبمعاني التصوف تارة، ولا يتبين للمسترشد بعضها
 من البعض، فنقول:

التصوف غير الفقر، والزهد غير الفقر، والتصوف غير الزهد.

فالتصوف اسم جامع لمعاني الفقر ومعاني الزهد، مع مزيد أوصاف
 وإضافات لا يكون بدونها الرجل صوفياً وإن كان زاهداً وفقيراً

قال أبو حفص، التصوف كله أدب، لكل وقت أدب، ولكل حال أدب
 ولكل مقام أدب.

فمن لزم أدب الأوقات بلغ مبلغ الرجال، ومن ضيع الأدب فهو بعيد من
 حيث يظن القرب، ومردود من حيث يرجو القبول.

وقال أيضاً: حين أدب الظاهر عنوان حين أدب الباطن، لأن النبي صلى
 الله عليه وسلم قال «لو خشع قلبه لخشعت جوارحه».

أخبرنا الشيخ رضي الدين أحمد بن إسماعيل إجازة، قال: لنا الشيخ أبو
 المظفر عبد النعم، قال: أخبرني والذي أبو القاسم القشيري، قال سمعت محمد
 بن أحمد بن يحيى الصوفي يقول: سمعت عبد الله بن علي يقول: سئل أبو
 محمد الجريدي عن التصوف فقال: الدخول في كل خلق سني، والخروج عن
 كل خلق دني.

فإذا عرف هذا المعنى في التصوف من حصول الأخلاق وتبديلها واعتبر حقيقته، يعلم أن التصوف فوق الزهد وفوق الفقر.

وقيل: نهاية الفقر مع شرفه هو بداية التصوف، وأهل الشام لا يفرقون بين التصوف والفقر، يقولون قال الله تعالى، ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أَحْصَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾^(١). هذا وصف الصوفية، والله تعالى سماهم فقراء.

وسأوضح معنى يفرق الحال به بين التصوف والفقر نقول: الفقير في فقره متمسك به، متحقق بفضل، يؤثره على الغنى، متطلع إلى ما تحقق من العوض عند الله، حيث يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم «يدخل فقراء امتي الجنة قبل الأغنياء بنصف يوم وهو خمسمائة عام»

فكلما لا حظ العوض الباقي، أمسك عن الحاصل الفاني، وعانق الفقر، وعانق الفقر والقلّة، وخشى زوال الفقر لغوات الفضيلة والعوض، وهذا عين الاعتلال في طريق الصوفية، لأنه تطلع إلى الأعواض وترك الإجهاد، والصوفي يترك الأشياء لا للأعواض للعودة، بل للأحوال للوجود، فإنه ابن وقته.

وأيضا ترك الفقير الحظ العاجل واغتنامه الفقر اختيار منه وإرادة، والاختيار والإرادة علة في حال الصوفي، لأن الصوفي صار قائما في الأشياء بإرادة الله تعالى لا بإرادة نفسه، فلا يرى فضيلة في صورة فقر ولا في صورة غنى، وإنما يرى الفضيلة فيما يوقفه الحق فيه، ويدخله عليه، ويعلم الإن من الله تعالى، في الدخول في الشيء، وقد يدخل في صورة سعة مباينة للفقر بإذن من الله تعالى، ويرى الفضيلة حينئذ في السعة لكان الإن من الله فيه، ولا يفسح في السعة والدخول فيها الصالحين إلا بعد إحكامهم علم الإن، وفي هذا منزلة لأقدم، وباب دعوى للمنعين. وما من حال يتحقق به صاحب الحال إلا وقد يحكيه راسب الحال، ليهلك من هلك عن بينة، ويحيى من حيى عن بينة.

(١) سورة البقرة آية: ٢٧٢.

فإذا اتضح ذلك ظهر الفرق بين الفقر والتصوف، وعلم أن الفقر أساس
التصوف وبه قوامه، على معنى أن الوصول إلى رتب التصوف طريقه الفقر،
لا على معنى أنه يلزم من وجود التصوف وجود الفقر.
قال الجنيد رحمه الله عليه: التصوف هو أن يملك الحق منك،
ويحيبك به.

وهذا المعنى هو الذي ذكرناه من كونه قائما في الأشياء بالله لا
بنفسه.

والفقر والزاهد مكنان في الأشياء بنفسهما، واقفان مع إرادتهما،
مجتهدان مبلغ علمهما. والصوفي متهم لنفسه، مستقل لعلمه، غير راكن إلى
معلومه، قائم بمراد ربه لا بمراد نفسه.

قال ذو النون المصري رحمه الله عليه: الصوفي من لا يتعبه طلب، ولا
يزعجه سلب.

وقال أيضا: الصوفية أشروا لله تعالى على كل شيء، فأثروا لله على
كل شيء.

فكان من إثمارهم أن أشروا علم الله على علم نفوسهم، وإرادة الله على
إرادة نفوسهم.

فهل لبعضهم من أصعب من الطوائف؟ قال: الصوفية، فإن للقيح عندهم
وجها من العاذر، وليس للكبير من العمل عندهم وقع يرفعونك به فتعجبك
نفسك، وهذا علم لا يوحد عند الفقير والزاهد، لأن الزاهد يستعظم الترك،
ويستقبح الأخذ، وهكذا الفقير، وذلك لضيق وعائهم، ووقوفهم على حد
علمهم.

وقال بعضهم: الصوفي من إذا استقبله حالان حسنان أو حلقان حسنان
يكون مع الأحسن، والفقير والزاهد لا يميزان كل التمييز بين الحلقين
الحسنين، بل يختاران من الأخلاق أيضا ما هو أدنى إلى الترك، والخروج عن
شواغل الدنيا، حاكمان في ذلك بعلمهم، والصوفي هو المستبين الأحسن من

عند الله، بصديق التجائه، وحسن إتيائه، وحظ قربه، ولطيف الوجه،
وخروجه إلى الله تعالى، لعلمه بربه، وحظه من محادثته ومكالمته.

قال رويم: التصوف استرسال النفس مع الله تعالى على ما يريد.

وقال عمرو بن عثمان للكي، التصوف أن يكون العبد في كل وقت
مشغولا بما هو أولى في الوقت.

وقال بعضهم: التصوف لوله علم، ولوسطه عمل، وآخره موهبة من الله
تعالى.

وقيل: التصوف فكر مع اجتماع، ووجد مع استماع، وعمل مع اتباع
وقيل التصوف ترك التكلف، وبذل الروح.

وقال سهل بن عبد الله الصوفي من صفا من الكبر، وامتناع من الفكر،
وانقطع إلى الله من البشر، واستوى عنده الذهب والدر.

وسئل بعضهم عن التصوف فقال: تصفية القلب عن موافقة البرية،
ومفارقة الأخلاق الطبيعية، وإخماد صفات البشرية، ومجانبة الدواعي
الفسانية، ومنازلة الصفات الروحانية والتعلق بعلوم الحقيقة، واتباع
الرسول في الشريعة.

قال ذو النون المصري: رأيت في بعض سواحل الشام امرأة، فقلت: من
أين أقبلت؟ قالت: من عند اقوام تتجافى جنوبهم عن المضاجع، فقلت: وأين
تريدين؟ قالت: إلى رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله، فقلت:
صفيهم لي، فأنشأت:

قوم همومهم بالله قد عاقت	فما لهم تسمو إلى أحد
همطلب القوم مولاهم وسيدهم	ياحسن مطلبهم للواحد الصمد
ما إن تنازعهم دنيا ولا شرف	من الطاعم والذات والولد
ولا للبس نيلاب هانق أنق	ولا لروح سرور حل في بلد
إلا مسارعة في إنسر منزلة	قد قارب الخطو فيها باعد الأبد
فهم رهائن عنون ووديعة	في الشوامخ تلقاهم مع العدد

قال الجنيد: الصوفي كالارض، بطرح عليه كل قبيح، ولا يخرج منها
إلا كل مليح.

وقال أيضا هو كالارض، يطؤها وير وفاجر، وكالسحاب سطل كل
شيء، وكالقطر يسقي كل شيء وأقول للشيخ في ماهية التصوف تزيد
على ألف قول، ويطول نقلها، ونذكر ضابطا يجمع جمل معانيها، فإن
الألفاظ وإن اختلفت متقاربة المعاني.

هقول،

الصوفي هو الذي يكون دائم التصفية، ولا يزال بصفي الأوقات عن
شوائب الأكدار، بتصفية القلب عن شوب النفس، وبعينه على هذه التصفية
دوام الانتقاره إلى مولاه، فبدوام الافتقار ينقي من الكدر، وكلما تحركت
النفس وظهرت بصفة من صفاتها لتركها ببصيرته الناقدة، وفر منها
إلى ربه.

فبدوام تصفيته جمعيته، وبحكمة نفسه تفرقته وكبره، فهو قائم
بربه على قلبه، وقائم بقلبه على نفسه. قال الله تعالى: ﴿كُونُوا قَوْمًا يُؤْتُونَ
لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ ۚ﴾^{١٩}. وهذه القوامية لله على النفس هو التحقق
بالتصوف.

قال البعض: التصوف كله اضطراب، فإذا وقع السكون فلا تصوف.
والسر فيه أن الروح مجذوبة إلى الحضرة الالهية، يعني أن روح الصوفي
متطلعة منجذبة إلى موطن القرب، وللنفس بوضعها رسوب إلى عالمها،
وانقلاب على عقبها، ولا بد للصوفي من دوام الحركة، بدوام الافتقار، ودوام
الفرار، وحسن التفقد لواقع إصابات النفس. ومن وقف على هذا العنى يجد
في الصوفي جميع التفرق في الإشارات.

الباب السادس في ذكر تسميتهم بهذا الاسم

أخبرنا الشيخ أبو زرعة طاهر بن محمد بن طاهر، قال: أخبرني والدي، قال: أنا أبو علي الشافعي بمكة حرسها الله تعالى، قال: أنا أحمد بن إبراهيم قال: أنا أبو جعفر محمد بن إبراهيم، قال أنا أبو عبد الله الخزمي، قال: حدثنا سفيان، عن مسلم، عن أنس بن مالك قال: كان رسول الله ﷺ يجيب دعوة العبد، ويركب الحمار، ويلبس الصوف.

فمن هذا الوجه ذهب قوم إلى أنهم سموا صوفية، نسبة لهم إلى ظاهر اللبسة، لأنهم اختاروا لبس الصوف لكونه أرقق، ولكونه كان لباس الأنبياء عليهم السلام.

روى عن رسول الله ﷺ أنه قال «مر بالصخرة من الروحاء سبعون ذبياً حفاة عليهم العباء يؤمون البيت الحرام».

وقيل: إن عيسى عليه السلام كان يلبس الصوف والشعر، وبأكل من الشجر، ويبيت حيث أمسى.

وقال الحسن البصري رضي الله عنه: لقد أدركت سبعين بدياً كان لباسهم الصوف.

ووصفهم أبو هريرة وفصالة بن عبيد فقال: كانوا يخرجون من الجوع تحسبهم الأعراب مجانين، وكان لباسهم الصوف، حتى إن بعضهم كان يعرق في ثوبه فيوجد منه رائحة الضأن إذا أصابه الغيث.

وقال بعضهم: إنه ليؤنيني ريح هؤلاء أما يؤنئك ريحهم؟ يخاطب رسول الله ﷺ بذلك.

فكان اختيارهم للباس الصوف لتركهم زينة الدنيا، ولناعتهم بسد الجوع، وستر العورة، واستغراقهم في أمر الآخرة فلم يتفرغوا لحلاذ النموس وراحاتها، لشدة شغلهم بخدمة مولاهم، وانصرف همهم إلى أمر الآخرة.

وهذا الاختيار يلائم ويناسب من حيث الاشتقاق، لأنه يقال: تصوف إذا لبس الصوف، كما يقال تقمص إذا لبس القميص.

ولما كان حالهم بين سير وطير، لتقلبهم في الأحوال، وارتقائهم من عال إلى أعلى منه، لا يقيدهم وصفه ولا يحبسهم نعت، وأبواب الزيد علما وحالا عليهم مفتوحة، بواطنهم معنن الحقائق، ومجمع العلوم.

فلما تعزز ثقلهم بحال تقيدهم لتنوع وجباتهم، وتجنس مزيجهم، نسبوا إلى ظاهر اللبسة، وكان ذلك أبين في الإشارة إليهم، وادعى إلى حصر وصفهم، لأن لبس الصوف كان غالبا على المتقدمين من سلمهم. وأيضا لأن حالهم حال القربين كما سبق ذكره.

ولما كان الاعتزاء إلى القرب وعظم الإشارة إلى قرب الله تعالى أمر صعب، يعز كشفه والإشارة إليه، وقعت الإشارة إلى زيهم سزا لحالهم، وغيرة على عزيز مقامهم أن تكثر الإشارة إليه وتتناوله الألسنة، فكان هذا أقرب إلى الأدب، والأدب في الظاهر والباطن، والقول والفعل، عماد أمر الصوفية.

وهيه معنى آخر، وهو أن نسبتهم إلى اللبسة تنبئ عن ثقلهم من الدنيا، وزهدهم فيما تدعوا النفس إليه بالهوى من اللبوس الناعم، حتى إن المبتدي المريد الذي يؤثر طريقهم، ويحب الدخول في أمرهم، يوطن نفسه على النكشف والتنقل، ويعلم أن للأكل أيضا من جنس اللبوس، فيدخل في طريقهم على بصيرة. وهذا أمر مفهوم معلوم عند المبتدي، والإشارة إلى شيء من حالهم في تسميتهم بذلك أبعد من فهم أرباب البدايات، فكان تسميتهم بهذا أنفع وأولى.

وأيضا غير هذا المعنى مما يقال إنهم سموا صوفية لذلك يتضمن دعوى.

وإذا قيل سموا صوفية لبسهم الصوف كان أبعد من الدعوى، وكل ما كان أبعد من الدعوى كان أليق بحالهم.

وابضا لأن لبس الصوف حكم ظاهر على الظاهر من أمرهم، ونسبتهم إلى أمر آخر من حال أو مقام أمر باطن، والحكم بالظاهر أوفق وأولى .
 قال قول: بأنهم سموا صوفية لبسهم الصوف البق وأقرب إلى الوضع .
 ويقرب أن يقال: لما آثروا الذبول والخمول، والتواضع والانكسار، والتخفي والتوازي، كانوا كالأخرقة للقاء، والصوفة للرمية التي لا يرغب فيه، ولا يلتفت إليها، فيقال صوفي نسبة إلى الصوفة . كما يقال مكوفي نسبة إلى الكوفة .

وهذا ما ذكره بعض أهل العلم، والمعنى المقصود به قريب ، ويلائم الاشتقاق، ولم يزل لبس الصوف اختيار الصالحين والزهاد، والمتقشفين والعباد .

أخبرنا أبو زرعة طاهر، عن أبيه قال، أنا عبد الرازق بن عبد الكريم، قال، أنا أبو الحسن محمد بن محمد، قال، حدثنا أبو علي إسماعيل بن محمد، قال، حدثنا الحسن بن عرفة، قال، حدثنا خلف بن خليفة، عن حميد بن الأعرج، عن عبد الله بن الحارث عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال .
 قال رسول الله ﷺ « يوم كلم الله تعالى موسى عليه السلام كان عليه حبة صوف، وسراويل صوف، وكساء صوف، وكفه من صوف، ونعلاه من جلد حمار غير مذكي » .

وقيل، سموا صوفية لأنهم في الصف الأول بين يدي الله عز وجل لارتفاع همهم، وإقبالهم على الله تعالى بقلوبهم، ووقوفهم بسرائرهم بين يديه .

وقيل: كان هذا الاسم في الأصل صفوى فاستثقل ذلك وجعل صوفيا .
 وقيل سموا صوفية نسبة إلى الصفة التي كانت لمقرء المهاجرين على عهد رسول الله ﷺ الذين قال تعالى فيهم ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُخْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ﴾^(١) .

وهذا إن كان لا يستقيم من حيث الاشتقاق اللغوي، ولكن صحيح من حيث المعنى، لأن الصوفية يشاكل حالهم حال أولئك، لكونهم مجتمعين متالفين، متصاحبين لله وفي الله، كأصحاب الصفة، وكانوا نحو من أربعمائة رجل، لم تكن لهم مساكن بالمدينة، ولا عسائر، جمعوا أنفسهم في المسجد كاجتماع الصوفية قديما وحديثا في الزوايا والربط، وكانوا لا يرجعون إلى زرع ولا إلى ضرع ولا إلى تجارة، كانوا يحتطبون ويرضخون النوء بالنهار، وبالليل يشتعلون بالعبادة وتعلم القرآن وتلاوته، وكان رسول الله ﷺ يواسيهم، ويحث الناس على مواساتهم، ويجلس معهم، ويأكل معهم، وفيهم نزل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾^(١). وقوله تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾^(٢). ونزل في ابن أم مكتوم قوله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى أَن جَاءَهُ آلُ أُمِّي﴾^(٣).

كان من أهل الصفة فعوتب النبي ﷺ لأجله. وكان رسول الله ﷺ إذا صالحهم لا ينزع يده من أيديهم، وكان يفرقهم على أهل الجلة والسعة، يبعث مع واحد ثلاثة، ومع الآخر أربعة. وكان سعد بن معاذ يحمل إلى بيته منهم ثمانين يطعمهم.

(١) سورة الأنعام آية: ٥٢.

(٢) سورة الكهف آية: ٢٨.

(٣) سورة عبس آية: ٢١.

وقال أبو هريرة رضي الله عنه، لقد رأيت سبعين من أهل الصفة يصلون في ثوب واحد، منه من لا يبلغ ركبته، فإذا ركع أحدهم قبض بيديه مخافة أن تبلو عورته.

وقال بعض أهل الصفة: جئنا جماعة إلى رسول الله ﷺ وقلنا يا رسول الله أحرق بطوننا التمر، فسمع بذلك رسول الله ﷺ، فصعد النير ثم قال « ما بال أقوام يقولون أحرق بطوننا التمر، أما علمتم أن هذا التمر هو طعام أهل المدينة، وقد واسونا به وواسيناكم مما واسونا به، والذي نفس محمد بيده إن منذ شهرين لم يرتفع من بيت رسول الله ﷺ دخان للخبز، وليس لهم إلا الأسودان: لاء والتمر ».

أخبرنا الشيخ أبو الفتح محمد بن عبد الباقي في كتابه قال: أنا الشيخ أبو بكر بن زكريا الطريثي قال: أنا الشيخ أبو عبد الرحمن السلمي قال: حدثنا محمد بن سعيد الأنماطي قال: حدثنا الحسن بن يحيى بن سلام قال: حدثنا محمد بن علي الترمذي قال: حدثني سعيد بن حاتم البلخي قال: حدثنا سهل بن أسلم عن خلاد بن محمد عن أبي عبد الرحمن السكري، عن يزيد السحوي، عن عكرمة، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: وقف رسول الله ﷺ يوماً على أهل الصفة فرأى فقرهم وجههم وطيب قلوبهم فقال: « أبشروا يا أصحاب الصفة، فمن بقى منكم على النعت الذي أنتم عليه اليوم راضياً بما هو فيه فإنه من رفقاني يوم القيامة » .

وقيل، كان منهم طائفة بخراسان يآوون إلى الكهوف والغارات، ولا يسكنون القرى والبلد، يسمونهم في خراسان شكفتية، لأن شكت اسم الغار، ينسبونهم إلى اللاوى والمستقر.

وأهل الشام يسمونهم جوعية.

والله تعالى ذكر في القرآن طوائف الخير والصالح، فسمى قوما أبرارا،
وآخرين مقربين. ومنهم الصابرون والصابغون، والناكرون والحبون، واسم
الصوفي مشتمل على جميع للتفرق في هذه الأسماء المذكورة.

وهذا الاسم لم يكن في زمن رسول الله ﷺ وقبله كان في زمن التابعين.

ونقل عن الحسن البصري رحمه الله عليه أنه قال: رأيت صوفيا في
الطواف فأعطيته شيئا فلم يأخذه وقال، معي أربع دنانير، بكفيني ما معي.
ويسند هذا ما روي عن سفیان أنه قال، لولا أبو هاشم الصوفي ما عرفت
دقيق الرباء. وهذا يدل على أن هذا الاسم كان يحف قديما.

وقيل: لم يعرف هذا الاسم إلى المائتين من الهجرة النبوية، لأن في زمن
رسول الله ﷺ كان أصحابه ﷺ يسمون الرجل صحابيا، لشرف صحبة
رسول الله ﷺ، ويكون الإشارة إليها أولى من كحل إشارة.

وبعد انقراض عهد رسول الله ﷺ من أخذ منهم العلم سمي تابعا.

ثم لما تقدم زمان الرسالة، وبعد عهد النبوة، وانقطع الوحي السماوي،
وتواري النور الصطفوي، واختلفت الآراء وتنوعت الأنحاء، وتفرّد كل ذي
رأي رايه، وكثر شرب العلوم شوب الأهوية، وتزعزعت أبنية التقين،
واضطربت عزائم الزاهدين، وغلبت الجهالات، وكثف حجابها، وكثرت
العادات وتملكت أربابها، وتزخرقت الدنيا، وكثر خطابها، تفرد طائفة
بأعمال صالحة، وأحوال سنية، وصلق في العزيمه، وقوة في الدين وزهلوا في
الدنيا ومحبتها، واغتنموا العزلة والوحدة وتخلوا لنفوسهم زوايا يجتمعون
فيها تارة، وينفردون أخرى، أسوة بأهل الصفة، تاركين للأسباب، متبتلين
إلى رب الأرباب.

فأثمر لهم صالح الأعمال سنى الأحوال، ونهيا لهم صفاء الفهوم لقبول العلوم، وصار لهم بعد اللسان لسان، وبعد العرفان عرفان، وبعد الإيمان إيمان، كما قال حارثة: أصبحت مؤمنا حقا، حيث كوشف برتبة في الإيمان غير ما يتعاهدونها، فصار لهم بمقتضى ذلك علوم يعرفونها، وإشارات يتعاهدونها، فحرروا لنفوسهم اصطلاحات تشير إلى معان يعرفونها، وتعرب عن أحوال يجلوونها، فأخذ ذلك الخلف عن السلف حتى صار ذلك رسما مستمرا، وخيرا مستقرا في كل عصر وزمان، فظهر هذا الاسم بينهم، وتسموا به وسموا به. فالاسم سمتهم، والعلم بالله صفتهم، والعبادة حليتهم، والتقوى شعارهم، وحقائق الحقيقة أسرارهم، نزاع القبائل، وأصحاب الفضائل، سكان قباب الغيرة، وقطان ديار الحيرة، لهم مع الساعات من إمداد فضل الله مزيد، ولهم شوقهم بتأجج ويقول هل من مزيد. اللهم احشرنا في زمرةهم، وارزقنا حالاتهم. والله اعلم.

الباب السابع في ذكر المتصوف والمتشبه به

أخبرنا شيخنا شيخ الإسلام أبو النجيب السروردي إجازة قال: أنا الشيخ أبو منصور بن خيرون قال: أنا أبو محمد الحسن بن علي الجوهري إجازة قال: أنا محمد بن العباس بن زكريا قال: أنا أبو محمد يحيى بن محمد بن صاعد الأصفهاني قال: أنا للعتمر بن سليمان قال: أنا حميد الطويل عن أنس بن مالك قال: جاء رجل إلى النبي عليه الصلاة والسلام فقال: يا رسول الله متى قيام الساعة؟ فقال: أمن؟ فقال لرجل: أنا يا رسول الله، قال: «ما أعددت له؟» قال ما أعددت له كثير صلاة ولا صيام، أو قال: ما أعددت له كبير عمل، إلا أني أحب الله ورسوله، فقال النبي عليه الصلاة والسلام: «المرء مع من أحب، أو أنت مع من أحببت» قال أنس: فلما رأيت للمسلمين فرحوا بشيء بعد الإسلام فرحهم بهذا.

فالتشبه بالصوفية ما اختار التشبه بهم دون غيرهم من الطوائف إلا لمحبة إياهم، وهو مع نقصه عن القيام بما هم فيه يكون معهم لوضع إرادته ومحبة.

وقد ورد بلفظ آخر أوضح من الخبر الذي روينا في المعنى.

روي عبادة بن الصامت عن أبي ذر العفاري قال: قلت يا رسول الله الرجل يحب القوم ولا يستطيع أن يعمل كعملهم، قال: «أنت يا أبا ذر مع من أحببت». قال: قلت فإني أحب الله ورسوله. قال: فإنك مع من أحببت». قال: فأعادها أبو ذر، فأعادها رسول الله ﷺ.

فمحبة التشبه إياهم لا تكون إلا لتنبه روحه لما تنبهت له لأرواح الصوفية، لأن محبة أمر الله وما يقرب إليه ومن يقرب منه تكون بجانب الروح، غير أن التشبه تعوق بظلمة النفس، والصوفي تخلص من ذلك، والمتصوف متطلع إلى حال الصوفي، وهو مشارك ببقاء شيء من صفات نفسه

عليه للمتشبه، وطريق الصوفية أوله إيمان، ثم علم، ثم ذوق. فالتشبه صاحب إيمان، والإيمان بطريق الصوفية أصل كبير.

قال الجنيد رحمه الله عليه: الإيمان بطريقنا هنا ولاية.

ووجه ذلك أن الصوفية تميزوا بأحوال عزيزة، وأثار مستغربة عند أكثر الخلق، لأنهم مكاشفون بالقدر وخرائب العلوم، وإشاراتهم إلى عظيم أمر الله والقرب منه، والإيمان بذلك إيمان بالقدر.

وقد أنكر قوم من أهل الله كرامات الأولياء، والإيمان بذلك إيمان بالقدر، ولهم علوم من هذا القبيل فلا يؤمن بطريقهم إلا من خصه الله تعالى بمزيد عنايته.

فالتشبه صاحب إيمان، والتصوف صاحب علم، لأنه بعد الإيمان اكتسب مزيد علم بطريقهم، وصار له من ذلك مواجيد يستدل له على سائرها.

والصوفي صاحب ذوق، والتصوف وهكذا سنة الله تعالى جارية أن كل صاحب حال له ذوق فيه لا بد أن يكشف له علم بحال أعلى مما هو فيه، فيكون في الحال الأول صاحب ذوق، وفي الحال الذي كوشف به صاحب علم، وبحال فوق ذلك صاحب إيمان، حتى لا يزال طريق الطلب مسلوكة، فيكون في حال الذوق صاحب قدم، وفي حال العلم صاحب نظر، وفي حال فوق ذلك صاحب إيمان، قال الله تعالى:

﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٨﴾﴾^{١٩}

﴿وَمَرَّاجُهُمْ مِنْ تَتْمِيمٍ ﴿١٩﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٠﴾﴾^{٢٠}

فكان لشرب الأبرار مزج من شرب القربين وللمقربين ذلك صرفاً.

(١) سورة الانعام الآية: ١٢.

(٢) سورة طه الآية ٢٧، ٢٨.

فالصوفي شراب صرفه والمتصوف من مزج في شربه، وللمتشبه مزج من شراب المتصوف فالصوفي سبق إلى مقام الروح من بساط القرب والمتصوف بالنسبة إلى الزاهد، لأنه تفعل وتعمل وتسبب إشارة إلى ما بقي عليه من وصفه، فهو مجتهد في طريقه سائر على ربه.

قال رسول الله ﷺ «سيروا سبقا للفرحون، والمتصوف في مقام السائرين، واصل في سيره إلى مقام القلب من ذكر الله عز وجل ومراقبته بقلبه، وتلذذه بنظره إلى نظره لله إليه».

فالصوفي في مقام الروح صاحب مشاهدة والناصب في مقام صاحب مراقبة. والمتشبه في مقاومة النفس، وصاحب مجاهدة، وصاحب محاسبة فتلوين الصوفي بوجود قلبه، وتلوين المتصوف بوجود نفسه، والمتشبه لا تلوين له، لأن التلوين لأرباب الأحوال، والمتشبه مجتهد سالك لم يصل بعد إلى الأحوال، والكل تجمعهم دائرة الاصطفاء. قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا آلَكَتَبَ الَّذِينَ أَصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾^(١).

قال بعضهم: الظالم الزاهد، والمقتصد العارف، والسابق المحب. وقال بعضهم: الظالم الذي يجزع من البلاء، والمقتصد الذي يصبر عند البلاء، والسابق الذي يتلذذ بالبلاء.

وقال بعضهم: الظالم يعبد على الغفلة والعادة، والمقتصد يعبد على الرغبة والرغبة، والسابق يعبد على الهيبة والنفق.

وقال بعضهم: الظالم بذكر الله بلسانه، والمقتصد بقلبه، والسابق لا ينسى ربه.

وقال أحمد بن عاصم الأنطاكي رحمه الله: الظالم صاحب الأقوال، والمقتصد صاحب الأفعال، والسابق صاحب الأحوال.

وكل هذه الأقوال قريبة التناسب من حال الصوفي والتصوف والتشبه، وكلهم من أهل الفلاح والنجاح، تجمعهم دائرة الاصطفاء، وتؤلف بينهم نسبة التخصيص بالفتح والعطاء.

أخبرنا الشيخ العالم رضي الله عن أبي الخير أحمد بن إسماعيل القزويني إجازة قال أنا أبو سعد محمد بن أبي العباس، قال أنا القاضي محمد بن سعيد قال، أنا أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم قال، أخبرني الحسين بن محمد بن قنجويه

قال، حدثنا أحمد بن محمد بن رزمة قال، حدثنا يوسف بن عاصم الرازي قال، حدثنا أبو أيوب سليمان بن داود قال، حدثنا حصين بن نمير، عن أبي ليلى، عن أخيه، عن أسامة بن زيد رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال في قوله تعالى ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾^(١).

«كلهم في الجنة»

قال ابن عطاء، الظالم الذي يحب الله من أجل الدنيا، والمقتصد الذي يحب الله من أجل العقي، والسابق هو الذي اسقط مراده بمراد الله فيه. وهذا هو حال الصوفي. فالتشبه تعرض لشيء من أمر القوم، ويوجب له ذلك القرب منهم. مقدمة كل خير.

سمعت شيخنا يقول، جاء بعض أبناء الدنيا إلى الشيخ أحمد الغزالي ونحن بإصبهان يريد منه الخرقعة، فقال له الشيخ، اذهب إلى فلان - يشير إلى - حتى يكلمك في معنى الخرقعة، ثم احضر حتى ألبسك الخرقعة. قال فجاء إلى المذكور له حقوق الخرقعة، وما يجب من رعاية حقها، وأداب من يلبسها، ومن يؤهل للبسها، فاستعظم الرجل حقوق الخرقعة وحين أن يلبسها.

فأخبر الشيخ بما تجدد عند الطالب من قولي له، فاستحضرني وعاتبني على قولي له ذلك، وقال، بعثته إليك حتى تكلمه بما يزيد رغبته في الخرقعة، فكلمته بما فترت عزيمته. ثم الذي ذكرته كله صحيح وهو

الذي يجب من حقوق الخرقه، ولكن إذا ألزمتنا للبتدي بذلك نضر وعجز عن القيام به، فمن نلبسه الخرقه حتى يتشبه بالقوم ويتزيى بزيهم، فيقربه ذلك من مجالسهم ومخافتهم، وببركة مخالطته معهم، ونظره إلى أحوال القوم وسيرهم، يجب أن يسلك مسلكهم ويصل بذلك إلى شئ من أحوالهم.

ويوافق هذا القول من الشيخ أحمد الغزالي ما أخبرنا رحمه الله قال، أنا عصام الدين عمر بن أحمد الصفار قال، أنا أبو بكر أحمد بن علي بن خلف قال، أنا الشيخ عبد الرحمن السلمي قال، سمعت الحسين بن يحيى يقول، سمعت جعفر يقول، سمعت أبا القاسم الجنيد يقول إذا لقيت الفقير فلا تبدأ بالعلم وأبداه بالرفق، فإن العلم يوحشه والرفق يؤنسه.

وبرفق الصوفية بالتشبهين بهم ينتفع للبتدي الطالب، وكل من كان منهم أكمل حالا وتوفر علماً كان أكثر رفقا بالبتدي الطالب. حكى عن بعضهم أنه صحبه طالب فكان يأخذ نفسه بكثرة المعاملات والمجاهلات، ولم يقصد بذلك إلا نظر البتدي إليه، والتأدب بأدبه، والافتدائه به في عمله.

وهذا هو الرفق الذي ما دخل في شئ إلا زانه.

فالتشبه الحقيقي له إيمان بطريق القوم، وعمل بمقتضاه، وسلوك واجتهاد على ما ذكرناه أنه صاحب مشاهدة. فأما من لم يتطلع إلى حال التصوف والصوفي بالتشبه ولا يقصد أوائل مقاصدهم، بل هو مجرد تشبه ظاهر من ظاهر اللبسة والشاركة في الزي والصورة، دون السيرة والصفة، فليس بمتشبه، يعتزى إلى القوم بمجرد لبسه، ومع ذلك هم القوم لا يشقي بهم جليسهم، وقد ورد «من تشبه بقوم فهو منهم».

أخبرنا الشيخ أبو الفتح محمد بن سليمان قال، أنا أبو الفضل حميد قال، أنا الحافظ أبو نعيم الأصفهاني قال، أنا عبد الله بن محمد بن جعفر قال، حدثنا عمر بن أحمد بن أبي عاصم قال حدثنا إبراهيم بن محمد الشافعي قال، حدثنا علي بن أحمد قال، حدثنا علي بن علي اللقنسي قال، حدثنا محمد بن عبد الله بن عامر قال، حدثنا إبراهيم بن الأشعث قال،

حدثنا فضيل بن عياض، عن سليمان الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال،

قال رسول الله ﷺ «إن الله ملائكة فضلاء عن كتاب الناس يطوفون في الطرق ويتتبعون مجالس الذكر، فإذا رأوا قوماً يذكرون الله تنادوا هلموا إلى حاجتكم، فيحفونهم بأجنحتهم إلى عنان السماء، فيقول الله - وهو أعلم - ما يقول عبادي؟ قالوا: يحمنونك ويسبحونك ويمجدونك، فيقول، وهل رأوني؟ فيقولون، لا، فيقول مكيف لو رأوني؟ قالوا: لو رأوك مكانوا أشد تسبيحاً وتحميداً وتمجيداً، فيقول، ما يسألونني؟ قالوا: يسألونك الجنة، فيقول، وهل رأوها؟ قالوا: لا، فيقول مكيف لو رأوها؟ قلوا: لو رأوها مكانوا أشد لها طلباً وعليها أكثر حرصاً قالوا، ويعوذون من النار، فيقول، وهل رأوها؟ قالوا: لا، فيقول، كيف لو رأوها؟ قالوا: لو رأوها مكانوا أشد منهم تمعناً، وأشد فراراً، فيقول، أشهدكم أنني قد غفرت لهم.

فيقول الملك، فمنهم فلان ليس منهم إنما جاء لحاجة، فيقول تبارك وتعالى،

«هم المجلساء لا يشقي جلسهم».

فلا يشقى جلس الصوفية والمتشبه بهم والمحب لهم.

الباب الثامن في ذكر الملامتي وشرح حاله

قال بعضهم، الملامتي هو الذي لا يظهر خيرا ولا يضمن شرا. وشرح هذا هو أن الملامتي تشربت عروقه طعم الإخلاص، وتحقق بالصدق، فلا يحب أن يطلع أحد على حاله وأعماله.

أخبرنا الشيخ أبو زرعة طاهر بن أبي الفضل القنصلي إجازة قال: أنا أبو بكر أحمد بن علي بن خلف الشيرازي إجازة قال: أنا الشيخ أبو عبد الرحمن السلمي قال: سمعت علي بن سعيد وسألته عن الإخلاص ما هو؟ قال: سمعت محمد بن جعفر الخصاف وسألته عن الإخلاص ما هو؟ قال: سألت أحمد بن بشار عن الإخلاص ما هو؟ قال سألت أبا يعقوب الشروطي عن الإخلاص ما هو؟

قال: سألت أحمد بن عسان عن الإخلاص ما هو؟ قال: سألت أحمد بن علي الجهمي عن الإخلاص ما هو؟ قال: سألت عبد الواحد بن زيد عن الإخلاص ما هو؟ قال: سألت الحسن عن الإخلاص ما هو؟ قال: سألت حذيفة عن الإخلاص ما هو؟

قال: سألت الحسن عن الإخلاص ما هو؟ قال: سألت حذيفة عن الإخلاص ما هو؟ قال: سألت رسول الله ﷺ عن الإخلاص ما هو؟ قال: «سألت جبرائيل عن الإخلاص ما هو؟ قال: سألت رب العزة عن الإخلاص ما هو؟ قال: «هو سر من سري استودعته قلب من أحببت من عبادي»

قال الملامتي لهم مزيد اختصاص بالتمسك بالإخلاص، يرون كتم الأحوال والأعمال، ويتلذذون بكتمها، حتى لو ظهرت أعمالهم وأحوالهم لأحد استوحشوا من ذلك كما يستوحش العاصي من ظهر عصيته.

فالملا متى عظم وقع الإخلاص وموضعه، وتمسك به معتدلاً به،
والصوفي غاب في إخلاصه عن إخلاصه.

قال أبوا يعقوب السوسي: متى شهدوا في إخلاصهم الإخلاص، احتاج
إخلاصهم إلى إخلاص.

وقال ذو النون: ثلاث من علامات الإخلاص: استواء الدم والمدح من
العامه، ونسيان رؤية الأعمال في الأعمال، وترك اقتضاء ثواب العمل في الآخرة

أخبرنا أبو زرعة إجازة قال: أنا أبو بكر أحمد بن علي بن خلف إجازة
قال: أنا أبو عبد الرحمن قال: سمعت أبا عثمان الغربي يقول: الإخلاص ما لا
يكون للنفس فيه حظ بعالم، وهذا إخلاص العوام، وإخلاص الحواص ما
يحري عليه لا بهم، فتبدو منهم الطاعات وهم عنها بمعزل، ولا يقع لهم
عليه رؤية ولا بهم اعتداد، فذلك إخلاص الخواص.

وهذا الذي فصله الشيخ أبو عثمان الغربي يفرق بين الصوفي والملا متى،
لأن الملا متى أخرج الخلق عن عمله وحاله، ولكن أثبت نفسه، فهو مخلص،
والصوفي أخرج نفسه عن عمله وحاله كما أخرج غيره، فهو مخلص وشتان
ما بين المخلص الخالص والمخلص.

قال أبوا بكر الرقاق: نقصان كل مخلص في إخلاصه رؤية إخلاصه،
فإذا أراد الله أن يخلص إخلاصه أسقط عن إخلاصه رؤيته لإخلاصه، فيكون
مخلصاً لا مخلصاً.

قال أبو سعيد الخراز: رياء العرافين أفضل من إخلاص الريدين.

ومعنى قوله إن إخلاص الريدين معلول برؤية الإخلاص، والعارف
منزه عن الرياء الذي يبطل العمل، ولكن لعله يظهر شيئاً من حاله وعمله
يعلم كامل عنده فيه لجلب مريد، أو معاناة خلق من اخلاق النفس في

إظهاره الحال والعمل، وللعارفين في ذلك علم دقيق لا يعرفه غيرهم، فيرى ذلك ناقص العلم صورة رياء وليس برياء، إنما هو صريح العلم لله بآلته من غير حضور نفس ووجود آفة فيه.

قال رويم: الإخلاص أن لا يرضي صاحبه عليه عوضاً في الدارين، ولا حظاً من الملكين .

وقال بعضهم: صدق الإخلاص نسيان رؤية الخلق بدوام النظر إلى الخالق واللامتى يرى الخلق فيخفي علمه وحاله.

وكل ما ذكرناه من قبل وصف إخلاص الصوفي .

ولهذا قال الزقاق: لا بد لكل مخلص من رؤية إخلاصه، وهو نقصان عن كمال الإخلاص، والإخلاص هو الذي يتولى الله حفظ صاحبه حتى يابى به على التمام.

قال جعفر الحالدي: سألت أبا القاسم الجنيد رحمه الله قلت: أبين الإخلاص والصدق فرق؟ قال: نعم، الصدق أصل وهو الأول، والإخلاص فرع وهو تابع، وقال: بينهما فرق، لأن الإخلاص لا يكون إلا بعد الدخول في العمل، ثم قال: إنما هو إخلاص، ومخالصة الإخلاص، ومخالصة كائنة في الخالصة.

فلعل هذا الإخلاص حال للامتى، ومخالصة الإخلاص حال الصوفي، والحالصة الكائنة في الخالصة ثمرة مخالصة الإخلاص وهو فناء العبد عن رسومه برؤية قيامه بقيومه، بل غيبته عن رؤية قيامه، وهو الاستعراق في العين عن الآثار، والتخلص عن لوث الاستتار وهو فقد حال الصوفي.

واللامتى مقيم في لوطن إخلاصه، غير متطلع إلى حقيقة إخلاصه.

وهذا فرق واضح بين اللامتى والصوفي.

ولم يزل في خراسان منهم طائفة، ولهم مشايخ يمهّدون أساسهم، ويعرفونهم شروط حالهم. وقد رأينا في العراق من يسلك هذا المسلك، ولكن لم يشتهر بهذا الاسم، وكلما يتناول السنة لهل العراق هذا الاسم.

فقال: لأنني إن حضرت يظهر على وجهي، ولا يؤثر أن يعلم أحد حالتي.

وقيل: أن أحمد بن أبي الحولري قال لأبي سليمان النيراني: إني إذا كنت في الخلوة أجد لمعاملي لذة لا أجدها بين الناس، فقال له: إنك إذا لضعيف.

فاللامتي وإن كان متمسكاً بعروة الإخلاص، مستفرشاً بساط الصديق، ولكن بقي عليه بقية رؤية الخلق، وما أحسنها من بقية تحقق الإخلاص والصديق.

والصوفي صفا من هذه البقية في طريق العمل والترك للخلق، وعزلهم بالكلية، ورأهم بعين الفناء والزوال، ولا ح له فاصية فتوحيد، وعين سر قوله: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ ١٩.

كما قال بعضهم في بعض غلباته: ليس في التخرين غير الله.

وقد يكون إخفاء اللامتي الحال على وجهين،

أحد الوجهين لتحقيق الإخلاص والصديق.

والوجه الآخر وهو الأتم لستر الحال عن غيره، بدو عن غيره، فإن من حلا بمحبوبه يكره اطلاع الغير عليه، بل يبلغ في صدق المحبة أن يكره اطلاع أحد على حبه لمحبوبه.

وهذا وإن علا ففي طريق الصوفي علة ونقص. فعلى هذا يتقدم
اللامتي على المتصوف ويتأخر عن الصوفي.

وقيل: أن من أصول اللامتية أن الذكر على أربعة أقسام:

ذكر باللسان.

وذكر بالقلب.

وذكر بالسر.

وذكر بالروح.

فإذا صح ذكر الروح سكنت السر والقلب واللسان عن الذكر، وذلك
ذكر الشاهدة.

وإذا صح ذكر السر سكنت القلب واللسان عن الذكر، وذلك ذكر
الهيبة.

وإذا صح ذكر القلب فنز اللسان عن الذكر، وذلك الألاء والنعماء.

وإذا غفل القلب عن الذكر، قبل اللسان على الذكر، وذلك ذكر
العادة.

ولكل واحد من هذه الأذكار عندهم آفة.

آفة ذكر الروح اطلاع السر عليه.

وآفة ذكر السر اطلاع القلب عليه.

وآفة ذكر القلب اطلاع النفس عليه.

وآفة ذكر النفس رؤية ذلك وتعظيمه، أو طلب ثوابه، أو ظن أنه
يصل إلى شيء من المقامات.

وأقل الناس قيمة عندهم من يريد إظهاره وإقبال الخلق عليه بذلك.

وسر هنا الأصل الذي بنوا عليه أن ذكر الروح ذكر الذات.

وذكر السر ذكر الصفات بزعمهم، وذكر القلب من الآلاء والنعماء .

ذكر أثر الصفات، وذكر النفس متعرض للملات.

فمعنى قولهم: اطلاع السر على الروح، يشيرون إلى التحقق بالفناء عند ذكر الذات .

وذكر الهيبة في ذلك الوقت ذكر الصفات مشعر بنصيب الهيبة وهو وجود الهيبة، ووجود الهيبة يستدعي وجودا وبقيّة، وذلك يناقض حال الفناء.

وهكذا ذكر السر وجود هيبة وهو ذكر الصفات مشعر بنصيب القرب.

وذكر القلب الذي هو ذكر الآلاء والنعماء مشعر ببعد ما لأنه المحطى ضرب من بعد المزلّة وإطلاع النفس نظرا إلى الأعواض اعتداد بوجود العمل، وذلك عين الاعتدال حقيقة.

وهذه أقسام هذه الطائفة، وبعضها أعلى من بعض. والله أعلم.

الباب التاسع

في ذكر من أتى إلى الصوفية وليس منهم

فمن أولئك قوم يسمون نفوسهم قلندرية تارة، وملامتية أخرى، وقد ذكرنا حال اللامتي، وأنه حال شريف، ومقام عزيز، وتمسك بالسنن والآثار وتحقق بالإخلاص والصدق، وليس مما يزعم الفتونون بشيء.

فاما القلندرية فهو إشارة إلى لقوام ملكهم سكر طيبة قلوبهم حتى خربوا العادات، وطرحوا بآداب المجالسات والحالطات، وساحوا في ميادين طيبة قلوبهم، فقلت أعمالهم من الصوم والصلاة إلا الفرائض، ولم يبالوا بتناول شيء من لذات الدنيا من كل ما كان مباحاً برخصة الشرع، وربما اقتصروا على رعاية الرخصة، ولم يطلبوا حقائق العزيمة.

ومع ذلك هم متمسكون بترك الادخار، وترك الجمع والاستكثار، ولا يرسمون بمراسم النقشفين والتزهدين والتعبدية، وقنعوا بطيبة قلوبهم مع الله تعالى، واقتصروا على ذلك، وليس عندهم تطلع إلى طلب مزيد سوى ما هم عليه من طيبة القلوب.

والمرق بين اللامتي والقلندري اللامتي يعمل في كتيم العبادات، والقلندري يعمل في تخريب العادات، واللامتي يتمسك بكل أبواب البر والخير ويرى الفضل فيه، ولكن يخفى الأعمال والأحوال، ويوقف نفسه موقف العوام في هيئته وملبوسه وحركاته وأموره، سراً للحال لنلا يظن له، وهو مع ذلك متطلع إلى طلب الزيد، باذل مجهوده في كل ما يتقرب به العبيد.

والقلندري لا يتقيد بهيئة، ولا يبالي بما يعرف من حاله وما لا يعرف، ولا ينحطف إلا على طيبة القلوب وهو رأس ماله. والصوفي يضع الأشياء مواضعها، وينبر الأوقات والأحوال كلها بالعلم، يقيم الخلق مقامها، ويقيم

أمر الحق مقامه، ويستر ما ينبغي أن يستر ويظهر ما ينبغي أن يظهر، ويأتي بالأمور في مواضعها بحضور عقل، وصحة توحيد، وحكمال معرفة، ورعاية صدق وإخلاص.

لقوم من الفتونين سموا أنفسهم ملامتية ولبسوا لبسة الصوفية لينسبوا بها إلى الصوفية وما هم من الصوفية بشئ، بل هم في غرور وغلط، يتسترون بلبسة الصوفية توقيتاً تارة، وينتهجون مناهج أهل الإباحة، ويزعمون أن ضمانهم خلصت إلى الله تعالى، ويقولون هذا هو الظفر بالمراد، والارتسام بمراسم الشريعة سمة العوام، والقاصرين الإقحام، النحصرين في مضيق الاقتداء بقليل، وهذا هو عين الإلحاد والزندقة والإبعاد، فكل حقيقة ردتها الشريعة فهي زندقة، وجهل هؤلاء الغرورون أن الشريعة حق العبودية، والحقيقة هي حقيقة العبودية، ومن صار من أهل الحقيقة تنيد بحقوق العبودية، وحقيقة العبودية، وصار مطالباً بأمور وزادات لا يطالب بها من لم يصل إلى ذلك، لأنه يخلع عن عنقه ربة التكليف، ويحاصر باطنه الزيف والتعريف.

أخبرنا أبو زرعة عن أبيه الحافظ القنسي قال: أنا أبو محمد الخطيب، أنا أبو بكر بن محمد بن عمر قال: أنا أبو بكر بن أبي ذواد قال: أنا أحمد بن صالح قال: أنا عنبة قال: أنا يونس بن يزيد قال: قال محمد يعني الزهري، أخبرني حميد بن عبد الرحمن، أن عبد الله بن عتبة بن مسعود حدثه قال، سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: إن أناساً كانوا يؤمنون بالوحي على عهد رسول الله ﷺ، وإن الوحي قد انقطع، وإنما نأخذكم الآن بما ظهر من أعمالكم، فمن أظهر لنا خيراً أمناه وقربناه، وليس إلينا من سريره شيء، الله تعالى يحاسبه في سريرته، ومن أظهر لنا سوى ذلك لم نأمنه وإن قال سريرتي حسنة. وعنه أيضاً رضي الله عنه قال: من عرض نفسه لثلاث فلا يلو من أساء به الظن.

فإذا رأينا متهاونا بحدود الشرع، مهملًا للصلوات والفروضات، لا يعتد
بجلاوة التلاوة والصوم والصلاة ويدخل في المداخل الكروية المحرمة نرده ولا
نقبله، ولا نقبل دعواه أن له سريرة صالحة.

أخبرنا شيخنا ضياء الدنيا أبو النجيب السهروردي إجازة، عن عمر بن
أحمد، عن ابن خلف، عن السلمي قال: سمعت أبا بكر الرازي، سمعت أبا محمد
الجبري يقول: سمعت الجنيد يقول لرجل ذكر للعرفة، فقال الرجل: أهل
العرفة بالله يصلون إلى ترك الحركات من باب البر وتتقوى إلى الله تعالى.

فقال الجنيد: إن هذا قول قوم تكلموا بإسقاط الأعمال، وهذه عندي
عظيمة، والذي يسرق ويزني أحسن حالا من الذي يقول هذا، وإن العراقيين
بالله أخذوا الأعمال عن الله وإليه يرجعون فيها، ولو بقيت ألف عام لم انقص
من أعمال البر ذرة إلا أن يحال بي دونها، وإنما لأكد في معرفتي وأقوى لحالي.

ومن جملة أولئك قوم يقولون بالحلول، ويزعمون أن الله تعالى يحل
فيهم ويحل في أجسام مصطفياها، ويسبق لأفهامهم معنى من قول النصاري في
اللاهوت والناسوت.

ومنها من يستبجح النظر إلى الاستحسانات إشارة إلى هذا الوهم،
وتخايل له أن من قال كلاما في بعض غلباته كان مضمرا الشيء مما
زعموه، مثل قول الحلاج: أنا الحق، وما يحكي عن أبي يزيد من قوله:
سبحاني. حاشا أن نعتقد في أبي يزيد أنه يقول ذلك إلا على معنى الحكاية
عن الله تعالى. وهكذا ينبغي أن نعتقد في قول الحلاج ذلك. ولو علمنا أنه
ذكر ذلك القول مضمرا الشيء من الحلول ربحناه كما نردهم.

وقد أذانا رسول الله ﷺ بشريعة بيضاء نقية، يستقيم بها كل معوج،
وقد دلتنا عقولنا على ما يجوز وصف الله تعالى به وما لا يجوز.

والله تعالى منزّه أن يحل به شيء أو يحل بشيء ، حتى لعل بعض المتوسمين يكون عنده ذكاء وفطنة غريزية، ويكون قد سمع كلمات تعلقت بباطنه، فيتألف له في فكره كلمات ينسبها إلى الله تعالى، وإنها مكالة الله تعالى إياه، مثل أن يقول قال لي وقلت له، وهذا رجل إما جاهل بنفسه وحديثها، جاهل بربه وبكيفية الكالة والحادثة، وإما عالم بهطلان ما يقول يحمله هواه على الدعوى بذلك ليوهم أنه ظمر بشيء.

وكل هذا ضلال، ويكون سبب تجرئه على هذا ما سمع من كلام بعض المحققين مخاطبات وردت عليهم بعد طول معاملات لهم ظاهرة وباطنة، وتمسكهم بأصول القوم من صنق التقوى وكمال الزهد في الدنيا.

فلما صفت أسرارهم تشكلت في سرائرهم مخاطبات موافقة للكتاب والسنة، فنزلت تلك المخاطبات عند استغراق السرائر، ولا يكون ذلك كلاماً بسمعونه، بل كحديث في النفس يجنونه برؤية موافقاً للكتاب والسنة، مفهوماً عند أهله، موافقاً للعلم.

ويكون ذلك، مناجاة لسرائرهم، ومناجاة سرائرهم إياهم، فيثبتون لنفوسهم وإلى مولاهم، وهم مع ذلك عالون بأن ذلك ليس كلام الله، وإنما هو علم حادث أحدثه الله في بواطنهم.

فطريق الأصحاء في ذلك القرار إلى الله تعالى من كل ما تحدث نفوسهم به، حتى إذا برئت ساحتهم من الهوى ألهموا في بواطنهم شيئاً ينسبونه إلى الله تعالى نسبة الحادث إلى الحادث، لا نسبة الكلام إلى التكلم، ليصانوا عن الزيف والتحريف.

ومن أولئك قوم يزعمون أنهم يغرقون في بحار التوحيد ويسقطون ولا يثبتون لنفوسهم حركة وفعلاً يزعمون أنهم مجبورون على الأشياء، وأن لا فعل لهم مع فعل الله، ويسترسلون في العاصي، وكل ما تنعوا النفس إليه،

ويركضون إلى البطالة ودوام العفلة، والاعترار بالله، والخروج من الله، وترك
الحدود والأحكام، والحلال والحرام.

وقد سئل سهل عن رجل يقول، أنا كالبلاب لا أتحرك إلا إذا حركت،
قال، هذا لا يقوله إلا أحد رجلين:

إما صديق.

أو زنديق.

لأن الصديق يقول هذا القول إشارة إلى أن قوام الأشياء بالله مع إحكام
الأصول ورعاية حدود العبودية.

والزنديق يقول ذلك إحالة للأشياء على الله وإسقاطاً للأنمة عن
نفسه، وانخلاعاً عن الدين ورسمه. فاما من كان معتقداً وجوب التوبة
منها، فهو سليم صحيح، وإن كان تحت القصور بما يركض إليه من
البطالة، ويتروح بهوى النفس إلى الأسفار والتردد في البلاد، متوصلاً إلى تناول
اللذات والشهوات، غير متمسك بشيخ يؤديه ويهنيه، ويبصره بعيب ما هو
فيه.

والله للوفق.

الباب العاشر

في شرح رتبة المشيخة

ورد في الخبر عن رسول الله ﷺ « والذي نفس محمد بيده لئن شئتم لأقسم لكم، إن أحب عباد الله تعالى إلى الله الذين يحبون الله إلى عبادهم، ويحبون عباد الله إلى الله، ويمشون على الأرض بالنصيحة ».

وهذا الذي ذكره رسول الله ﷺ هو رتبة المشيخة والدعوة إلى الله تعالى، لأن الشيخ يحب الله إلى عبادته حقيقة، ويجب عباد الله إلى الله.

ورتبة المشيخة من أعلى الرتب في طريق الصوفية، ونياية النبوة في الدعاء إلى الله.

فأما وجه كون الشيخ يحب الله إلى عبادته، فلأن الشيخ يسلك بالريد طريق الاقتداء برسول الله ﷺ.

ومن صح اقتداؤه واتباعه أحبه الله تعالى قال الله تعالى: ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾ (١).

ووجه مكنونه يحب عباد الله تعالى إليه أنه يسلك بالريد طريق التزكية، وإذا تزكيت النفس انحلت مرآة القلب، وانعكست فيه أنوار العظمة الإلهية، ولاح فيه جمال التوحيد، وانجلبت أحلاق البصيرة إلى مطالعة أنوار جلال القدم، ورؤية الكمال الأزلي، فأحب العبد ربه لا محالة، وذلك ميراث التزكية، قال الله تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ﴾ (٢).

وقلاحتها بالظفر بمعرفة الله تعالى.

(١) سورة آل عمران آية: ٣١.

(٢) سورة الشعراء آية: ٩.

وأيضاً مرآة القلب إذا انجلت لاحت فيها الدنيا بقبحها وحقيقتها وماهيته، ولاحت الآخرة ونفائسها بكنهها وغايتها، فتتكشف للبصيرة حقيقة الدارين، وحاصل المنزلة، فيحب العبد الباقي ويزهد في الفاني، فتظهر فائدة التزكية، وجودى للشيخة والتربية.

فالشيوخ من جنود الله تعالى يرشد به للرهبين، ويهدي به الطالبين.

أخبرنا أبو زرعة عن أبيه الحافظ القنسي قال: أنا أبو الفضل عبد الواحد بن علي بهمدان قال: أنا أبو بكر محمد بن علي بن أحمد الطوسي قال:

حدثنا أبو العباس محمد بن يعقوب قال: حدثنا أبو عتبة قال: وحدثنا بقيه قال: حدثنا صفوان بن عمرو قال: كان يقال: إذا اجتمع عشرون رجلاً أو أكثر فإن لم يكن فيهم من بهاب الله عز وجل فقد خطر الأمر.

فعلى المشايخ وقار الله، وبهم يتأدب الريدون ظاهراً وباطناً، قال الله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَّتْهُمْ آفَتُهُ﴾^(١).

فالمشايخ لما اهتموا اهلوا لاقتناء بهم، وجعلوا الامة المتقين. قال رسول الله ﷺ حاكياً عن ربه « إذا كان الغالب على عبدي الاشتغال بي جعلت همته ولدانه في ذكرى، فإذا جعلت همته ولدانه في ذكرى عشقي وعشقتي، ورهقت الحجاب فيما بيني وبينه، لا يسه إذا سها الناس، أولئك كلامهم كلام الأنبياء، أولئك الأبطال حقاً، أولئك الذين إذا أربت بأهل الأرض عقوبة أو عذاباً ذكرتهم فيه فصرفته بهم عنهم».

والسر في وصول السالك إلى رتبة الشيخة، أن السالك مأمور بسياسة النفس، مبتلى بصفاتها، لا يزال يسلك بصدق للعامة حتى تطمئن نفسه، وبطمأنينتها ينتزع عنها القيود واليبوسة التي استصحبها من أصل خلقتها،

وبها تستعصى على الطاعة والانقياد للعبودية، فإذا زالت اليبوسة عنها، ولانبت بحرارة الروح الفواصلة إليها، وهذا اللين هو الذي ذكره الله تعالى في قوله، ﴿ثُمَّ تَلِيْنُ جُلُوْدَهُمْ وَقُلُوْبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ۖ﴾^(١) . تعالى، تجيب إلى العبادة، وتلين للطاعة عند ذلك. وقلب العبد متوسط بين الروح والنفس، ذو وجهين، أحد وجهية إلى النفس، والوجه الآخر إلى الروح، يستمد من الروح بوجهه الذي يليه، ويمد النفس بوجهه الذي يليها حتى تطمئن النفس، فإذا اطمأنت نفس السالك، وخرج من سياستها، انتهى سلوكه، وتمكن من سياسة النفس ونقادت نفسه وهامت إلى امر الله.

ثم القلب يشرب إلى السياسة لما فيه من التوجه إلى النفس، فيقوم نفوس المريدين والطلابين والصادقين عند مقام نفسه، لوجود الجنسية في عين النفسية من وجه، ولوجود التالف بين الشيخ والمريد من وجه، ولوجود التالف بين الشيخ والمريد من وجه بالتالف الإلهي .

قال الله تعالى ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلْفَتْ بِئِنَّ قُلُوْبُهُمْ وَلَيَكُنَّ اللَّهُ أَلْفَ بَيْتِهِمْ ۖ﴾^(٢) .

فيسوس نفس المريدين كما كان يسوس نفسه من قبل، ويكون في الشيخ حينئذ معنى التخلق باخلاق الله تعالى من معنى قوله الله تعالى.

ألا طال شوق الأبرار إلى لقائي وإنسي إلى لقائهم لأشد شوقاً

وبما هيأ الله تعالى من حسن التالف بين الصاحب والصحاب، يصير المريد جزء الشيخ، كما أن الولد جزء الوالد في الولادة الطبيعية، وتصير هذه الولادة أنفأ ولادة معنوية كما ورد عن عيسى عليه السلام، لن يلج ملكوت السماء من لم يولد مرقين.

(١) سورة الزمر آية: ٢٢.

(٢) سورة الأبقال آية: ٦٣.

قبالولادة الأولى يصير له ارتباط بعالم الملك، وبهذه الولادة يصير له ارتباط بالملكوت. قال الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾^(١).

وصرف اليقين على الكمال يحصل في هذه الولادة، وبهذه يستحق ميراث الأنبياء، ومن لم يصله ميراث الأنبياء ما ولد، وإن كان على كمال من الفطنة والذكاء، لأن الفطنة والذكاء نتيجة العقل، والعقل إذا كان يائساً من نور الشرع لا يدخل الملكوت ولا يزال متردداً في الملك، ولهذا وقف على برهان من العلوم الرياضية، لأنه تصرف في الملك ولم يرتق إلى الملكوت.

وبذلك ظاهر الكون، والملكوت باطن الكون، والعقل لسان الروح. والبصيرة التي منها تنبعث أشعة الهداية قلب الروح، واللسان ترجمان القلب، وكل ما ينطق به الترجمان معلوم عند من يترجم عنه، وليس كل ما عند من يترجم عنه يبرز إلى الترجمان، فلهذا المعنى حرم الواقفون مع مجرد العقول العارية عن نور الهداية، الذي هو موهبة الله تعالى عند الأنبياء وأتباعهم الصوف، وأسبل دونهم الحجاب لوقوفهم مع الترجمان، وحرمانهم غاية التبيان.

وكما أن في الولادة الطبيعة ذرات الأولاد صلب الأب مودعة، تنتقل إلى أصلاب الأولاد بعد كل ولد ذرة، وهي الذرات التي خاطبها الله تعالى يوم الميثاق بألست بربكم، قالوا بلى، حيث مسح ظهر آدم وهو ملقى ببطن نعلان بين مكة والطائف، فسالت الذرات من مسام جسده كَمَا يسيل العرق بعد كل ولد من ولد آدم ذرة.

ثم لما خوطبت وأجابت ردت إلى ظهر آدم. فمن الآباء من تنفذ الذرات في صلبه، ومنهم من لم يودع في صلبه شيء فينقطع نسله. وهكذا المشايخ، فمنهم من تكثر أولاده، وبأخذون منه العلوم والأحوال، ويودعونها غيرهم،

كما وصلت إليهم منهم من ينقطع نسله له. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ شَيْئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾^(١).

وإلا فنسل رسول الله ﷺ باق إلى أن تقوم الساعة وبالنسبة العنوي يصل ميراث العلم إلى أهل العلم.

أخبرنا شيخنا ضياء الدين أبو النجيب السهروردي إمامنا قال: أنا أبو عبد الرحمن الماليني قال: أنا أبو الحسن النخودي قال: أنا أبو محمد الحموي قال: أنا أبو عمران السمرقندي قال: أنا أبو محمد الدارمي قال: أنا نصر بن علي قال: حدثنا عبد الله بن داود، عن عاصم، عن رجاء بن حيوة، عن داود بن جميل، عن كثير بن قيس قال: كنت جالسا مع أبي النرداء في مسجد دمشق، فأتاه رجل فقال: يا أبا النرداء بني أهلك من المدينة، مدينة الرسول ﷺ لحديث بلغني عنك أنك تحدثه عن رسول الله ﷺ قال: فما جاء بك تحارة؟ قال: لا. قال: ولا جاء بك غيره؟ قال: لا. قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول «من سلك طريقاً يلتمس به علماً سلك الله به طريقاً من طرق الجنة وإن اللانكة لتضع أجنحتها رضا لطالب العلم، وإن فضل طالب العلم على العابد كفضل القمر على سائر النجوم، وإن العلماء هم ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما إنما يورثوا العلم، فمن أخذ به أخذ بحظه أو بجزءه ونظر».

فأول ما أودعت الحكمة والعلم عند آدم أبي البشر عليه السلام، ثم انتقل منه كما انتقل منه النسيان والعصيان وما تدعوا إليه النفس والشيطان، كما ورد أن الله تعالى أمر جبرائيل حتى أخذ قبضة من أجزاء الأرض، والله تعالى نظر إلى الأجزاء الأرضية التي كونها من الجوهرية التي خلقها أولا، فصار من مواقع نظر الله إليها فيها خاصية السماع من الله تعالى والجواب

حيث خاطب السموات والأرضين بقوله: ﴿أَتَيْتَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْتَا طَائِعِينَ﴾^(١)

. فحملت أجزاء الأرض بهذا الخطاب خاصة، ثم انتزعت هذه الخاصة منه باخذ أجزائها لتركيب صورة آدم، فركبت جسد آدم من أجزاء أرضية محتوية على هذه الخاصة، فمن حيث نسبة أجزاء الأرض تركب فيه الهوى، حتى مد يده إلى شجرة الفناء، وهي شجرة الحنطة في أكثر الأقاليم، فتطرق لقابله المناء وياكرام الله إياه بنفخ الروح الذي أخرج عنه بقوله: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ، وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾^(٢)

نال العلم والحكمة.

فبالتسوية صار ذا نفس منفوسة، وبنفخ الروح صار ذا روح روحاني، وشرح هذا بطول. فصار قلبه معن الحكمة، وقلبه معن الهوى، فانتقل منه العلم والهوى، وصار ميزانه في والده، فصار من طريق الوالد أباً بواسطة الطبايع التي هي محل الهوى، ومن طريق الولادة للعنوية محمية من الفناء، لأنها وجدت من شجرة الخلد، وهي شجرة العلم لا شجرة الحنطة التي سماها إبليس شجرة الخلد فأبليس يرى الشيء بصدده . فتبين أن الشيخ هو الأب.

وكثيراً كان شيخنا شيخ الإسلام أبو النجيب السهروردي رحمه الله يقول: ولدي من سلك طريقي واهتدى بهنبي.

فالشيخ الذي يكتسب بطريقة الأحوال قد يكون مأخوذاً في ابتدائه في طريق المحبين، وقد يكون مأخوذاً في طريق المحبوبين، وذلك أن امر الصالحين والسالكين ينقسم أربعة أقسام، سالك مجرد، ومجنوب مجرد، وسالك متدارك بالجنبة، ومجنوب متدارك بالسلوك.

(١) سورة فصلت، آية: ١١.

(٢) سورة الحجر آية: ٢٩.

فالسالك الجرد لا يؤهل للمشيخة ولا يبلغها لبقاء صفاء نفسه عليه،
فيقف عند حظه من رحمة الله تعالى في مقام للعامة والرياضة، ولا يرتقي
إلى حال يروح بها عن وهج الكابدة.

والجلوب الجرد من غير سلوك بهادته الحق بآيات اليقين، ويرفع عن
قلبه شيئاً من الحجاب ولا يؤخذ في طريق للعامة.

وللمعاملة أثر تام.

سوف نشرحه في موضعه إن شاء الله تعالى. وهذا أيضاً لا يؤهل
للمشيخة، ويقف عند حظه من الله ومروحاً بحاله، غير ماخوذ في طريق
أعماله ماعدا الفريضة.

والسالك الذي تدورك بالجلبة، وهو الذي كانت بدايته بالمجاهدة
والكابدة والعامة بالإخلاص والوفاء بالشروط، ثم أخرج من وهج الكابدة إلى
روح الحال، فوجد العسل بعد العلق، وتروح بنسمات الفضل، وبرز من
مضيق الكابدة إلى متسع الساهلة، وأونس بنفحات القرب، وفتح له باب من
الشاهدة.

فوجد دواءه، وفاض وعافوه، وصدرت منه كلمات الحكمة، ومالت له
القلوب، وتوالى عليه فتوح الغيب وصار ظاهره مسنداً وباطنه مشاهداً،
وصلح للجلوة وصار له في الجلوة خلوة، فيغلب ولا يحلب، ويفترس ولا
يفترس، يؤهل مثل هذا للمشيخة، لأنه أخذ في طريق المحبين، ومنح حالا من
أحوال القربين، بعد ما دخل من طريق أعمال الأبرار الصالحين، ويكون له
اتباع ينتقل منه إليهم علوم، ويظهر بطريقه برصكة، ولكن قد يكون
محبوساً في حاله، معكماً حالة فيه، لا يطلق من وفاق الحال ولا يبلغ كمال
النوال، يقف عند حظه وهو حظ وآخر سنى، والذين أوتوا العلم درجات

ولكن اللقال الأكمل في للشيخة القسم الرابع وهو اللجنوب اللتدارك
بالسلوك، يبادنه الحق بالكشوف وأنوار الليقين، ويرفع عن قلبه اللحبب،
ويستنير بأنوار اللشاهدة، وينشرح وينفسح قلبه، ويتجافى عن دار اللغرور،
وينيب إلى دار اللخلود، ويرتوى من بحر الحال، ويتخلص من الأغلال والأعلال
، ويقول معلناً لا أعبد رباً لم أره، ثم يفيض من باطنه على ظاهره، وتجري
عليه صورة اللجاهدة واللعاملة من غير مكابدة وعناء، بل بلذلة وهناء،
ويصير قلبه بصمة قلبه لا متلاء قلبه بحب ربه وبلين جلده كما لان
قلبه.

وعلامه لين جلده إجابة قلبه للعمل ، كإجابة قلبه، فيزيده الله تعالى إرادة
خاصة وبرزقه محبة خاصة من محبة اللحبوبين للرايين، ينقطع قيوصل،
ويعرض عنه فيراسل، ويذهب عنه جمود النفس، ويصلى بحرارة الروح،
وتنكمش عن قلبه عروق النفس. قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْخَبَرِ
كِتَابًا مُنَشِّبَهَا مَثَانٍ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ
جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ ١٠١.

أخبر أن اللجلود تلين، كما أن اللقلوب تلين، ولا يكون هذا إلا حال
اللحبوب المراد. وقد ورد في اللخير أن إبليس سأل فسبيل إلى القلب، فقيل له
يحرم عليك، ولكن اللسبيل لك في مجاري اللعروق للشبكة بالنفس إلى حد
القلب، فإذا دخلت اللعروق عرفت فيها من ضيق مجاريها، وأمتزج عرقك
بماء الرحمة للترشح من جانب القلب في مجرى واحد، ويصل بذلك سلطانك
إلى القلب، ومن جعلته نبياً أو ولياً قلعت تلك اللعروق من باطن قلبه فيصير
القلب سليماً، فإذا دخلت اللعروق لم تصل إلى اللشبكة بالقلب، فلا يصل إلى
القلب سلطانك.

فالمحبوب المراد الذي أهل للمشيشة، وسلم قلبه، وانشرح صدره ولان جلده، فصار قلبه بطبع الروح، ونفسه بطبع القلب، ولا نت النفس بعد ان كابت اماره بالسوء مستعصية، ولان الجلد للين النفس، ورد إلى صورة الأعمال بعد وجران الحال.

ولا يزال روحه ينجذب إلى الحضرة الالهية، فيستتبع الروح القلب، فامتزجت الأعمال القلبية والقالبية، وتخرق الظاهر إلى الباطن، والباطن إلى الظاهر، والقدرة إلى الحكمة، والحكمة إلى القدرة، والدينيا إلى الآخرة. الآخرة إلى الدنيا، ويصح له ان يقول: لو كشف الغطاء ما ازدت يقيناً. فعند ذلك يطلق من وفاق الحال، ويكون مسيطراً على الحال لا الحال مسيطراً عليه، وبصير حراً من كل وجه.

والشيخ الأول الذي أخذ في طريق المحبين حر من رق النفس، ولكن ربما كان باقياً في رق القلب. وهذا الشيخ في طريق المحبوبين حر من رق النفس، وذلك أن النفس حجاب ظلماني ارضي اعتق منه الأول، والقلب حجاب نوراني سماوي اعتق منه الآخر، فصار لربه لا لقلبه ولوقته لا لوقتته، فعبد الله حقاً، وأمن به صدقاً ويسجد لله سواده وخياله، ويؤمن به فؤاده، وقر به لسانه، كما قال رسول الله ﷺ في بعض سجوده، ولا يتخلف عن العبودية منه شعرة، وتصير عبادته مشاكلة لعبادة الملائكة ﴿وَلِلّٰهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلّٰلُهمْ بِالْغُدُوِّ وَالْاَصَالِ﴾ ١٩.

فالقالب هو الظلال الساجد، وظلال الأرواح المقربة في عالم الشهادة.

الأصل كثيف والظل لطيف، وفي عالم الغيب الأصل لطيف والظل كثيف، فيسجد لطيف العبد وكثيفه، وليس هذا من أخذ في طريق المحبين لأنه يستتبع صور الأعمال، ويمتلئ بما انيل من وجران الحال، وذلك قصور في العلم، وقلة في الحظ، ولو كثر العلم رأى ارتباط الأعمال بالأحوال

كارتباط الروح بالجسد، ورأى أن لا غنى عن الأعمال كما لا غنى في عالم الشهادة عن القوالب، فما دامت القوالب باقية فالعمل باق، ومن صح في المقام الذي وصفتاه هو الشيخ المطلق، والعارف المحقق، والمحبوب العتيق، بظرفه دواء، وكلامه شفاء، بالله ينطق، وبالله يسكت، كما ورد « لا يزال العبد يتقرب إلى بالنوازل حتى أحبه، فإذا أحبته كنت له سمعاً وبصراً وبها ومؤيداً، بي ينطق وبها يبصر » الحديث.

فالشيخ يعطي بالله، ويمنع بالله، فلا رغبة له في عطاء ومنع لعبته، بل هو مع مراد الحق، والحق يعفه مراده، فيكون في الأشياء بمراد الله تعالى لا بمراد نفسه، فإن علم أن الله تعالى يريد منه الدخول في صورة محمود دخل فيها مراد الله تعالى لا لكون الصورة محمودة، بخلاف الخادم القائم بواجب خدمة الله تعالى.

الباب الحادي عشر في شرح حال الخادم ومن يتشبه به

أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام قال: « يا داود إذا رأيت لي طالباً
فكن له خادماً »

الخادم يدخل في الخدمة رغباً في الثواب، وهما أعد الله تعالى للعباد،
ويتصدى لإيصال الراحة وفرغ خاطر القبلين على الله تعالى عن مهام
معاشهم ويفعل ما يفعله الله تعالى بنية صالحة.

قال الشيخ واقف مع مراد الله تعالى، والخادم واقف مع نيته.

فالخادم يفعل الشيء لله تعالى، والشيخ يفعل الشيء لله. فالشيخ في مقام
للقربين، والخادم في مقام الأبرار. فيختار الخادم البذل والإيثار، والارتفاق من
الأغيار للأغيار، ووظيفة وقته تصديه لخدمة عباد الله، وفيه يعرف الفضل
ورحمته على نواقله وأعماله.

وقد بقي من لا يعرف الخادم من الشيخ الخادم مقام الشيخ، وربما
جهل الخادم أيضاً حال نفسه، فيحسب نفسه شيخاً لقلة العلم، والدراس
علوم القوم في هذا الزمان، وفناعة كثير من الفقهاء من الشايخ باللقمة دون
العلم والحال. فكل من كان أكثر إطلاعاً هو عندهم أحق بالشيخة، ولا
يعلمون أنه خادم وليس بشيخ. والخادم في مقام حسن وحظ صالح من الله
تعالى.

وقد ورد ما يدل على فضل الخادم فهما أخبرنا الشيخ أبو زرعة ابن
الحافظ أبي الفضل محمد بن طاهر القنسي عن أبيه قال: أنا أبو الفضل
محمد بن عبد الله القرني قال: حدثنا أبو الحسن محمد بن الحسين بن داود
العلوي قال: حدثنا أبو حامد الحافظ قال: حدثنا العباس بن محمد الدوري

وأبو الأزهر قال: حدثنا أبو داود قال: حدثنا سفيان، عن الأوزاعي، عن يحيى بن أبي كثير عن أبي سلمة، عن أبي هريرة " « أن النبي ﷺ أتى بطعام وهو بهر الطهران، فقال لأبي بكر وعمر: كلا، فقالا: إنا صائمان، فقال: ارحلا لصاحبكما، اعملا لصاحبكما، ادنوا فكلا، يعني انكما ضعفتما بالصوم عن الخدمة، فاحتجتما إلى من يخدمكما، فكلا واخديما أنفسكما ».

فإن الخادم يحض على حيازة الفضل، فيتوصل بالكسب تارة، وبالإسترقاق واللحوزة تارة أخرى، وبإستجلاب الوقف إلى نفسه تارة، لعلمه أنه قيم بذلك، صالح لإيصاله إلى الوقوف عليهم، ولا يبالي أن يدخل في كل مدخل لا يذمه الشرع لحيازة الفضل بالخدمة. ويرى الشيخ بنفوذ البصيرة وقوة العلم أن الإنفاق يحتاج إلى علم تام، ومعاناة في ذلك لوجود مرده فيه وحاله ترك الرد وإقامة مراد الحق.

أخبرنا أبو زرعة إجازة قال: أبو بكر أحمد بن علي بن خلف إجازة قال: أنا الشيخ أبو عبد الرحمن السلمي يقول: سمعت محمد بن الحسين بن الخشاب يقول: سمعت جعفر بن محمد يقول: سمعت الجنيد يقول سمعت السري يقول: أعرف طريقاً مختصراً قصداً إلى الجنة، فقلت له ما هو؟ قال: لا تسأل من أحد شيئاً، ولا تأخذ من أحد شيئاً، ولا يكن معك شيء تعطى منه أحداً شيئاً.

والخادم يرى أن من طريق الجنة الخدمة والبذل والإيثار، فيقدم الخدمة على السوفل، ويرى فضلها، وللخدمة فضل على النافلة التي يأتي بها العبد طالباً بها الثواب غير النافلة التي يتوخى بها صحة حاله مع الله تعالى لوجود نقد قبل وعد.

ومما يدل على فضل الخدمة على النافلة ما أخبرنا أبو زرعة قال: أخبرني والدي الحافظ القدسي قال: أنا أبو بكر محمد بن أحمد السمسار بإصفهان قال: أنا إبراهيم بن عبد الله بن خرشيد قال: حدثنا الحسين بن

إسماعيل المخاملي قال: حدثنا أبو السائب قال: حدثنا أبو معاوية قال: حدثنا
عاصم عن موريق عن أنس قال:

«كنا مع رسول الله ﷺ فمنا الصائم ومنا المفطر، فنزلنا منزلاً في يوم
حار شديد الحر، فمنا من يتقي الشمس بيده، واكثرنا ظلاً صاحب الكساء،
يستظل به، فنام الصائمون وقام المفطرون فضربوا الأبنية وسقوا الركاب،
فقال رسول الله ﷺ «ذهب للمفطرون اليوم بالآجر» .

وهذا حديث يدل على فضل الخدمة على النافلة. والخادم له مقام
عزيز يرغب فيه، فأما من لم يعرف تحليلص النية من شوائب النفس،
ويتشبه بالخدام، وتصدى لخدمة الفقراء، ويدخل في مداخل الخدام بحسن
الإرادة بطلب الناس بالخدام، فتكون خدمته مشوبة، منها ما يصيب فيها
لوضع إيمانه، وحسن إرادته في خدمة القوم، ومنها ما لا يصيب فيه لما فيه
من مرج الهوى، فيضع الشيء في غير موضعه.

وقد يخدم بهواه في بعض تصاريفه، ويخدم من لا يستحق الخدمة في
بعض أوقاته، ويحب المحمدة والثناء من الخلق، مع ما يحب من الثواب ورضا
الله تعالى، وربما حدم للثناء، وربما امتنع من الخدمة في طريق الرضا
والغضب، لا نحراف مزاج قلبه بوجود الهوى بخامره في حق من يلقاه
بمكروه، ولا براعي واجب الخدمة في طريق الرضا والغضب، لا نحراف مزاج
قلبه بوجود الهوى. والخادم لا يتبع الهوى في الخدمة في الرضا والغضب، ولا
تأخذه في الله لومة لائم، ويضع الشيء موضعه .

فإن الشخص الذي وصفناه آنفاً متخادم وليس بخادم، ولا يميز بين
الخادم والمتخادم النجيب يبلغ ثواب الخادم في كثير من تصاريفه، ولا يبلغ
رتبته لتخلاه عن حاله بوجود مزاج هواه، وأما من أقيم لخدمة الفقراء
بتسليم وقف إليه، أو توفير رفق عليه، وهو يخدم لئال يصيبه، أو حظ
عاجل يدركه، فهو في الخدمة لنفسه لا لغيره، فلو انقطع رفق ما خدم.

وربما استخدم من يخدم، فهو مع حظ نفسه يخدم من يخدمه ، ويحتاج إليه في المحافل، يتكثر به، ويقيم به جاه نفسه بكثرة الاتباع والإشباع.

فهو خادم هواه، وطالب دنياه، يحرص نهاره وليله في تحصيل ما يقيم به جاهه، ويرضي نفسه وأهله وولده، فيتسع في الدنيا ويتزيا بخير زي الخدام والفقراء، وتنتشر نفسه بطلب الحظوظ، ويستولى عليه حب الرياسة. وكلما كثر رفقته كثرت مواد هواه، واستطال على الفقراء، ويحوج الفقراء إلى النملق الفرط له تطلباً لرضاه، وتوقياً لضيمه وميله عليهم بقطع ما ينوبهم من الوقف. فهذا أحسن حاله أن يسمى مستخدماً، فليس بخادم ولا متخادم، ومع ذلك كله ربما نال بركتهم باختياره خدمتهم على خدمة غيرهم، وبانتمائه إليهم. وقد أوردنا الخبر للسند الذي في سياقه: «هم القوم الذين لا يشقى بهم جليسهم».

والله الوهق والمعين.

الباب الثاني عشر

في شرح خرقة المشايخ الصوفية

لبس الخرقة ارتباط بين الشيخ وبين المريء، وتحكيم من المريء للشيخ في نفسه، والتحكيم سائق في الشرع لصالح دنيوية، فعاداً ينكر النكر لللبس الخرقة على طالب صادق في طلبه، يتقصد شيخاً بحسن ظن وعقيدة، يحكمه في نفسه لصالح دينه، يرشده ويهديه، ويعرفه طريق الواجب، ويبصره بأفات النفوس، وفساد الأعمال، ومداخل العدو.

فيسلم نفسه إليه، ويستسلم لرأيه، ووبعمل به في جميع تصاريفه، فيلبسه الخرقة، إظهاراً للتصرف فيه، فيكون لبس الخرقة علامة التمويه والتسليم، ودخوله في حكم الشيخ دخول في حكم الله وحكم رسوله، بإحياء سنة البايعة مع رسول الله ﷺ.

أخبرنا أبو زرعة قال، أخبرني والدي الحافظ القنسي قال: أنا أبو الحسن أحمد بن محمد البزاز قال: أنا أحمد بن محمد أخي ميمي قال: حدثنا يحيى بن محمد بن صاعد قال: حدثنا عمرو بن علي بن حفظة قال: سمعت عبد الوهاب الثقفي يقول: سمعت يحيى بن سعيد يقول: حدثني عبادة بن الوليد ابن عبادة بن الصامت قال: أخبرني أبي عن أبيه قال «يايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة، في السر والسر، والمنشط والمكره، وإن لا ننازع الأمر أهله، وإن نقول بالحق حيث مكنا، ولا نخاف في الله لومة». .

ففي الخرقة معنى البايعة، والخرقة عتبة الدخول في الصحبة والقصود الكلي هو الصحبة، وبالصحبة يرجي للمريد كل خير.

روى عن أبي يزيد أنه قال: من لم يكن له أستاذ فإمامه الشيطان.

وحكى الأستاذ أبو القاسم القشيري عن شيخه أبي علي الدقاق أنه قال:
الشجرة إذا ببتت بنفسها من غير غارس فإنها تورق ولا تثمر. وهو كما
قال.

ويجوز أنها تثمر كالأشجار التي في الأودية والجبال، ولكن لا يكون
لغاصبتها طعم فاكهة البساتين. والغرس إذا نقل من موضع إلى موضع
آخر يكون أحسن حالا وأكثر ثمرًا، لدخول التصرف فيه.
وقد اعتبر الشرع وجود التعليم في الكلب للعلم، وأحل ما يقتله^(١)
بخلاف غير العلم .

وسمعت كثيراً من الشايخ يقولون: من لم ير مفلحاً لا يفلح.

ولما في رسول الله ﷺ أسوة حسنة. وأصحاب رسول الله ﷺ تلقوا العلوم
والآداب من رسول الله ﷺ ، كما روى عن بعض الصحابة « علمنا رسول الله
ﷺ ، كل شيء حتى الخرافة » .

فالريد الصادق إذا دخل تحت حكم الشيخ وصحبه، وتآدب بأدابه،
يسري من باطن الشيخ حال إلى باطن الريد، كسراج يفتبس من سراج،
وكلام الشيخ إلى الريد بواسطة الصحبة وسماع القال، ولا يكون هذا إلا لريد
حصر نفسه مع الشيخ، وانسلخ من لراة نفسه، وفنى في الشيخ بترك اختيار
نفسه، فهالتآلف الإلهي يصير بين الصاحب والصحوب امتزاج وارتباط
بالنسبة الروحية، والظاهرة القطرية، ثم لا يزال الريد مع الشيخ كذلك
متادباً بترك الاختيار، وحتى يرتقي من ترك الاختيار مع الشيخ إلى ترك
الاختيار مع الله تعالى، ويفهم من الله كما كان يفهم من الشيخ.

ومبدأ هذا الخير كله الصحبة والملازمة للشيخ، والخرقة مقدمة ذلك.

(١) أي أحل أكل قبل صيد الكلب للعلم .

ووجه لبس الخرقه من السنة ما أخبرنا الشيخ أبو زرعة عن أبيه
الحافظ أبي الفضل القنسي قال: أنا أبو بكر أحمد بن علي بن خلف الأديب
النيسابوري.

قال: أنا الحاكم أبو عبد الله محمد بن عبد الله الحافظ قال: أنا محمد
بن إسحاق

قال، أنا أبو مسلم إبراهيم بن عبد الله المصري قال: حدثتني أم خالد
بنت خالد قالت « أتى النبي عليه السلام بثياب فيها خميصة سوداء صغيرة
فقال، من ترون أكسو هذه؟ فسكت القوم، فقال رسول الله ﷺ انتوني بأم
خالد، قالت فأتى بي فالبسنيها بهنـه فقال ابلى واخلفي، يقولها مرتين،
وجعل ينظر إلى علم في الخميصة أصفر وأحمر ويقول يا أم خالد هذا سناه،
والسناه هو الحسن بلسان الحبشة.

ولا خفاء أن لبس الخرقه على الهيئة التي يعتمدها الشيوخ في هذا
الزمان لم يكن في زمن رسول الله ﷺ . وهذه الهيئة والاجتماع لها والاعتداد بها
من استحسان الشيوخ، وأصله من الحديث ما روينا . والشاهد لذلك أيضاً
التحكيم الذي ذكرناه. وأي اقتداء برسول الله ﷺ أتم وأكد من الاقتداء به
في دعاء الخلق إلى الحق.

وقد ذكر الله تعالى في كلامه القديم تحكيم الأمة رسول الله ﷺ .

وتحكيم الريد شيخه إحياء سنة ذلك التحكيم. قال الله تعالى: ﴿ فَلَا وَرَيْكَ
لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ
خَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَتَسْلِمُوا تَسْلِيمًا ﴾ ١٩ .

وسبب نزول هذه الآية أن الزبير بن العوام رضي الله عنه اختصم هو
وأخر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في شراج من الحرّة، والشرج مسيل

الماء، كانوا يسقيان به فنخل، فقال النبي عليه السلام للزبير «سقى يا زبير ثم أرسل الماء إلى جارك» فغضب الرجل وقال: قضى رسول الله لابن عمته فانزل الله تعالى هذه الآية يعلم فيه الأديب مع رسول الله ﷺ، وشرط عليهم في الآية التسليم وهو الانقياد ظاهراً، ونفى الحرج، وهو الانقياد بطاناً.

وهذا شرط المريد مع الشيخ مع التحكيم. فلبس الخرقه بزيل اتهام الشيخ عن باطنه في جميع تصاريفه، ويحذر الاعتراض على الشيوخ، فإنه السهم القاتل للمريدين.

وقل أن يكون المريد يعترض على الشيخ قصة موسى مع الخضر عليه السلام، وكيف كان يصبر من الخضر تصاريف ينكرها موسى، ثم لما كشف له عن معناها بأن موسى وجه الصواب في ذلك، فهكذا ينبغي للمريد أن يعلم أن كل تصرف اشكل عليه صحته من الشيخ، عند الشيخ فيه بيان وبرهان للصحة.

ويد الشيخ في لبس الخرقه تنوب عن يد رسول الله ﷺ.

وتسليم المريد له تسليم لله ورسوله. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ﴾ ﴿١٥﴾.

ويأخذ الشيخ على المريد عهد الوفاء بشرائط الخرقه، ويعرفه حقوق الخرقه. فالشيخ للمريد صورة يستشف المريد من وراء هذه الصورة الطالبات الإلهية، والمراضى النبوية، ويعتقد المريد أن الشيخ باب فتحه الله تعالى إلى جناب كرمه، ومنه يدخل، وإليه يرجع، وينزل بالشيخ سوانحه ومهامه الدينية والدنيوية، ويعتقد أن الشيخ ينزل بالله الكريم، ما ينزل للمريد به، ويرجع في ذلك إلى الله للمريد كما يرجع للمريد إليه.

وللشيخ باب مفتوح من المكالة والحادثة في النوم واليقظة، فلا يتصرف الشيخ في المرید بهواه، فهو أمانة لله عنده، ويستغيث إلى الله بحوائج المرید كما يستغيث بحوائج نفسه ومهام دينه ودنياه. قال الله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكَلِمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَآيِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا ﴾ (١)

فارسال الرسول يختص بالأنبياء، والوحي كذلك، والكلام من وراء حجاب بالإلهام والهواتف والنام وغير ذلك للشيخ والراسخين في العلم

واعلم أن للمريدين مع الشيخ لوان ارتضاع وأوان فطام، وقد سبق شرح الولادة المعوية. فأوان الارتضاع ولوان لزوم الصحبة، والشيخ يعلم وقت ذلك، فلا ينبغي للمريد أن يفارق الشيخ إلا بإذنه. قال الله تعالى تأديباً للامة ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا صُكِّتُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ۚ فَإِذَا أَسْتَأْذِنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأُذِنَ لِمَنْ شِئْتَ ﴾ (٢)

واي امر جامع اعظم من امر الدين، فلا ياذن الشيخ للمريد في المارقة إلا بعد علمه بأن أن له أوان الفطام، وأنه يقدر أن يستقل بنفسه، واستقلاله بنفسه أن يفتح له باب الفهم من الله تعالى، فإذا بلغ المرید رتبة إنزال الحوائج والمهام بالله والفهم من الله تعالى بتعريفاته وتنبيهاته سبحانه وتعالى لعبده السائل المحتاج، فقد بلغ أوان فطامه، ومتى فارق قبل أوان الفطام يناله من الإعلال في الطريق بالرجوع إلى الدنيا متابعة الهوى ما ينال المقطوم لغير أوانه في الولادة الطبيعية، وهذا التلازم بصحبة الشايخ للمريد الحقيقي، والمرید الحقيقي يلبس خرقة الإرادة.

واعلم أن الخرقة خرقتان:

(١) سورة الشورى آية: ٥١.

(٢) سورة النور آية: ٦٢.

خرقة الإرادة.

وخرقة التبرك.

والأصل الذي قصده للشيخ للمريدين خرقه الإرادة، وخرقة التبرك تشبه بخرقة الإرادة. فخرقة الإرادة للمريد الحقيقي، وخرقة التبرك للمتشبه، ومن تشبه بقوم فهو منهم.

وسر الخرقه أن الطالب لصادق إذا دخل في صحبة الشيخ، وسلم نفسه، وصار كالولد الصغير مع الوالد، يربيه الشيخ بعلمه المستمد من الله تعالى بصدق الافتقار وحين الاستقامة، ويكون للشيخ بنفوذ بصيرته الإشراف على البواطن، فقد يكون للريد يلبس الخش كتياب للتقشفين المتزهدين وله في تلك الهيئة من اللبوس هوى كامن في نفسه، يرى بعين الزهادة، فأشد ما عليه لبس الناعم. وللنفس هوى واختيار في هيئة مخصوصة من اللبوس في قصر الكم والذيل وطوله، وخشونته ونعومتها، على قدر حسبانها وهواها فيلبس الشيخ مثل هذا الراكن لتلك الهيئة ذوباً يكسر بذلك على نفسه هواها وغرضها .

وقد يكون على الريد ملبوس ناعم أو هيئة في اللبوس تشرب النفس إلى تلك الهيئة بالعادة، فيلبسه الشيخ ما يخرج النفس من عاداتها وهواها فتصرف الشيخ في اللبوس كتصرفه في الطعام، وكتصرفه في صوم الريد وإفطاره، وكتصرفه في أمر دينه إلى ما يرى له من الصلحة من دوام الذكر، ودوام التنفل في الصلاة، ودوام التلاوة، ودوام الخدمة، وكتصرفه فيه برده إلى الكسب أو الفتوح أو غير ذلك. فالشيخ إشراف على البواطن وتنوع الاستعدادات تنوعت مراتب الدعوة قال الله تعالى: ﴿ أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِّ لَهُم بِالنِّبَىٰ هِيَ أَحْسَنُ ﴾ (١٧).

فالحكمة ربة في الدعوة، والوعظة كذلك، والمجادلة كذلك، فمن يدعى بالحكمة لا يدعى بالوعظة، ومن يدعى بالوعظة لا تصلح دعوته بالحكمة. فهكذا الشيخ يعلم من هو على وضع الأبرار، ومن هو على وضع القربين، ومن يصلح لدوام الصلاة، ومن له هوى في التخشن أو في التنعيم، فيخلع للرشد من عائقه، ويخرج من مضيق هوى نفسه، ويطعمه باختياره، ويلبسه باختياره ذوباً يصلح له، وهيئة تصلح له، ويدأوى بالخرقة الخصوصية والهيئة للخصوصية، داء هواه، ويتواخي بذلك تربيته إلى رضا مولاه.

فالرشد الصادق الملتزم باطنه بنار الإرادة في بدء أمره وحنة إرادته، كالسموم الحريص على من يرقبه ويدأويه، فإذا صادف شيخاً انبعت من باطن الشيخ صدق العناية به لا طلاعه عليه، وينبعت من باطن الرشد صدق المحبة بتألف القلوب وتسام الأرواح، وظهور سر السابقة هيهما باجتماعهم لله وفي الله وبالله، فيكون القميص الذي يلبس الرشد خرقة تبشر الرشد بحسن عناية الشيخ به، فيعمل عند الرشد عمل قميص يوسف عند يعقوب عليهما السلام.

وقد نقل أن إبراهيم الخليل عليه السلام أتى بقميص من حرير الجنة وألبسه إياه، وكان ذلك عند إبراهيم عليه السلام ذلك القميص في تعويد وجعله في عنق يوسف، فكان لا يفارقه، لما ألقى في البئر عرياناً جاءه جبريل وكان عليه التعويد، فأخرج القميص منه وألبسه إياه^(١).

أخبرنا الشيخ العالم رضي الدين أحمد بن إسماعيل القزويني إجازة قال: أنا أبو سعد محمد بن أبي العباس قال: أنا القاضي محمد بن سعيد قال: أنا أبو إسحاق أحمد بن محمد قال: أخبرني ابن فتجوية الحسين بن محمد قال:

(١)، (٢) هذه روايات لا سند لها، وكيف البس إبراهيم عليه السلام القميص ليوسف وقد مات قبل أن يولد يوسف.

حدثنا محمد بن جعفر قال: حدثنا الحسن بن علوية قال: حدثنا إسماعيل بن عيسى قال: حدثنا إسحاق بن بشر عن ابن السدي عن أبيه عن مجاهد قال: كان يوسف عليه السلام أعلم بالله تعالى من أن لا يعلم أن قميصه لا يرد على يعقوب بصره، ولكن ذلك كان قميص إبراهيم، وذكر ما ذكرناه. قال: فامرّه جبرائيل أن يرسل بقميصك فإن فيه ريح الجنة، لا يقع على مبتلى أو سقيم إلا صبح وعوفى. فتكون الخرقاة عند التريد الصادق متحملة إليه عرف الجنة لما عنده من الاعتقاد بالصحة لله، ويرى لبس الخرقاة من عناية الله به وفضل من الله. فأما خرقاة التبرك فيطلبها من مقصوده التبرك بزي القوم، ومثل هذا لا يطالب بشرائط الصحة بل يوصى بلزوم حدود الشرع ومخالطة هذه الطائفة ليعود عليه بركاتهم، ويتأدب بأدبهم، فسوف يرقيه ذلك إلى الأهلية لخرقة الإرادة.

فعلى هذا خرقاة التبرك مبنولة لكل طالب، وخرقة الإرادة ممنوعة إلا من الصادق الراضب.

ولبس الأزرق من استحسن الشيوخ في الخرقاة، فإن رأي شيخ أن يلبس مريناً غير الأزرق فليس لأحد أن يعترض عليه، لأن الشايخ أراؤهم فيما يفعلون بحكم الوقت.

وكان شيخنا يقول: كان الفقير يلبس قصير الأكمام ليكون أعون على الخدمة.

ويجوز للشيخ أن يلبس التريد خرقاً في دفعات على قدر ما يتلمح من الصلحة للمريد في ذلك، على ما أسلفناه من تنويع هواه في اللبوس واللون فيختار الأزرق لأنه موفق للفقير، لكونه يحمل الوسخ، ولا يحوج إلى زيادة الغسل لهذا العنى فحسبه وما عنا هذا من الوجوه التي يذكرها بعض المتصوفة في ذلك كلام إقناعي من كلام للتصنعين ليس من الدين والحقيقة بشيء.

سمعت الشيخ سعيد الدين أبا الفخر الهمداني رحمه الله قال: كنت ببغداد عند أبي بكر الشروطي، فخرج إلينا فقير من زاويته عليه ثوب وسع، فقال له بعض الفقهاء: لم لا تغسل ثوبك؟ فقال: يا أخي ما أتفرغ، لأنه كان صادقاً في ذلك، فأجد لذة لقوله وبركة بتذكاري ذلك، فاختاروا اللون لهذا المعنى، لأنهم من رعاية وقتهم في شغل شاغل، وإلا هأى ثوب لبس الشيخ المريد من أبيض وغير ذلك فالشيخ ولاية ذلك بحسن مقصده ووفور علمه. وقد رأينا من الشايخ من لا يلبس الخرقة ويسلك بأقوام من غير لبس الخرقة، ويؤخذ منه العلوم والآداب.

وقد كان طبقة من السلف الصالحين لا يعرفون الخرقة ولا يلبسونها المريدون، فمن يلبسها فله مقصد صحيح وأصل من السنة وشاهد من الشرع، ومن لا يلبسها فله رأيه وله في ذلك مقصد صحيح. وكل تصارييف الشايخ محمولة على السناد والصواب، ولا تحلو عن نية صالحة فيه. والله تعالى ينفع بهم ويأخرهم إن شاء الله تعالى.

الباب الثالث عشر

في فضيلة سكان الرباط

قال الله تعالى: ﴿ فِي بُيُوتٍ أُذِنَ لِلَّهِ أَنْ تَرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا أَسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ حَافِظُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴾ ^(١)

قيل: إن هذه البيوت هي للساجد، وقيل، بيوت المدينة، وقيل، بيوت النبي عليه الصلاة والسلام.

وقيل، لما نزلت هذه الآية قام أبو بكر رضي الله عنه وقال يا رسول الله، هذه البيوت منها بيت علي وفاطمة؟ قال، نعم لفضلها.

وقال الحسن، بقاع الأرض كلها جعلت مسجداً لرسول الله ﷺ.

فعلى هذا الاعتبار بالرجال الناصرين لا بصور البقاع. وأي بقعة حوت رجالاً بهذا الوصف هي البيوت التي لدن الله أن ترفع.

روى أنس بن مالك رضي الله عنه أنه قال، ما من صباح ولا رواح إلا وبقاع الأرض ينادي بعضها بعضاً: هل مر بك اليوم أحد صلى عليك أو ذكر الله عليك؟ فمن قائلة نعم، ومن قائلة لا، فإذا قالت نعم علمت أن لها عليها بذلك فضلاً. وما من عبد ذكر الله تعالى على بقعة من الأرض، أو صلى الله عليها، إلا شهدت له بذلك عند ربه وبكت عليه يوم يموت.

وقيل في قوله تعالى: ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ ﴾ ^(٢) تنبيهه على فضيلة أهل الله تعالى من أهل طاعته، لأن الأرض تبكي عليهم ولا تبكي على من ركن إلى الدنيا واتبع الهوى. فسكان الرباط هم الرجال، لأنهم

(١) سورة النور، الآية ٣٦-٣٧.

(٢) سورة النحل، الآية ٢٩.

ربطوا نفوسهم على طاعة الله تعالى، وانقطعوا إلى الله، فأقام لهم الدنيا خادمة.

روى عمران بن الحصين قال: قال رسول الله ﷺ "من انقطع إلى الله كفاه الله مؤنته ورزقه من حيث لا يحتسب" ومن انقطع إلى الدنيا وكله الله إليها".

وأصل الرباط ما يربط فيه الخيول، ثم قيل لكل نحر ينفع أهله عمن وراءهم رباط، فالجاهد الرباط ينفع عمن وراءه، والقيم في الرباط على طاعة الله ينفع به ويدعائه البلاء عن العباد والبلاد.

أخبرنا الشيخ العالم رضي الدين أبو الخير أحمد بن إسماعيل القزويني إجازة قال: أنا أبو سعيد محمد بن أبي العباس الخليلي قال: أخبرنا القاضي محمد بن سعيد الفراهزلي قال: أنا أبو إسحاق أحمد بن محمد قال: أنا الحسين بن محمد قال: حدثنا أبو بكر بن خزيمة قال: حدثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل قال: حدثني أبو حميد الحمصي قال: حدثنا يحيى بن سعيد القطار قال: حدثنا حفص بن سليمان عن محمد بن سوافه عن وبرة بن عبد الرحمن، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ «إن الله تعالى لينفع بالمسلم الصالح عن مائة من أهل بيته ومن حيرته البلاء».

وروى عنه ﷺ أنه قال: «لولا عباد الله ركع، وصبية رضع، وبهائم رتع، لصب عليكم العنقب صبا، ثم يرض رضاً».

وروى جابر بن عبد الله قال: قال النبي ﷺ «إن الله تعالى ليصلح بصالح الرجل ولده وولد ولده وأهل دويرته ودويرات حوله، ولا يزالون في حفظ الله ما دام فيهم».

وروى داود بن صالح قال: قال لي أبو سلمة بن عبد الرحمن: يا ابن أخي هل تكري في أي شيء نزلت هذه الآية ﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا﴾

وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا...^(١) قلت لا، قال: يا ابن أخي لم يكن يسكن في زمن رسول الله ﷺ غزو يربط فيه الخيل، ولكنه انتظار الصلاة بعد الصلاة. فالرباط لجهاد النفس، والقيم في الرباط مربط مجاهد نفسه. قال الله تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ...﴾^(٢)

قال عبد الله بن المبارك: هو مجاهدة النفس والهوى، وذلك حق الجهاد، وهو الجهاد الأكبر على ما روى في الخبر أن رسول الله ﷺ قال حين رجع من بعض غزواته «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر».

وقيل إن بعض الصالحين كتب إلى أخ له يستدعيه إلى الغزو، فكتب إليه: يا أخي بكل الثغور مجتمعة لي في بيت واحد، والباب على مردود. فكتب إليه أخوه، لو كان الناس كلهم لزموا ما لزمته اختلت أمور المسلمين وغلب الكفار، فلا بد من الغزو والجهاد. فكتب إليه: يا أخي لو لزم الناس ما أنا عليه وقالوا في زواياهم على سجادتهم، لله أكبر أنهدم سور قسطنطينية.^(٣)

وقال بعض الحكماء، ارتفاع الأصوات في بيوت العبادات بحسن النيات على الوجه الموضوع له الربط وتحقق أهل الربط بحسن المعاملة ورعاية الأوقات، وتوقي ما يفسد الأعمال، واعتماد ما يصحح الأحوال، عادت البركة على البلاد والعباد.

قال سري السقطي في قوله تعالى: ﴿أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا﴾: اصبروا عن الدنيا رجاء السلامة، وصابروا عند القتال بالثبات والاستقامة،

(١) سورة آل عمران: الآية ٢٠٠.

(٢) سورة الحج: الآية ٧٨.

(٣) لا بد من الاحتياط بالأسباب، والانضمام إلى جند المسلمين والجهاد في سبيل الله سبب في النصر على الأعداء لقوله تعالى: ﴿وَأَعِدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِمُ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [سورة الأنفال: آية ٦٠]

ورابطوا أهواء النفس اللوامة، وانتقوا ما يعقب لكم الندامة، لعلكم تملحون
غداً على بساط الكرامة.

وقيل، اصبروا على بلاني، وصابروا على نعماتي، رابطوا في دار أعدائي،
وانتقوا محبة من سوائي، لعلكم تملحون غداً بلقائي.

وهذه شرائط ساكن الرباط، قطع العاملة مع الخلق، وفتح العاملة مع
الحق، وترك الاكتساب^(١) اكتفاء بكفالة مسبب الأسباب، وحبس النفس
عن المخلطات واجتناب التبعات، وعانق ليله ونهاره العبادة، متعوضاً بها عن
كل عادة، شغله حفظ الأوقات، وملازمة الأوراد، وانتظار الصلوات،
 واجتناب الغفلات، ليكون بذلك مرتبطاً مجاهداً.

حدثنا شيخنا أبو النجيب السهروردي قال أنا ابن نيهان محمد الكاتب
قال، أنا الحسن بن شاذان قال، أنا دعلج قال، أنا البخوي، عن أبي عبيد القاسم
ابن سلام قال، حدثنا صفوان عن الحارث عن سعيد بن المسيب، عن علي بن
أبي طالب رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ، «إسباغ الوضوء في الكاره،
وأعمال الأقدام إلى الساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، يغسل الخطايا
شملاً».

وفي رواية، «ألا خير لكم بما يمحو الله به الخطايا وترفع به الدرجات؟
قالوا بلى يا رسول الله، قال، إسباغ الوضوء في الكاره، وكثرة الخطا إلى
الساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرباط، فذلكم الرباط».

(١) من السنة أن يأكل الرجل من عمل يده لأن نبي الله ﷺ كان يأكل من عمل يده كما
جاء في الحديث الشريف.

الباب الرابع عشر في مشابهة أهل الرباط بأهل الصفة

قال الله تعالى: ﴿لَمَسْجِدٌ أُيُسِّى عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُخْبِتُونَ أَنْ يَتَّخِطُّوا وَاللَّهُ خَبِيرٌ الْمُطَهَّرِينَ﴾^(١).

هذا وصف أصحاب رسول الله ﷺ قيل لهم: ماذا كنتم تصنعون حتى اثنى الله عليكم بهذا الثناء؟ قالوا: كنا نتبع لواء الحجة.

وهذا وأشبه هذا من أدب وظيفه صوفية الربط، بالآزمونه ويتأهونه. والرباط بهتهم ومضربهم، ولكل قوم دار، والرباط دارهم.

وقد شابهوا أهل الصفة في ذلك على ما أخبرنا أبو زرعة عن أبيه الحافظ للقدس قال: أنا أحمد بن محمد البرزقي قال: أنا عيسى بن علي الوزير قال: حدثنا عبد الله البغوي قال: حدثنا وهبان بن بقية قال: حدثنا خالد بن عبد الله عن داود ابن أبي هند عن أبي العارث حرب بن أبي الأسود، عن طلحة رضي الله عنه قال: كان الرجل إذا قدم المدينة وكان له بها عريف ينزل على عريفه، فإن لم يكن له بها عريف نزل الصفة، وكانت فيمن نزل الصفة. فالقوم في الرباط مرابطون، متفقون على قصد واحد، وعزم واحد، وأحوال متناسبة.

ووضع الربط لهذا المعنى أن يكون سكانها بوصف ما قال الله تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾^(٢) والمقابلة باستواء السر والعلانية، ومن أضمر لأخيه عملاً فليس بمقابلة وإن كان وجهه إليه.

(١) سورة التوبة، الآية ١٠٨

(٢) سورة الحجر، الآية ٢٧

فأهل الصفة هكذا كانوا، لأن مشار الغل والحقد وجود الدنيا، وحب الدنيا رأس كل خطيئة.

فأهل الصفة رفضوا الدنيا، وسكانوا لا يرجعون إلى زرع ولا إلى ضرع، فزالَت الأحقاد والغل عن بواطنهم، وهكذا أهل الربط، متقابلون بطواهرهم وبواطنهم، مجتمعون على الألفة والودّة، مجتمعون للكلام، ويجتمعون للطعام، ويتعرفون ببركة الاجتماع.

روى وحشي بن حرب عن أبيه عن جده أنهم قالوا يا رسول الله إنا نأكل ولا نشبع، قال «لعلكم تفرقون على طعامكم، اجتمعوا واذكروا الله تعالى ببارك لكم فيه».

وروى أنس بن مالك رضي الله عنه قال، ما أكل رسول الله ﷺ على خوان ولا في سكرجة ولا خبز له مرقق، فليل، فعلى أي شيء كانوا يأكلون؟ قال، على السفر.

فالعباد والزهاد طلبوا الانفراد لدخول الآفات عليهم بالاجتماع، ويكون نفوسهم معتلق للأهوية والخوض بما لا يعنى، فראوا السلامة في الوحدة.

والمصوفية لقوة عملهم، وصحة حالهم، نزع عنهم ذلك، فראوا الاجتماع في بيوت الجماعة على السجادة. فسجادة كل واحد زاويته، وهم كل واحد مهمة، ولعل الواحد منهم لا يتخطى همه سجادته، ولهم في اتخاذ السجادة وجه من السنة.

روى أبو سلمة بن عبد الرحمن عن عائشة رضي الله عنها قالت: كنت أجعل لرسول الله ﷺ حصيراً من ليف يصلى عليه من الليل.

وروت ميمونة زوجة رسول الله ﷺ قالت: كان رسول الله ﷺ تبسط له الحمرة في المسجد حتى يصلى عليها.

والرباط يحتوي على شبان وشيوخ وأصحاب خدمة وأرباب خلوة.

فالشايخ بالزوايا اليق نظرا إلى ما تدعو إليه النفس من النوم والراحة، والاستبدال بالحركات والسكنات، فالنفس شوق إلى التفرد والاسترسال في وجوه الرفق، والشاب يضيق عليه مجال النفس بالقعود في بيت الجماعة، والانكشاف لنظر الأغيار، لتكثر العيون عليه، فيتقيد ويتأدب ولا يكون هذا إلا إذا كان جمع الرباط في بيت الجماعة مهتمين بحفظ الأوقات، وضبط الأنفاس، وحراسة الحواس، كما كان أصحاب رسول الله ﷺ لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه. كان عندهم من هم الآخرة ما يشغلهم عن اشتغال البعض بالبعض، وهكذا ينبغي لأهل الصلوة والصوفاة أن يكون اجتماعهم غير مضر بوقتهم، فإذا تخلل أوقات الشبان اللغو واللعب، فالأولى أن يلزم الشاب الطالب الوحدة والعزلة، ويؤثر الشيخ الشاب بزوايته وموضع خلوته، ليجلس الشاب نفسه عن دواعي الهوى والخوض فيما لا يعني، ويكون الشيخ في بيت الجماعة لقوة حاله وصبره على مداراة الناس، وتخلصه من تبعات المخالطة وحضور وقاره بين الجمع، فينصبط به الغير، ولا يتكرر هو.

وأما الخدمة الشأن من دخل الرباط مبتدئا، ولم يثق طعم العاملة، ولم يتنبه لنفائس الأحوال أن يؤمر بالخدمة، لتكون عبادته خدمته، ويجانب بحسن الخدمة قلوب أهل الله إليه، فتشمله بركة ذلك ويمين الإخوان المشتغلين بالعبادة.

قال رسول الله ﷺ: «لؤمنون أخوة، يطلب بعضهم إلى بعض الحوائج، فيقضي بعضهم إلى بعض الحوائج، يقضي الله لهم حاجاتهم يوم القيامة».

فيحتفظ بالخدمة عن البطالة التي تميت القلب والخدمة عند القوم من جملة العمل الصالح، وهي طريق من طرق اللواجيد، تكسيهم الأوصاف الجميلة، والأحوال الحسنة، ولا يرون استخدام من ليس من جنسهم، ولا متطلعا إلى الاهتداء بهديهم.

أخبرنا الشيخ الثقة أبو الفتح قال: أنا أبو الفضل حميد بن أحمد قال: أنا
الحافظ أبو نعيم قال: حدثنا سليمان بن أحمد قال: حدثنا علي بن عبد
العزیز قال: حدثنا أبو عبيد قال: حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، عن
شريك، عن أبي هلال الطائي، عن وثيق بن الروهي قال: كنت ممنوعاً
لعمر بن الخطاب رضي الله عنه فكان يقول لي: أسلم هاتك إن أسلمت
استعنت بك على أمانة المسلمين، فإنه لا ينبغي أن استعين على أماناتهم بمن
ليس منهم. قال فأبيت. قال عمر، لا إكراه في الدين. فلما حضرته الوفاة
أعتقني فقال: اذهب حيث شئت.

فالقوم يكرهون خدمة الأغيار، ويأبون مخالطتهم، فإن من لا يحب
طريقهم ربما استنصر بالنظر إليهم أكثر مما ينتفع، فإنهم بشر وتبدو
منهم أمور بمقتضى طبع البشر وينكرها الغير لقلة علمه بمقاصدهم،
فيكون إباؤهم لموضع الشفقة على الخلق لا من طريق التعزز والترفع على
أحد من المسلمين.

والشباب الطالب إذا خدم أهل الله للشفولين بطاعته، يشاركهم في
الثواب، وحيث لم يؤهل لأحوالهم السنية، يخدم من أهل لها، فخدمته لأهل
القرب علامة حب الله تعالى.

أخبرنا الثقة أبو الفتح محمد بن سليمان قال: أنا أبو الفضل حميد بن
أحمد قال: أنا الحافظ أبو نعيم قال: حدثنا أبو بكر بن خلاد قال: حدثنا
الحارث ابن أبي أسامة قال: حدثنا معاوية بن عمرو قال: حدثنا أبو اسحاق
عن حميد عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: - لا أنصرف رسول الله ﷺ
من تبوك قال حين دنا من المدينة: «إن بالمدينة أقواماً ما سرتهم من مسير،
ولا قطعتم ولاياً، إلا كانوا معكم، قالوا: وهم في المدينة؟ قال: نعم حبسهم
العذر».

فالقائم بخدمة القوم، تعوق عن بلوغ درجتهم بمنزلة القصور وعدم
الأهلية، فحام حو الحمى باذلاً مجهوده في الخدمة، يتعلل بالأثر حيث منع
التنظر، فجزاء الله على ذلك أحسن الجزاء، ولنا له من جزيل العطاء، وهكذا
كان أهل الصفة يتعاونون على البر والتقوى، ويجتمعون على الصالح
الدينية ومواساة الإخوان بالمال والبدن.

الباب الخامس عشر في خصائص أهل الربط والرقبة فيما يتعاهدون ويختصون به

اعلم أن تأسيس هذه الربط من زينة هذه اللذة الهادية المهيبة ولسكان الربط أحوال تميزوا بها عن غيرهم من الطوائف، وهم على هدى من ربهم.
قال الله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَّ نُهُمْ أَفْتَدِيَةٌ﴾^(١)

وما يرى من التقصير في حق البعض من أهل زماننا، والتخلف عن طريق سلفهم، لا يقدح في أصل أمرهم وصحة طريقهم. وهذا القدر الباقي من الأثر، واجتماع التصوفة في الربط، وما هيا الله تعالى لهم من الرقي، ببركة جمعية بواطن الشايخ الناصين وأثر من آثار منح الحق في حقهم.

وصورة الاجتماع في الربط الآن على طاعة الله والرسم بظاهر الأدب، عكس نور الجمعية من بواطن الناصين، وسلوك الخلف في مناهج السلف، فهم في الربط كجسد واحد بقلوب متفقة، وعزائم متحدة، ولا يوجد هذا في غيرهم من الطوائف. قال الله تعالى في وصف المؤمنين ﴿... كَأَنَّهُمْ بِنَانٌ مُّزْجُوجٌ﴾^(٢)، وبالعكس ذلك وصف الأعداء فقال ﴿... تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى﴾^(٣).

روى النعمان بن بشير قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنما المؤمنون كجسد رجل واحد إذا اشتكى عضو من أعضائه اشتكى جسده أجمع، وإذا اشتكى مؤمن من المؤمنين اشتكى المؤمنون».

(١) سورة الأنعام: الآية ٩٠.

(٢) سورة الصف: الآية ٤.

(٣) سورة الحشر: الآية ١٤.

فالصوفية وظيفتهم اللازمة من حفظ اجتماع البواطن، وإزالة التفرقة بإزالة شعث البواطن، لأنهم بنسبة الأرواح اجتمعوا، وبرابطة التأليف الإلهي اتفقوا، وبمشاهدة القلوب تواطوا، ولتهذيب النفوس وتصفية القلوب في الرباط رابطوا، فلا بد لهم من التألف والتودد والنصح.

روى أبو هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «لؤمن يألف ويؤلف، ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف».

أخبرنا أبو زرعة طاهر بن الحافظ أبي الفضل القلبي عن أبيه قال، حدثنا أبو القاسم الفضل بن أبي حرب قال، أنا أحمد بن الحسين الحريري قال، أنا أبو سهل بن زياد القطان قال، حدثنا الحسين بن مكرم قال، حدثنا يزيد ابن هارون الواسطي قال، حدثنا محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال، قال رسول الله ﷺ، «الأرواح جنود مجنونة، فما تعارفت منها انتلفت، وما تناكرت منها اختلف».

فهم باجتماعهم تجتمع بواطنهم، وتتقيد نفوسهم، لأن بعضهم عين على البعض، على ما ورد، «لؤمن مرآة المؤمن» فأى وقت ظهر من أحدهم أثر التفرقة لاقروه، لأن التفرقة تظهر بظهور النفس، وظهور النفس من حق تضيق الوقت. فأى وقت ظهرت نفس الفقير علموا منه خروجه عن دائرة الجمعية، وحكموا عليه بتضييع حكم الوقت وإهمال السياسة وحسن الرعاية فيقاد بالنافرة إلى دائرة الجمعية.

أخبرنا شيخنا ضياء الدين أبو النجيب عبد القاهر السهروردي بإجارة قال، أنا الشيخ العالم عصام الدين أبو حفص عمر بن أحمد بن منصور الصفار قال، أنا أبو بكر أحمد بن خلف الشيرازي قال، أنا الشيخ أبو عبد الرحمن محمد بن الحسين السلمي قال، سمعت محمد بن عبد الله يقول: سمعت رويماً يقول: لا يزال الصوفية بخير ما تنافروا، فإذا اصطالحوا هلكوا.

وهذه إشارة من رويم إلى حسن تفقد بعضهم أحوال بعض إشفاقاً من ظهور النفوس. يقول إذا اصطالحوا أو رفعوا المناقرة من بينهم يخاف أن تخامر البواطن الساهلة للراة، ومسامحة البعض البعض في إهمال دقيق آدابهم وبذلك تظهر النفوس وتستولي. وقد كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: رحم الله امرأ أهدي إلى عيوبى.

وأخبرنا أبو زرعة عن أبيه الحافظ للقدس قال: أنا أبو عبد الله محمد بن عبد العزيز الهروي قال: أنا عبد الرحمن بن أبي شريح قال: أنا أبو القاسم البغوي قال: حدثنا مصعب بن عبد الله الزبيري قال: حدثني إبراهيم بن سعد عن صالح عن بن شهاب أن محمد بن نعمان أخبر بأن عمر قال في مجلس فيه المهاجرون والأنصار: أرايتم لو ترخصت في بعض الأمور ماذا كنتم فاعلين؟ قال: فسكتنا. قال: فقال ذلك مرتين أو ثلاثاً أرايتم لو ترخصت في بعض الأمور ماذا كنتم فاعلين؟ قال بشر بن سعد: لو فعلت ذلك قومناك تقويم القدح. فقال عمر: انتم إذن انتم.

وإذا ظهرت نفس الصوفي بغضب وخصومة مع بعض الإخوان، فشرط أخيه أن يقابل نفسه بالقلب، فإن النفس إذا قوبلت بالقلب انحسرت مادة الشر، وإذا قوبلت النفس بالنفس ثارت الفتنة، وذهبت العصمة. قال الله تعالى: ﴿...أَذْفَعُ بِالنِّفَى أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا﴾^(١).

ثم الشيخ أو الخادم إذا شكأ إليه فقير من أخيه فله أن يعاتب أيهما شاء، فيقول للمعتدي لم تعديت ولمعتد عليه ما الذي لاختبت حتى تعدى عليك، وهلا قابلت نفسك بالقلب رفقا بأخيك وإعطاء للفتوة والصعوبة حقها. فكل منهما جان وخارج عن دائرة الجمعية، فيرد إلى الدائرة بالنقار، فيعود إلى الاستغمار، ولا يسلك طريق الإصرار.

روت عائشة رضي الله عنها قالت كان رسول الله ﷺ يقول: «اللهم اجعلني من الذين إذا أحسنوا استبشروا، وإذا أسأوا استغفروا»

فيكون الاستغفار طاهراً مع الإخوان، وباطناً مع الله تعالى، ويرون الله في استغفارهم. فهذا المعنى يقفون في صف النعال على أقدامهم تواضعاً وانكساراً.

وسمعت شيخنا يقول للمقير إذا جرى بينه وبين بعض إخوانه وحشة قم واستغفر، فيقول الفقير ما أرى باطني صافياً ولا أودر القيام للاستغفار ظاهراً من غير صفاء الباطن، فيقول للآخر أنت قم فبركة سميت وقيامك ترزق الصفاء، فكان يجد ذلك، ويرى أثره عند الفقير، وترق القلوب وترتفع الوحشة. وهذا من خاصية هذه الطائفة، لا يبيتون والبواطن منطوية على وحشة، ولا يجتمعون للطعام والبواطن تصمر وحشة، ولا يرون الاجتماع ظاهراً في شيء من أمورهم إلا بعد الاجتماع بالبواطن وذهاب التفرقة والشعث، فإذا قام المقير للاستغفار لا يجوز رد استغفاره بحال.

روى عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ قال: «ارحموا ترحموا واغفروا يغفر لكم».

والمصوافية في تقبيل يد الشيخ بعد الاستغفار أصل من السنة.

روى عبد الله بن عمر قال: كنت في سرية من سرايا رسول الله ﷺ. فحاص الناس حيصة فكنت فيمن حاص، فقلنا كيف نصنع وقد فررنا من الزحف وبؤنا بالغضب، ثم قلنا لو دخلنا للدجنة فتبنا فيها، ثم قلنا لو عرضنا أنفسنا على رسول الله ﷺ، فإن كان لنا توبة وإلا ذهبنا، فأتيناه قبل صلاة الغداة فخرج فقال: من القوم؟ قلنا: نحن الفرارون، قال: لا بل أنتم العكارون أنا فنتكم أنا فئة المسلمين، يقال عكر الرجل إذا تولى ثم كر راجعاً

والعكار العطاف والرجاع. قال: فأتيناها حتى قبلنا يده. وروى أن أبا عبيدة ابن الجراح قبل يد عمر عند قدومه.

وروى عن أبي مرشد الغنوي أنه قال: أتينا رسول الله ﷺ فنزلت إليه وقبلت يده. فهذا رخصة في جواز تقبيل اليد. ولكن أدب الصوفي أنه متى رأى نفسه تتعزز بذلك أو تظهر بوصفها أن يمتنع من ذلك، فإن سلم من ذلك فلا بأس بتقبيل اليد، ومعانفتهم للإخوان عقيب الاستغفار لرجوعهم إلى الألفة بعد الوحشة، وقدموهم من سفر الهجرة بالترقية إلى أوطان الجمعية، فمظهروا النفس تغربوا وبعثوا، وبغيبة النفس والاستغفار قدموا وراجعوا. ومن استغفر إلى أخيه ولم يقبله فقد أخطأ، فقد ورد عن رسول الله ﷺ في ذلك وعيد. روى عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: «من اعتذر إليه أخوه معذرة فلم يقبلها كان عليه مثل خطيئة صاحب الكوس».

وروى جابر أيضاً عن رسول الله ﷺ: «من تنصل إليه فلم يقبل لم يرد الحوض».

ومن السنة أن يقدم للإخوان شيئاً بعد الاستغفار. روى أن مكعب بن مالك قال للنبي ﷺ: إن من توبتي أن أخلع من مالي كله، وأهجر دار قومي التي فيها أتيت الذنب، فقال له النبي ﷺ: «يجزيك من ذلك الثلث».

انصارت سنة الصوفية المطالبة بالغرامة بعد الاستغفار والمأخرة، وكل قصدهم رعاية التألف حتى يكون بواطنهم على الاجتماع، كما أن ظواهرهم على الاجتماع، وهذا أمر تفردوا به من بين طوائف الإسلام.

ثم شرط الفقير الصادق إذا سكن الرباط وأراد أن يأكل من وقفه أو مما يطلب لسكانه بالدروزة، أن يكون عنده من الشغل بالله ما لا يسعه الكسب، وإلا إذا كان للبطالة والخوض فيما لا يعنى عنده مجال، ولا يقوم بشروط أهل الإرادة من الجسد والاجتهاد، فلا ينبغي له أن يأكل من مال

الرباط، بل يكتسب ويأكل من مكسبه، لأن طعام الرباط لأقوام كمل شغلهم بالله، فخدمتهم النخبا لشغلهم بخدمة مولاهم، إلا أن يكون تحت سياسة شيخ عالم بالطريق، ينتفع بصحبته، ويهتدى بهديه، فيرى الشيخ أن بطلمه من مال الرباط، فلا يكون تصرف الشيخ إلا بصحة بصيرة.

ومن جملة ما يكون للشيخ في ذلك من النية أن يشغله بخدمة الفقراء، فيكون ما يأكله في مقابلة خدمته.

روى عن أبي عمرو الزحاجي قال، أقمت عند الجنيد مدة فما رآني قط إلا وأنا مشغول بنوع من العبادة، فما تكلمني، حتى كان يوم من الأيام خلا للوضع من الجماعة، فقامت ونزعت ثيابي وكنست الوضع ونظفته ورششته وغسلت موضع الطهارة، فرجع الشيخ ورأى على أثر الغبار، فدعا لي ورحب بي وقال، أحسنت، عليك بها ثلاث مرات. ولا يزال مشايخ الصوفية يندبون الشباب إلى الخدمة حفظاً لهم عن البطالة، وكل واحد يكون له حظ من المعاملة وحظ من الخدمة.

روى أبو محذورة قال، جعل رسول الله ﷺ لنا الأذان، والسقاية لبني هاشم، والحجابة لبني عبد المطلب.

وبهذا يقتدي مشايخ الصوفية في تفريق الخدم على الفقراء، ولا يحذر في ترك نوع من الخدمة إلا كامل الشغل بوقته، ولا يعني بكامل الشغل شغل الجوارح، ولكن يعني به دوام الرعاية والحاسبة، والشغل بالقلب والقالب وقتاً، وبالقلب دون القالب وقتاً، وتفقد الزيادة من نقصان، فإن قيام الفقير بحقوق الوقت شغل تام، وبذلك يؤدي شكر نعمة الفراغ ونعمة الكفاية، وفي البطالة كفران نعمة الفراغ والكفاية.

أخبرنا شيخنا ضياء الدين أبو النجيب عبد القاهر إجازة قال: أنا عمر ابن أحمد بن منصور قال: أنا أحمد بن خلف قال: أنا الشيخ أبو عبد الرحمن

محمد بن الحسين قال: سمعت ابا الفضل بن حمدون يقول: سمعت علي بن عبد الحميد المصائري يقول: سمعت السري يقول: من لا يعرف قدر النعم سلبها من حيث لا يعلم.

وقد يعذر الشيخ العاجز عن الكسب في تناول طعام الرباط، ولا يعذر الشاب. هذا في شرط طريق القوم على الإطلاق، فاما من حيث فتوى الشرع فإن كان شرط الوقف على التصوفة وعلى من تزيا بزي التصوفة وعلى خرقتهم فيجوز اكل ذلك لهم على إطلاق الفتوى، وفي ذلك القناعة بالرخصة دون العزيمة التي هي شغل لاهل الإرادة، وإن كان شرط الوقف على من يسلك طريق الصوفية عملاً وحالاً فلا يجوز اكله لاهل البطالات والراكنين إلى تضييع الأوقات، وطرق لاهل الإرادة عند مشايخ الصوفية مشهورة.

أخبرنا الشيخ الثقة أبو الفتح قال: أنا أبو الفضل حميد قال: أنا الحافظ أبو نعيم قال: حدثنا أبو العباس أحمد بن محمد بن يوسف قال: حدثنا جعفر الفرياني قال: حدثنا محمد بن الحسين الباهلي بسمرقند قال: حدثنا عبد الله بن المبارك قال: حدثنا سعيد بن أبي أيوب الخزازي قال: حدثنا عبد الله بن الوليد عن أبي سليمان الليثي عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ أنه قال: «مثل المؤمن كمثل الفرس في أخيته، يجول ويرجع إلى أخيته، وإن المؤمن يسهو ثم يرجع إلى الإيمان، فأطعموا طعامكم الأتقياء، وأولوا معروفكم المؤمنين».

الباب السادس عشر في ذكر اختلاف أحوال مشايخهم في السفر والمقام

اختلف أحوال مشايخ الصوفية، فمنهم من سافر في بدايته وأقام في نهايته، ومنهم من قام في بدايته وسافر في نهايته، ومنهم من أقام ولم يسافر، ومنهم من استدام السفر ولم يؤثر الإقامة.

ونشرح حال كل واحد منهم ومقصده فيما رام.

فأما الذي سافر في بدايته وأقام في نهايته فقصده بالسفر ليعان منها تعلم شيء من العلم. قال رسول الله ﷺ: «اطلبوا العلم ولو بالصين».

وقال بعضهم: لو سافر رجل من الشام إلى أقصى اليمن في كلمة تدله على هدي ما كان سفره ضائعاً.

ونقل أن جابر بن عبد الله رحل من المدينة إلى مصر في شهر لحدث بلغه أن أنساً يحدث به عن رسول الله ﷺ.

وقد قال عليه السلام: «من خرج من بيته في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع».

وقيل في تفسير قوله تعالى: (السائقون) إنهم طلاب العلم.

حدثنا شيخنا ضياء الدين أبو الفجيب السهروردي إملاء قال: أنا أبو الفتح عبد الملك الهروي قال: أنا أبو نصر التريافي قال: أنا الجراحي قال: أنا أبو العباس النحوي قال: أنا أبو عيسى الترمذي قال: حدثنا وكيع قال: حدثنا أبو داود عن سفيان عن أبي هارون قال: كنا نأتي أبا سعيد فيقول

مرحباً بوصية رسول الله ﷺ إن النبي عليه السلام قال: «إن الناس لكم تبع، وإن الرجال ياتونكم من أقطار الأرض يتفقهون في الدين، فإذا أتوكم فاستوصوا بهم خيراً».

وقال عليه السلام: «طلب العلم فريضة على كل مسلم».

وروت عائشة رضي الله عنها قالت سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله تعالى أوحى إلى أنه من سلك مسلكاً في طلب العلم سهلت له طريقاً إلى الجنة».

ومن جملة مقاصدهم في الهداية لقاء الشايخ والإخوان الصادقين. فللمريد بلقاء كل صادق مزيد، وقد ينفعه لحظ الرجال كما ينفعه لفظ الرجال.

وقد قيل، من لا ينفعك لحظة^(١) لا ينفعك لفظه.

وهذا القول فيه وجهان، أحدهما، أن الرجل الصديق بكلم الصادقين بلسان فعله أكثر ما يكلم بلسان قوله، فإذا نظر الصادق إلى تصاريفه في مورده ومصدره، وخلوته وجلوته، وكلامه وسكوته، ينتفع بالنظر إليه، فهو نفع اللحظ، ومن لا يكون حاله وأفعاله هكذا فلفظه أيضاً لا ينفع لأنه يتكلم بهواه. ونورانية القول على قدر نورانية القلب، ونورانية القلب بحسب الاستقامة والقيام بواجب حق العبودية وحقيقتها.

والوجه الثاني، أن نظر العلماء الراسخين في العلم والرجال البالغين ترياق نافع، ينظر أحدهم إلى الرجل الصادق فيستكشف بنفود بصيرته حسن استعلاء الصادق واستنهاله لوهب الله تعالى الخاصة، فيقع في قلبه محبة الصادق من التريدين، وينظر إليه نظر محبة عن بصيرة، وهم من جنود الله تعالى، فيكسبون بنظرهم أحوالاً سنية ويهيون آثاراً مرضية.

(١) أي أن يكون فلوحة حسنة، فمن خالف قوله فعله لا ينفع غيره ولا يؤخذ عنه.

وماذا ينكر النكر من قدرة الله أن الله سبحانه وتعالى كما جعل في بعض الأفاعي من الخاصية أنه إذا نظر إلى إنسان يهلكه بنظره، أن يجعل في نظر بعض خواص عباده أنه إذا نظر إلى طالب صادق يكسبه حالاً وحياة.

وقد كان شيخنا رحمه الله يطوف في مسجد الخيف بمنى ويتصفح وجوه الناس، فيقول له في ذلك فقال: لله عباد إذا نظروا إلى الشخص أكسبوه سعادة، فأنا أطلب ذلك.

ومن جملة المقاصد في السفر ابتداء قطع اللوات، والانسلاخ من ركوب النفس إلى معهود ومعلوم، والتعامل على النفس بتجرع مرارة فرفة الإلاف والخلان، والأهل والأوطان، فمن صبر على تلك اللوات محتسباً عند الله أجراً فقد حاز فضلاً عظيماً.

أخبرنا أبو زرعة بن أبي الفضل الحافظ للقدس عن أبيه قال، أنا القاضي أبو منصور محمد بن أحمد الفقيه الأصفهاني قال، أنا أبو اسحاق إبراهيم بن عبد الله بن خريشيد قال، حدثنا أبو بكر عبد الله بن محمد بن زيادة النيسابوري قال، حدثنا يونس بن عبد الله الأعلى قال، حدثنا أبو وهب قال، حدثني يحيى بن عبد الله عن أبي عبد الله الرحمن عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال، مات رجل بالمدينة ممن ولد بها، فمضى عليه رسول الله ﷺ قال، «لبيته مات بغير مولده» قالوا، ولم ذاك يا رسول الله؟ قال، «إن الرجل إذا مات بغير مولده قيس له من مولده إلى منقطع أثره من الجنة».

ومن جملة المقاصد في السفر استكشاف دقائق النفوس، واستخراج رعوناتها ودعاويها، لأنها لا تكاد تتبين حقائق ذلك بغير السفر. وسمى السفر سفراً لأنه يسفر عن الأخلاق، وإذا وقف على ذاته يتشمر لنوائه.

وقد يكون أثر السفر في نفس البتدي كآثر التواضع من الصلاة والصوم والتهجد وغير ذلك، وذلك أن التنفل سائح سائر إلى الله تعالى من أوطان

الخفلات إلى محل القربانة والسافر بقطع المسافات، ويتقلب في المساويز والقلوات، بحسن النية لله تعالى، سائراً إلى الله تعالى، بمراغمة الهوى، ومهاجرة ملاذ الدنيا.

أخبرنا شيخنا إجازة قال: أنا عمر بن أحمد قال: أنا أحمد بن محمد بن حلف قال: أنا أبو عبد الرحمن السلمي قال: سمعت عبد الواحد بن بكر يقول: سمعت علي بن عبد الرحيم يقول: سمعت النوري يقول: التصوف ترك لكل حظ النفس.

فإذا سافر للبتدي تاركاً حظ النفس، تطمئن النفس وتلين كما تلين بدوام النافلة، ويكون لها بالسفر دباغ يذهب عنها الخشونة والهبوسة الجليلة، والعفونة الطبيعية، كالجلد يعود من هيئة الجلود إلى هيئة الثياب، فتعود النفس من طبيعة الطحيان إلى طبيعة الإيمان.

ومن جملة المقاصد في السفر رؤية الأنار والعر، وتسريح النظر في مساح الفرج، ومطالعة أجزاء الأرض والجبال، ومواظبة أقدام الرجال، واستماع التسبيح من ذرات الجمادات، والفهم من لسان حال القطع المتجاوزات، فقد تتجدد اليقظة بتجدد مستودع العبر والآيات، وتتوفر بمطالعة المشاهد والواقف الشواهد والدلالات. قال الله تعالى: ﴿سُئِلَ عَنْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ (١).

وقد كان السري يقول للصوفية: إذا خرج الشتاء ودخل أذار وأورفت الأشجار طالب الانتشار.

ومن جملة المقاصد بالسفر إثارة الخمول، وإطراح حظ القبول، والصدق الصادق يتم على أحسن الحال، ويرزق من الخلق حسن الإقبال، وقاما يكون صادق متمسك بعروة الإخلاص وقلب عامر إلا ويرزق إقبال الخلق حتى

سمعت بعض المشايخ يحكي عن بعضهم أنه قال: أريد إقبال الخلق على لا أني أبلغ نفسي حظها من الهوى فإني لا أبالي لقبولوا أو لدبروا.

ولكن لكون إقبال الخلق علامة تدل على صحة الحال، فإذا ابتلى المرء بذلك لا يأمن نفسه أن تدخل عليه بطريق الركون إلى الخلق، وربما يفتح عليه باب من الرفق، وتدخل النفس عليه من طريق البر والدخول في الأسباب المحمودة، وتريه فيه وجه الصلحة والفضيلة في خدمة عباد الله وبذل الوجود، ولا تزال النفس به والشيطان حتى يجراه إلى السكون إلى الأسباب، واستجلاء قبول الخلق، وربما قويا عليه هجره إلى التصنع والتعمل ويتسع الفرق على الرابع.

وسمعت أن بعض الصالحين قال لمرء له، أنت الآن وصلت إلى مقام لا يدخل عليك الشيطان من طريق الشر، ولكن يدخل عليك من طريق الخير.

وهذا منزلة عظيمة للأقدام، فإنه تعالى يدرك الصادق إذا ابتلى بشيء من ذلك، ويزعجه بالعناية السابقة، والعونة اللاحقة إلى السفر، فيفارق المعارف والموضع الذي فتح عليه هذا الباب فيه، ويتجرد لله تعالى بالخروج إلى السفر، وهذا من أحسن المقاصد في الأسفار للصادقين.

فهذه جمل المقاصد المطلوبة للمشايخ في بداياتهم، ما عدا الحج، والفرو، وزيارة بيت القدس.

وقد نقل أن ابن عمر خرج من المدينة قاصداً إلى بيت القدس، وصلى فيه الصلوات الخمس، ثم أسرع راجعاً إلى المدينة من العدة.

ثم إذ من الله على الصادق بأحكام أمور بلدياته، قلبه في الأسفار ومنحه الحظ من الاعتبار، وأخذ نصيبه من العلم قدر حاجته، واستفاد من مجاورة الصالحين، وانتقش في قلبه فوائد النظر إلى حال التقين، وتعطر باطنه باستنشاق عارف معارف القربين، وتحصن بحماية نظر أهل الله وخاصته،

وسير أحوال النفس، وأسفر السفر عن دقائق أخلاقها وشهواتها الخفية، وسقط عن باطنه نظر الخلق، وصار يخلب ولا يخلب كما قال الله تعالى إخباراً عن موسى: ﴿فَفَرَزْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾^(١).

فعند ذلك يردده الحق إلى مقامه، ويمده بجزيل إعمامه، ويجعله إماماً للمتقين، به يقتدي، وعالماً للمؤمنين، به يهتدي.

وأما الذي أقام في بلدته، وسافر في نهابته، يكون ذلك شخصاً يسر الله له في بداية أمره صحبة صحيحة، وفيض له شيخاً عالماً يسلك به الطريق، ويترجمه إلى منازل التحقيق، فيلزم موضع إرادته، ويلتزم بصحبته من يردده عن عادته.

وقد كان الشبلي يقول للحصري في ابتداء أمره: إن خطر ببالك من الجمعة إلى الجمعة غير الله فحرام عليك أن تحضرني. فمن رزق مثل هذه الصحبة يحرم عليه السفر. فالصحبة خير له من كل سفر وفضيلة يقصدها.

أخبرنا رضي الدين أبو الخير أحمد بن إسماعيل القزويني إجازة قال، أنا أبو الطاهر عبد النعم بن عبد الكريم بن هوازن القشيري عن والده الأستاذ أبي القاسم قال، سمعت محمد بن عبد الله الصوفي يقول، سمعت عياش بن أبي الصخر يقول سمعت أبا بكر الرقاق يقول: لا يكون للريد مرید حتى لا يكتب عليه صاحب الشمال شيئاً عشرين سنة.

فمن رزق صحبة من ينفعه إلى مثل هذه الأحوال السنية، والعزائم القوية، يحرم عليه المفارقة واختيار السفر.

ثم إذا أحكم أمره في الابتلاء بلزوم الصحبة وحسن الاقتداء، وارتوى من الأحوال، وبلغ مبلغ الرجال، وانبعس من قلبه عيون ماء الحياة، وصارت نفسه مكسبة للسعادات، يستنشق نفس الرحمن من صدور الصادقين من الإخوان في قطار الأرض وشاسع البلدان، بشرتب إلى التلاق، وينبعث إلى الطواف في الأفاق، يسير به الله تعالى في البلاد لفائدة العباد، ويستخرج بمفناطيس حاله خبء أهل الصدق، والتعطلين إلى من يخبر عن الحق، ويهذر في أراضي القلوب بذر الفلاح، ويكثر بركة نفسه وصحبته أهل الصلاح.

وهذا مثل هذه الأمة الهادية فالأمة الهادية في الإنجيل: ﴿... كَرَزَعٌ أُخْرِجَ شَعْبُهُ، فَأَزَرَهُ، فَاسْتَعْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سَوْقِهِ...﴾^(١) تعود بركة البعض على البعض، وتسري الأحوال من البعض إلى البعض، ويكون طريق الوراثة معموراً، وعلم الإفادة منشوراً.

أخبرنا شيخنا قال، أنا الإمام عبد الجبار البيهقي في كتابه، أنا أبو بكر البيهقي قال، أنا أبو علي الروندي قال، حدثنا أبو بكر بن داسته قال، حدثنا أبو داود قال، أنا يحيى بن أيوب قال، حدثنا إسماعيل بن جعفر قال، أخبرني العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من اتبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً».

فأما من أقام ولم يسافر يكون ذلك شخصاً رباه الحق سبحانه وتعالى، وتولاه وفتح عليه أبواب الخير وجلبه بعنايته.

وقد ورد: جلبه من جلبت الحق تولي عمل الثقلين.

ثم لا علم منه الصديق، ورأى حاجته إلى من ينتفع به، ساق إليه بعض الصديقين حتى أتته بلطفه ولفظه، وتداركه بلحظه ولقحه وبقوة حاله، وكفاه يسير الصحبة لكمال الأهلية في الصاحب والصحاب، وإجراء سنة الله تعالى في إعطاء الأسباب حقها لإقامة رسم الحكمة، يحوج إلى يسير الصحبة، فيتنبه بالقليل للكثير، ويغنيه اليسير من الصحبة عن اللحظ الكثير، ويكتفي بوافر حظ الاستبصار عن الأسفار، ويتعوض بأشعة الأنوار عن مطالعة العبر والآثار، كما قال بعضهم: الناس يقولون: افتحوا أعينكم وابصروا، وأنا أقول: اغمضوا أعينكم وابصروا.

وسمعت بعض الصالحين يقول: لله عباد طور سيناهم ركبتهم، تكون رؤوسهم على ركبتهم، وهم في مجال القرب، فمن تبع له معين الحياة في ظلمة خلوته، فمأنا يصنع بدخول الظلمات، ومن اندرجت له أطباق السماوات في طي شهوده، فمأنا يصنع بتقلب طرقة في السموات، ومن جمعت أحداق بصيرته متفرقات الكائنات، فمأنا يستفيد من طي الفلوات، ومن خلص بخاصية فطرته إلى مجمع الأرواح، فمأنا تفيده زيارة الأشباح.

قيل: أرسل ذو النون المصري إلى أبي يزيد رجلاً وقال قل له: إلى متى هذا النوم والراحة وقد سارت القافلة؟ فقال للرسول: قل لأخي، الرجل من يتم الليل كله ثم يصح في النزل قبل القافلة، فقال ذو النون: هنيئاً له، هذا كلام لا تلبعه أحوالنا.

وكان بشر يقول: يا معشر الفقراء سيحوا تطيّبوا، فإن الماء إذا حُكِر مكنه في موضع تغير.

وقيل: قال بعضهم عند هذا الكلام: صر بجرأ حتى لا تتغير، فإذا أدام المرید سير الباطن بقطع مسافة النفس الإمارة بالسوء حتى قطع منازل آفاتهما، وبطل أخلاقها للنعومة بالمحمودة، وعانق الإقبال على الله تعالى بالصديق والإخلاص، اجتمع له التفرقت، واستفاد في حضره أكثر من

سفره، لكون السفر لا يخلو من متاعب وكلف ومشوشات، وطوارق ونوازل
يتجدد الضعف عن سياستها بالعلم للضعفاء، ولا يقدر على تسليط العلم
على متجددات السفر وطوارقه إلا الأقوياء.

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه للذي زكى عنده رجلاً: هل
صحبتك في السفر الذي يستدل به على مكارم الأخلاق؟ قال: لا. قال: ما أراك
تعرّفه.

إذا حفظ الله عبده في بداية أمره من تشويش السفر، ومنعه بجمع
الهم وحسن الإقبال في الحضر، وساق إليه من الرجال من اكتسب به صلاح
الحال، فقد أحسن إليه.

قيل في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ
حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾^(١) هو الرجل النقطع إلى الله بشكل عليه شيء من أمر
الدين، فيبحث الله إليه من يعمل إنشكاله. فإذا ثبت قدمه على شروط البداية،
رزق وهو في المقام من غير سفر ثمرة النهاية، فيستقر في الحضر انتهاء
وابتداء، وأقيم في هذا المقام جمع من الصالحين.

وأما الذي أدام السفر، فراك صلاح قلبه وصحة حاله في ذلك.

يقول بعضهم: اجتهد أن تكون كل ليلة ضعيف مسجداً، ولا تموت
بين منزلين.

وكان من هذه الطبقة إبراهيم الخواص، ما كان يقيم في بلد أكثر
من أربعين يوماً، وكان يرى أن أقام أكثر من أربعين يوماً يفسد عليه
توكله، فكان علم الناس ومعرفتهم إياه يراه سبباً ومعلوماً.

وحكى عنه أنه قال: مكنت في البداية أحد عشر يوماً لم أكل،
وتطلعت نفسي أن أكل من حشيش البر، فرأيت الخضرة مقبلاً نحوي،

هربت منه، ثم التفت فإذا هو رجع عني، فقيل، لم هربت منه؟ قال:
تشوقت نفسي أن يفيتني هؤلاء الفرارون بدينهم.

أخبرنا أبو زرعة طاهر بن الحافظ أبي الفضل القاسمي عن أبيه قال: أنا
أبو بكر أحمد بن علي قال، أنا أبو عبد الله بن يوسف بن زامويه قال، حدثنا
أبو محمد الزهري القاضي قال، حدثنا محمد بن عبد الله بن إسباط قال،
حدثنا أبو نعيم قال، حدثنا محمد يعني ابن مسلم عن عثمان بن عبد الله
بن أوس، عن سليمان بن هرمز، عن عبد الله عن رسول الله ﷺ قال، «أحب
شيء إلى الله الغرياء، قيل، ومن الغرياء؟ قال، الفرارون بدينهم يجتمعون إلى
عيسى بن مريم يوم القيامة».

وهذه كلها أحوال اختلفت، واتبع لأربابها الصعبة وحسن النية مع الله،
وحسن النية يقتضي الصديق، والصديق لعينة محمود، فكيف تقلبت
الأحوال.

فمن سافر بنفي أن يتفقد حاله، ويصح نيته، ولا يقدر على
تخليص النية من شوائب النفس إلا بكثير العلم، تام التقوى، وافر الحظ من
الزهد في الدنيا.

ومن الطوى على هوى، ومن لم يستقص في الزهد لا يقدر على
تصحيح النية فقد يدعو إلى السفر نشاط جبلي نفساني، وهو يظن أن ذلك
داعية الحق، ولا يميز بين داعية الحق وداعية النفس، ويحتاج الشخص في
علم صحة النية إلى العلم بمعرفة الخواطر، وشرح الخواطر وعلمها يحتاج
إلى باب مفرد لنفسه. ونومئ الآن إلى ذلك برمز يدرجه من نازله شيء من
ذلك، فأكثر الفقراء من علم ذلك ومعرفة عن بعد.

اعلم أن ما ذكرناه من نشاط النفس وقع للفقير في كثير من الأمور،
فقد يجد الفقير الروح بالخروج إلى بعض الصحارى والبساتين، ويكون ذلك

الروح مضراً به في ذاتي الحال، وإن كان يترأى له طيبة القلب في الوقت، وسبب طيبة قلبه في الوقت أن النفس تتفسح وتتسع ببلوغ غرضها، وتيسر يسير هواها بالخروج إلى الصحراء والتنزه، وإذا اتسعت بعنت عن القلب، وتنحت عنه، متشوقة إلى متعلق هواها، فيخرج القلب لا بالصحراء بل ببعد النفس منه، كشخص تباعد عنه قريب يستنقله.

ثم إذا عاد الفقير إلى زلوته، واستفتح ديوان معاملته، وميز دستور حاله، يجد النفس مقارنة للقلب بمزيد ثقل موجب لتمرره بها، وكلما ازداد ثقلها تكرر القلب وسبب زيادة ثقلها استرسالها في تناول هواها، فيصير الخروج إلى الصحراء عين الداء، ويظن الفقير أنه ترويح ودواء، فلو صبر على الوحدة والخلوة ازدادت النفس ذوباً، وخفت ولطفت وصارت قريباً صالحاً للقلب لا يستنقلها.

وعلى هذا يقاس التروح بالأسفار. فللنفس وثبات إلى توهم التروحات، فمن فطن لهذه الدقيقة لا يغتر بالتروحات المستعارة التي لا تجمد عاقبتها، ولا تؤمن غائلتها، ويتثبت عند ظهور خاطر السمر، ولا يكثر بالخطر، بل بطرحه بعدم الالتفات، مسيئاً ظنه بالنفس وتسويلاتها.

ومن هذا القبيل والله أعلم قول رسول الله ﷺ: «إن الشمس تطلع من بين قرني الشيطان» فيكون للنفس عند طلوع الشمس وثبات، تستند تلك الوثبات والنهضات من النفس إلى لزاج والطبائع، ويطول شرح ذلك ويعمق.

ومن ذلك القبيل خفة مرض المريض غنوة بخلاف العشيات، فيتشكل اهتزاز النفس بنهضات القلب، ويدخل على الفقير من هذا القبيل آفات كثيرة، يدخل في مداخل باهتزاز نفسه ظناً منه أن ذلك حكم نهوض قلبه، وربما يترأى له أنه بالله يصول، وبالله يقول، وبالله يتحرك، فقد ابتلي بنهضة النفس ووثوبها.

ولا يقع هذا الاشتباه إلا لأرباب القلوب وأرباب الأحوال، وغير أرباب القلب والحال عن هذا بمعزل. وهذه مزية قدم مختصة بالخواص دون العوام، فاعلم ذلك فإنه عزيز علمه.

وأقر مراتب الفقراء في مبادئ الحركة للسفر لتصحيح وجه الحركة أن يقدموا صلاة الاستخارة، وصلاة الاستخارة لا تهمل وإن تبين للفقيه صحة خاطره، أو تبين له وجه الصلحة في السفر ببيان أوضح من الخاطر، فليقوم مراتب في التبيين من العلم بصحة الخاطر ومما فوق ذلك، ففي ذلك كله لا تهمل صلاة الاستخارة اتباعاً للسنة ففي ذلك البركة.

وهو من تعليم رسول الله ﷺ على ما حدثنا شيخنا ضياء الدين أبو النجيب السهروردي إماماً قال: أنا أبو القاسم بن عبد الرحمن في كتابه أن أبا السعيد الكنجرودي أخبرهم قال: أنا أبو عمرو بن حمدان قال: حدثنا أحمد بن الحسين الصوفي قال: حدثنا منصور بن أبي مزاحم قال: حدثنا عبد الرحمن بن أبي الوالي عن محمد بن المكي عن جابر رضي الله عنه قال:

كان رسول الله ﷺ يعلمنا الاستخارة كما يعلمنا السورة من القرآن قال: «إذا هم أحدكم بالأمر أو أراد الأمر فليصل ركعتين من غير الفريضة ثم ليقل: اللهم إني استخيرك بعلمك، واستقنرك بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم، فإنك تقدر ولا أقدر، وتعلم ولا أعلم، وأنت علام الغيوب. اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر -يسميه بعينه- خير لي في ديني ومعاشي ومعادي وعاقبة أمري، أو قال عاجل أمري واجله، فاقدره لي ثم بارك لي فيه، وإن كنت تعلمه شراً لي مثل ذلك فاصرفه عني واصرفني عنه، واقدر لي الخير حيث كان».

الباب السابع عشر

فيما يحتاج إليه الصوفي في سفره من الفرائض والفضائل

فأما من الفقه وإن كان هذا يلحكر في مكتب الفقه، وهذا الكتاب غير موضوع لذلك، ولكن نقول على سبيل الإيجاز تبيناً بذكر الأحكام الشرعية التي هي الأساس الذي يبنى عليه،

لا بد للصوفي السافر من علم التيمم، والمسح على الخفين، والقصر، والجمع في الصلاة.

أما التيمم فجائز للمريض والسافر في الجنابة والحدث عند عدم الماء، أو الخوف من استعماله تلفاً في النفس أو المال، أو زيادة في المرض على القول الصحيح من المذهب، أو عند حاجته إلى الماء للوجود لعطشه، أو عطش دابته أو رقيقه. ففي هذه الأحوال كلها يصلى بالتيمم ولا إعادة عليه، والخائف من البرد يصلى بالتيمم ويعيد الصلاة على الأصح.

ولا يجوز التيمم إلا بشرط الطلب للماء في مواضع الطلب، ومواضع الطلب مواضع تردد السافر في منزلة للاحتطاب والاحتشاش، ويكون الطلب بعد دخول الوقت، والسفر القصير في ذلك كالتويل. وإن صلى بالتيمم مع تيقن الماء في آخر الوقت جاز على الأصح، ولا يعيد مهما صلى بالتيمم، وإن كان الوقت باقياً ومهما توهم وجود الماء بطل تيممه، كما إذا طلع ركب أو غير ذلك، وإن رأى الماء في أثناء الصلاة لا يبطل صلاته ولا تلزمه إعادة، ويستحب له الخروج منها واستئنافها بالوضوء على الأصح.

ولا تيمم للفرض قبل دخول الوقت، ويتيمم لكل فريضة، ويصلي مهما شاء من التواضع بتيمم واحد. ولا يجوز أداء الفرض بتيمم النافلة. ومن لم يجد ماء ولا تراباً يصلي ويعيد عند وجود أحدهما، ولكن إن كان محدثاً لا يمسح المصحف، وإن كان جنباً لا يقرأ القرآن في الصلاة بل يذكر الله تعالى عوض القراءة. ولا يتيمم إلا بتراب طاهر غير مختلط للرمل والجص، ويجوز بالغبار على ظهر الحيوان والثوب، ويسمى الله تعالى عند التيمم، ويسوي استباحة الصلاة قبل ضرب اليد على التراب وضم أصابعه لضربه الوجه ويمسح جميع الوجه، فلو بقي شيء من محل الفرض غير ممسوح لا يصح التيمم، ويضرب ضربه لليدين مبسوطة الأصابع، ويمسح بالتراب مع الفرض، وإن لم يقدر إلا بضربتين فصاعداً كيف أمكنه لا بد أن يعم التراب محل الفرض، ويمسح إذا فرغ إحدى الراحتين بالأخرى حتى تصيرا ممسوحتين، ومر اليد على ما نزل من اللحية من غير اتصال التراب إلى اللبابة.

وأما المسح فيمسح على الخف ثلاثة أيام وثلاثين في السفر، والقيم يوماً وليلة، وابتداء اللدة من حين الحدث بعد لبس الخف. لا من حين لبس الخف، ولا حاجة إلى النية عند لبس الخف بل يحتاج إلى كمال الطهارة حتى لو لبس أحد الحفين قبل غسل الرجل الأخرى لا يصح أن يمسح على الخف.

ويشترط في الخف إمكان متابعة الشيء عليه، وسر محل الفرض، ويكفي مسح يسير من أعلى الخف والأولى مسح أعلاه وأسفله من غير تكرار. ومتى ارتفع حكم المسح بانقضاء اللدة أو ظهور شيء من محل الفرض وإن كان عليه لفافة وهو على الطهارة بغسل القدمين دون استئناف الوضوء على الأصح. والناسخ في السفر إذا أقام يمسح كالقيم، وهكذا للقيم إذا سافر يمسح كالسافر.

واللبد إذا ركب جورياً ونعل يجوز للمسح عليه، ويجوز على للشرح إذا ستر محل الفرض، ولا يجوز على للنسوج وجهه الذي يستر بعض القدم به والباقي باللفافة.

فأما القصر والجمع فيجمع بين الظهر والعصر في وقت أحدهما، ويتمم لكل واحدة، ولا يفصل بينهما بكلام غيره. وهكذا الجميع بين المغرب والعشاء، ولا قصر في المغرب والصبح، بل يصليهما كهيئتهما من غير قصر وجمع.

والسنن والرواتب يصليها بالجمع بين السنتين قبل الفريضتين للظهر والعصر، وبعد الفراغ من الفريضتين يصلي ما يصلي بعد الفريضة من الظهر ركعتين أو أربعاً، وبعد الفراغ من المغرب والعشاء يؤدي السنن الراتبة لهما ويوتر بعدهما.

ولا يجوز أداء الفرض على الدابة بحال إلا عند التحام القتال للغازي، ويجوز ذلك في السنن الرواتب والنوافل، وتكفيه الصلاة على ظهر الدابة، وفي الركوع والسجود الإيماء، ويكون إيماء السجود أخفض من الركوع إلا أن يكون قادراً على التمكن مثل أن يكون في محارة وغير ذلك، ويقوم توجهه إلى الطريق مقام استقبال القبلة، ولا يوجهها إلى غير الطريق إلا للقبلة، حتى لو حرف دابته عن الصوب التوجه إليه لا إلى نحو القبلة بطلت صلاته.

والناشي ينتقل في السفر، ويقنعه استقبال القبلة عند الإحرام، لا يجزئه في الإحرام إلا الاستقبال، ويقنعه الإيماء للركوع والسجود. وراكب الدابة لا يحتاج إلى استقبال القبلة للإحرام أيضاً.

وإذا أصبح للمسافر مقيماً ثم سافر فعليه إتمام ذلك اليوم في الصوم، وهكذا إن أصبح مسافراً ثم أقام. والصوم في السفر الفضل من الفطر. وفي الصلاة القصر الفضل من الإتمام.

فهذا القدر مكاف للصوفي أن يعلمه من حكم الشرع في مهام سفره.

فأما المنسوب والمستحب فيتبني أن يطلب لنفسه رقيقاً في الطريق يعينه على أمر الدين. وقد قيل: الرقيق ثم الطريق. ونهى رسول الله ﷺ أن يسافر الرجل وحده، إلا أن يكون صديقاً عالماً بأفة نفسه، يختار الوحدة على بصيرة من أمره، فلا بأس بالوحدة.

وإذا كانوا جماعة ينبغي أن يكون فيهم متقدم أمير. قال رسول الله ﷺ «إذا كنتم ثلاثة في سفر فامروا أحداكم» والذي يسميه الصوفية ببشر وهو الأمير، وينبغي أن يكون الأمير زهد الجماعة في الدنيا، وأوفرهم حظاً من التقوى، وأتمهم مروءة وسخاوة، وأكثرهم شفقة.

روى عبد الله بن عمر عن رسول الله ﷺ قال: «خير الأصحاب عند الله خيرهم لصاحبه».

نقل عن عبد الله الروزي أن أبا علي الرباطي صحبه فقال: علي أن أكون أنا الأمير أو أنت؟ فقال: بل أنت، فلم يزل يحمل الزاد لنفسه ولأبي علي على ظهره، وأمطرت السماء ذات ليلة فقام عبد الله طول الليل على رأس رقيقه يغطيه بكسانه عن المطر، وكلما قال لا تفعل يقول أنت الأمير وعليك الانقياد والطاعة.

فأما إن كان الأمير يصحب فقره لمحبة الاستتباع وطلب الرياسة والتعزز، ليتسلط على الخدام في الربط، ويبلغ نفسه هواها، فهذا طريق أرباب الهوى الجهال المبائنين لطريق الصوفية، وهو سبيل من يريد جمع الدنيا، فيتخذ لنفسه رفقاء مائلين إلى الدنيا، يجتمعون لتحصيل أغراض النفس، والدخول على أبناء الدنيا والظلمة للتوصل إلى تحصيل مآرب النفس، ولا يخلوا اجتماعهم هذا عن الخوض في الغيبة، والدخول في الدخول للكروية، والتنقل في الربط، والاستمتاع والنزهة، وكلما كثر العلوم في الرباط اطلالوا

المقام وإن تعلّرت أسباب النجس، وكلما قل العلوم رحلوا وإن تيسرت أسباب الدين، وليس هنا طريق الصوفية.

ومن المستحب أن يودع إخوانه إذا أراد السفر ويدعو لهم بدعاء رسول الله ﷺ.

قال بعضهم: صحبت عبد الله بن عمر من مكة إلى المدينة فلما أردت مفارقتهم شيعني وقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال لقمان لابنه يا بني إن الله تعالى إذا استودع شيئاً حفظه، وإنى استودع الله دينك وأمانتك وخواتم عملك».

وروى زيد بن أرقم عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إذا أراد أحدكم سفراً فليودع إخوانه فإن الله تعالى جاعل في دعائهم البركة».

وروى عنه عليه السلام أيضاً أنه كان إذا ودع رجلاً قال: «زودك الله التقوى، وغفر ذنبك، ووجهك للخير حينما توجهت».

وينبغي أن يعتقد إخوانه إذا دعا لهم واستودعهم الله أن الله يستجيب دعاءه، فقد روى أن عمر رضي الله عنه كان يعطي الناس عطاياهم إذا جاء رجل معه ابن له فقال له عمر ما رأيت أحداً أشبه بأحد من هذا بك.

فقال الرجل: أحضرك عنه يا أمير المؤمنين إني أريد أن أخرج إلى سفر وأمه حامل به، فقالت: تخرج وتدعني على هذه الحالة؟ فقلت: استودع الله ما في بطنك، فخرجت ثم قدمت فإذا هي قد ماتت، فجلسنا نتحدث، فإذا نار تلوح على قبرها، فقلت للقوم: ما هذه النار؟ فقالوا: هذه من قبر فلانة تراها كل ليلة، فقلت: والله إنها كانت صوامع قوامع، فأخذت الحول حتى انتهينا إلى القبر فحفرنا وإذا سراج وإذا هذا العلام ينبغي، فقيل: إن هذا وديعتك، ولو

كنت استودعنا أمه لوجنتها^(١). فقال عمر: لهو أشبه بك من الغراب بالغراب.

وينبغي أن يودع كل منزل يرحل عنه بركعتين ويقول: اللهم زدني التقوى، واغفر لي ذنوبي، ووجهني للخير أينما توجهت.

وروى انس بن مالك قال: كان رسول الله ﷺ لا ينزل منزلاً إلا ودعه بركعتين.

فينبغي أن يودع كل منزل ورباط يرحل عنه بركعتين.

وإذا ركب الدابة فليقل: سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين، بسم الله والله أكبر توكلت على الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، اللهم أنت الحامل على الظهر، وأنت السنان على الأمور. والسنة أن يرحل من النازل بكرة ويبتدئ بيوم الخميس.

روى كعب بن مالك قال: قلما كان رسول الله ﷺ يخرج إلى السفر إلا يوم الخميس. وكان إذا أراد أن يبعث سرية بعثها أول النهار.

ويستحب كلما أشرف على منزل أن يقول: اللهم رب السموات وما أظللن، ورب الأرضين وما أظللن، ورب الشياطين، وما أضللن، ورب الرياح وما فزرن، ورب البحار وما جرين، أسألك خير هذا النزل وخير أهله، وأعوذ بك من شر هذا النزل وشر أهله. وإذا نزل فليصل ركعتين.

ومما ينبغي للمسافر أن يصحبه آلة الطهارة.

قيل: كان إبراهيم الخواص لا يفارقه أربعة أشياء هي الحضر والسمر، الركوة، والحبل، والإبرة وخبوطها، والمقراض.

(١) لا دليل يستدل به هذا الخبر، لأن التعارف عليه، أن الغير لا يوجد بملحله هواء فأي حي يلدس ويخلق عليه القبر يموت.

وروت عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ كان إذا سافر حمل معه خمسة أشياء: الراة، والكحلة، والدرى، والسواك، والشط. وفي رواية: القراض.

والصوفية لا تفارقهم العصا، وهي أيضاً من السنة، روى معاذ بن جبل قال: قال رسول الله ﷺ: «إن اتخذ منيراً فقد اتخذ إبراهيم، وإن اتخذ العصا فقد اتخذها إبراهيم وموسى».

وروى عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أنه قال: التوكؤ على العصا من أخلاق الأنبياء. وكان لرسول الله ﷺ عصاً يتوكأ عليها، ويامر بالتوكؤ على العصا.

وأخذ الركوة أيضاً من السنة، روى جابر بن عبد الله قال: بينما رسول الله ﷺ يتوضأ من ركوة إذ جهش الناس نحوه، أي أسرعوا نحوه.

والأصل في البكاء كالصبي يتلأزم بالأم ويسرع إليها عند البكاء. قال: فقال رسول الله ﷺ: «مالك؟» قالوا: يا رسول الله ما نجد ماء نشرب ولا نتوضأ به إلا ما بين يديك فوضع يده في الركوة، فنظرت وهو يفور من بين أصابعه مثل العيون. قال فتوضأ القوم منه. قلت: كم كنتم؟ قال: لو كنا مائة ألف لكفانا، كنا خمس عشرة مائة في غزوة الحديبية.

ومن سنة الصوفية شد الوسط وهو من السنة.

روى أبو سعيد قال: حج رسول الله ﷺ وأصحابه مشاة من المدينة إلى مكة وقال: «اربطوا على أوساطكم بأزركم» فربطنا ومشينا خلفه الهرولة.

ومن ظاهر آداب الصوفية عند خروجهم من الربط أن يصلى ركعتين في أول النهار يوم السفر بكرة كما ذكرنا بودع البقعة بالركعتين، ويقدم الخف وينفضه، ويشمر الكم اليمنى ثم اليسرى، ثم يأخذ الميائيد الذي يشد به وسطه، ويأخذ خريطة اللبس وينفضها، ويأتي

الموضع الذي يريد أن يلبس الخف فيقرش السجادة طاقين، ويحك نعل أحد المداسين بالآخر، ويأخذ المداس باليسار والخريطة باليمين، ويضع المداس في الخريطة أعقابه إلى أسفل، ويشد راس الخريطة، ويدخل المداس بيده اليسرى من كفه الأيسر، ويضعه خلف ظهره ثم يقعد على السجادة، ويقدم الخف بيساره وينمضه، ويبقى باليمين فيلبس، ولا يدع شيئاً من الران أو المنطقة يقع على الأرض، ثم يغسل يديه ويجعل وجهه إلى الموضع الذي يخرج منه، ويودع الحاضرين، فإن أخذ بعض الإخوان روايته إلى خارج الرباط لا يمنعه، وهكذا العصا والإبريق، ويودع من شيعته ثم يشد الرواية برفع يده اليمنى ويخرج اليسرى من تحت إبطه الأيمن، ويشد الرواية على الجانب الأيسر، ويكون كتفه الأيمن خالياً، وعقدة الرواية على الجانب الأيمن، فإذا وصل في طريقه إلى موضع شريف، أو استقبله جمع من الإخوان، أو شيخ من الطائفة، يحل الرواية ويحطها، ويستقبلهم ويسلم عليهم، ثم إذا جاوزوه يشد الرواية، وإذا دنا من منزل رباطاً كان أو غيره يحل الرواية ويحملها تحت إبطه الأيسر، وهكذا العصا والإبريق يمسكه بيساره. وهذه الرسوم استحسبها فقراء خراسان والجهل، ولا يتعهدوا أكثر فقراء العراق والشام والمغرب، ويجرى بين الفقراء مشاحنة في رعايتها.

فمن لا يتعاهدها يقول: هذه رسوم لا تلزم، والالتزام بها وقوف مع الصور وغفلة عن الحقائق، ومن يتعهد بها يقول: هذه آداب وضعها المتقدمون، وإذا رأوا من يخل بها أو شيء منها ينظرون إليه نظراً الازدراء والحقارة، ويقال: هذا ليس بصوفي، وكلا الطائفتين في الإنكار يتعدون الواجب.

والصحيح في ذلك أن من يتعاهدها لا ينكر عليه، فليس بمنكر في الشرع، وهو أحب حسن. ومن لم يلتزم بذلك فلا ينكر عليه، فليس بواجب في الشرع ولا مطلوب إليه.

وكثير من فقراء خراسان والجهل يبالغ في رعاية هذه الرسوم إلى حد يخرج إلى الإفراط. وكثيرا ما يخل بها فقراء العراق والشام والمغاربة إلى حد يخرج إلى التفريط.

والأليق أن ما ينكره الشرع ينكر، وما لا ينكره لا ينكر، ويجعل لتصاريف الإخوان أعداء ما لم يكن فيها منكر أو إخلال بمنسوب إليه. والله الموفق.

الباب الثامن عشر في القدوم من السفر ودخول الرباط والأدب فيه

ينبغي للفقيه إذا رجع من السفر أن يستعيد بالله تعالى من أهانت النقام،
كما يستعيد به من وعناء السفر.

ومن الدعاء للماثور: اللهم إني أعوذ بك من وعناء السفر، وكآبة القلب،
وسوء المنظر في الأهل والنال والوند.

وإذا أشرف على بلد يريد النقام بها بشير بالسلام على من بها من الأحياء
والأموات، ويقرأ من القرآن ما تيسر، ويجعله هدية للأحياء والأموات، ويكبر،
فقد روى أن رسول الله ﷺ كان إذا قفل من غزو أو حج يكبر على كل شرف
من الأرض ثلاث مرات ويقول: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله
الحمد وهو على كل شيء قدير، أيهون قاتبون عابدون ساجدون لرَبنا
حامدون. صدق الله وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده».

ويقول إذا رأى البك: «اللهم اجعل لنا بها قراراً ورزقاً حسناً».

ولو اغتسل مكان حسناً اقتداء برسول الله ﷺ حيث اغتسل لدخول
مكة، وروى أن رسول الله ﷺ لما رجع من طلب الأحزاب ونزل المدينة نزع
لامته واغتسل واستحم. وإلا فليجسد الوضوء، ويتنظف ويتطيب، ويستعد
للقاء الإخوان بذلك، وينوي التبرك بمن هنالك من الأحياء والأموات
ويزورهم.

روى أبو هريرة رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «خرج رجل
يزور أخاً له في قلة فأرصد الله بمنرجته ملكاً وقال: أين تريد؟ قال: لأزور فلاناً،
قال: لقريبة؟ قال: لا، قال: لنعمة له عندك تشكرها؟ قال: لا، قال: قيم

تزوره؟ قال: إني أحبه في الله قال: فإني رسول الله إليك بأنه يحبك بحبك إياه».

وروى أبو هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إذا دعا الرجل أخاه أو زوجه في الله، قال الله له: طيب وطلب ممشاك، ويتبوا من الجنة منزلاً».

وروى أن رسول الله ﷺ قال: «كنت تهيتكم عن زيارة القبور فزوروها فإنها تدرك الأخرى».

فيحصل للفقر فائدة الأحياء والأموات بذلك.

فإذا دخل البلد ابتدئ بمسجد من الساجد يصلي فيه ركعتين، فإن قصد الجامع كان أكمل وأفضل. وقد كان رسول الله ﷺ إذا قدم دخل المسجد أولاً وصلى ركعتين ثم دخل البيت. والرباط للفقر بمنزلة البيت. ثم يقصد الرباط، فقصد الرباط من السنة على ما روينا عن طلحة رضي الله عنه قال: كان الرجل إذا قدم المدينة وكان له بها عريف ينزل على عريفه، وإن لم يكن بها عريف نزل الصفة، فكنت ممن أنزل الصفة.

فإذا دخل الرباط يمضى إلى الوضع الذي يريد نزع الخف فيه، فيجعل وسطه وهو قائم، ثم يخرج الخريطة بيساره من حكمة اليسار، ويحل راس الخريطة باليمين، ويخرج الداس باليسار، ثم يضع الداس على الأرض، ويأخذ اليانيد ويلقيها في وسط الخريطة، ثم ينزع خفه اليسار، فإن كان على الوضوء يغسل قدميه بعد نزع الخف من تراب الطريق والعرق. وإذا قدم على السجادة بطوى السجادة من جانب اليسار، ويمسح قدميه بها انطوى، ثم يستقبل القبلة ويصلي ركعتين، ثم يسلم ويحفظ القدم أن يطأ بها موضع السجود من السجادة.

وهذه الرسوم الظاهرة التي استحسناها بعض الصوفية لا ينكر على من يتقيد بها، لأنه من استحسان الشيوخ، ونيتهم الظاهرة في ذلك تقييد الريد في كل شيء بهينة مخصوصة، ليكون أبداً مفتقداً لحركاته، غير قادم على حركة بغير قصد وعزيمة واجب.

ومن أخل من الفقراء بشيء من ذلك لا ينكر عليه ما لم يخل بواجب أو مندوب، لأن أصحاب رسول الله ﷺ ما تقيّلوا بكثير من رسوم المتصوفة. ويكون الشبان يطالبون الوارد عليهم بهذه الرسوم من غير نظر لهم إلى النية في الأشياء غلط.

فلعل الفقير يدخل الرباط غير مشمر أكمامه، وقد كان في السفر لم يشمر الأكمام، فينبه أن لا يتعامل ذلك فنظر الخلق حيث لم يخل بمندوب إليه شرعاً. ويكون الآخر يشمر الأكمام بقيس ذلك على شد الوسط، وشد الوسط من السنة كما ذكرنا من شد أصحاب رسول الله ﷺ أوساطهم في سفرهم بين المدينة ومكة. فتشمر الأكمام في معناه من الخلفة والاتفاق به في الشيء، فمن كان مشدود الوسط مشمراً يدخل الرباط كذلك.

ومن لم يكن في السفر مشدود الوسط لو كان راحكياً لم يشد وسطه، فمن الصدق أن يدخل كذلك، ولا يعتمد شد الوسط وتشمير الأكمام لنظر الخلق فإنه تكلف ونظر إلى الخلق، ومبنى التصوف على الصدق وسقوط نظر الخلق.

ومما ينكر على المتصوفة أنهم إذا دخلوا الرباط لا يبتدون بالسلام ويقول النكر هذا خلاف الندوب. ولا ينبغي للمنكر أن يبادر إلى الإنكار دون أن يعلم مقاصدهم فيما اعتمدوه.

وتركهم السلام يحتمل وجوهاً أحدها أن السلام اسم من أسماء الله تعالى، وقد روى عبد الله بن عمر قال: مر رجل على النبي ﷺ وهو يقول وسلم عليه فلم يرد عليه حتى كاد الرجل أن يتولّى، فضرب يده على الحائط ومسح بها وجهه ثم ضرب ضربة أخرى فمسح بها ذراعيه ثم رد على الرجل السلام، وقال: «إنه لم يمنعني أن أرد عليك السلام إلا أنني لم أكن على طهر» وروى أنه لم يرد عليه حتى توضأ ثم اعتذر إليه وقال: «إني كرهت أن أذكر الله تعالى إلا على طهر».

وقد يكون جمع من الفقراء مصطحبين في السفر، وقد يتفق لأحدهم حدث، فلو سلم التوضي وأمسك للحدث ظهر حاله فيترك السلام حتى يتوضأ من يتوضأ، ويفسل اليده من يفسل سراً للحال على ما احدث، حتى يكون سلامهم على الطهارة التناء برسول الله ﷺ. وقد يكون بعض القيمين أيضاً على غير طهارة فيستعد لجواب السلام أيضاً بالطهارة، لأن السلام اسم من أسماء الله تعالى، وهذا من أحسن ما يذكر من الوجوه في ذلك.

ومنها أنه إذا قدم يعانقه الإخوان، وقد يكون معه من أثار السفر والطريق ما يكره فيستعد بالوضوء والتنظف ثم يسلم ويعانقهم.

ومنها أن جمع الرباط أرباب مراقبة وأحوال، فلو هجم عليهم بالسلام قد ينزعج منه مراقب ويتشوش معاقظ، والسلام يتقدمه استئناس بدخوله واشتغاله بفسل القدم والوضوء وصلاة ركعتين، فيتأهب الجمع له كما يتأهب لهم بعد مسابقة الاستئناس، وقد قال الله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَسْتَأْذِنُوا﴾^(١) واستئناس كل قوم على ما يليق بحالهم.

ومنها أنه لم يدخل على غير بيته ولا هو بغريب منهم، بل هم إخوانه، والألفة بالنسبة للعبودية الجامعة لهم في طريق واحد، والنزل منزله، والوضع موضعه، فيرى الحركة في استفتاح النزل بمعاملة الله قبل معاملة الخلق،

وكما يمهّد عذرهم في ترك السلام يتبغى لهم أن لا ينكروا على من يدخل
ويبتدئ بالسلام، فكما أن من ترك السلام له نية فالذي سلم له أيضاً نية.

وللقوم أدب ورد بها الشرع، ومنها أدب استحسانها شيوخيهم، فلما ورد به
الشرع ما ذكرنا من شد الوسط والعصا والركوة، والابتداء باليمين في لبس
الخف وفي نزعها باليسار.

روى أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إذا انتعلتم
فابدعوا باليمين، وإذا خلعتهم فابدأوا باليسار أو اخلعهما جميعاً أو اخلعهما
جميعاً».

روى جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يخلع اليسرى قبل
اليمين، ويلبس اليمين قبل اليسرى.

وبسط السجادة وردت به السنة، وقد ذكرناه. ويكون أحدهم لا يقعد
على سجادة الآخر مشروع ومسنون. وقد ورد في حديث طویل: «لا يؤم
الرجل في سلطانه ولا في أهله ولا يجلس على تكمته إلا بإذنه».

وإذا سلم على الإخوان يعانقهم ويعانقونه، فقد روى جابر بن عبد الله
قال: لما قدم جعفر من أرض الحبشة عانقه النبي ﷺ وإن قبلهم فلا بأس
بذلك.

روى أن رسول الله ﷺ لما قدم جعفر قبل بين عينيه وقال: «ما أنا بفتح
خير أسر مني بقلوب جعفر».

وبصافح إخوانه، فقد قال عليه السلام: «قبلة المسلم أخاه للصافحة».

وروى أنس بن مالك قال: قيل يا رسول الله، الرجل يلقي صديقه وأخاه
ينحنى له؟ قال: لا. قيل: يلزمه ويقبله؟ قال: لا، قيل: فيصافحه؟ قال:
نعم».

ويستحب للفقراء القيمين في الرباط أن يتلقوا الفقراء بالزحيب.

روى عكرمة قال، قال رسول الله ﷺ يوم جنته «مرحباً بالراكب المهاجر» مرتين.

وإن قاموا إليه فلا بأس، وهو مسنون.

روى عنه عليه السلام أنه قام لجعفر يوم قدومه.

ويستحب للخادم أن يقدم له الطعام.

روى ثقيط بن صير قال: وفدنا على رسول الله ﷺ فلم نصادقه في منزله، وصادفنا عائشة رضي الله عنها، فأمرت لنا بالحريرة فصنعت لنا، وأتينا بقناع فيه تمر، والقناع المطبق، فأكلنا، ثم جاء رسول الله ﷺ فقال: «أصبتم شيئاً قلنا، نعم يا رسول الله».

ويستحب للقادم أن يقدم للفقراء شيئاً لحق القدوم.

ورد أن رسول الله ﷺ لما قدم المدينة نحر جزوراً.

وكرهيتهم لقدم القادم بعد العصر، وجهه من السنة منع النبي ﷺ عن طروق الليل.

والصوفية بعد العصر يستعدون لاستقبال الليل بالطهارة والإكباب على الأذكار والاستغفار.

وروى جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا قدم أحدكم من سفر فلا يطرقن أهله ليلاً».

وروى كعب بن مالك أن رسول الله ﷺ كان لا يقدم من السفر إلا نهراً في الضحى.

فيستحبون القنوم في أول النهار فإن فات من أول النهار فقد يتمق تعويق من ضعف بعضهم في الشيء أو غير ذلك فيعذر المقير بقية النهار إلى العصر لاحتمال التعويق، فإذا صار العصر ينسب إلى تقصيره في الاهتمام بالسنة وقنوم أول النهار، فإنهم يكرهون الدخول بعد العصر والله أعلم. فإذا صار العصر يؤخر القنوم إلى الغد ليكون عاملاً بالسنة للقنوم ضحوة

وأيضاً في معنى آخر، وهو أن الصلاة بعد العصر مكروهة، ومن الأدب أن يصلي القادم ركعتين، فذلك يكرهون القنوم بعد صلاة العصر..

وقد يكون من الفقراء القادمين من يكون قليل الدراية بدخول الرباط ويناله دهشة، فمن السنة التقرب إليه والتودد وطلافة الوجه حتى ينسبط وتذهب عنه الدهشة، ففي ذلك فضل كثير.

روى أبو رفاعة قال، أتيت رسول الله ﷺ وهو يخطب فقلت يا رسول الله رجل غريب جاء يسأل عن دينه، لا يدري ما دينه، قال، فأقبل النبي ﷺ على وترك خطبته، ثم أتى بكرسي قوائمه من حديد فقعده رسول الله ﷺ ثم جعل يعلمني مما علمه الله ثم أتى خطبته وأتم آخرها.

فأحسن أخلاق الفقراء الرفق بالمسلمين، واحتمال المكروه من السموع والرأي. وقد يدخل فقير بعض الرباط ويخل بشيء من مراسم التصوفة، فينهر ويخرج، وهذا خطأ كبير، فقد يكون خلق من الصالحين والأولياء لا يعرفون هذا الرسم الظاهر، ويقصدون الرباط بنية صالحة، فإذا استقبلوه بالمكروه يخشى أن تتشوش بواطنهم من الأذى، ويدخل على النكر عليه ضرر في دينه ودنياه، فليحذر ذلك وينظر إلى أخلاق النبي ﷺ، وما كان يعتمد مع الخلق من اللطافة والرفق.

وقد صح أن أعرابياً دخل المسجد وبأل، فأمر النبي عليه السلام حتى أتى بذنوب فصب على ذلك ولم يهر الإعرابي، بل رفق به وعرفه الواجب بالرفق واللين.

والقضاظة والتخليط والتسلط على المسلمين بالقول والفعل، من النموس الخبيثة وهو ضد حال للتصوفة. ومن دخل الرباط ممن لا يصلح للمقام به رأساً، يصرف من الموضع على الطف وجه بعد أن يقدم له طعام، ويحسن له الكلام، فهذا الذي يليق بسكان الرباط، وما يعتمده الفقراء من تعميز القادم فخلق حسن ومعاملة صالحة، وردت به السنة.

روى عمر رضي الله عنه قال: دخلت على رسول الله ﷺ وغلّام له حبشي يغمز ظهره، فقلت يا رسول الله ما شأنك؟ فقال: إن الناقة اقتحمت بي.

فقد يحسن الرضا بذلك ممن يغمز في وقت تعبته وقنومه من السفر، فأما من يتخذ ذلك عادة ويحب التعميز، ويستجلب به النوم ويساكنه حتى لا يفوته، فلا يليق بحال الفقراء، وإن كان في الشرع جائزاً.

وكان بعض الفقراء إذا استرسل في الغمز واستلذه يحتلم هيرى ذلك الاحتلام عقوبة استرساله في التعميز. ولأرباب العزائم أمور لا يسعهم فيها الركون إلى الرخص.

ومن أدب الفقير إذا استقر وقعد بعد قدومه أن لا يبتدئ بالكلام دون أن يسأل. ويستحب أن يمكث ثلاثة أيام لا يقصد زيارة ومشهداً أو غير ذلك مما هو مقصوده في الدينة، حتى يذهب عنه وعناء السفر، ويعود باطنه إلى هيئته، فقد يكون بالسفر عوارضه تغير باطنه وتكدر، حتى تجتمع في الثلاثة الأيام همته، ويتصلح باطنه، ويستعد للقاء الشايخ والزيارات بتبوير

الباطن، فإن باطنه إذا كان منوراً يستوفي حظه من الخير من كل شيخ وأخ يزوره.

وقد كنت أسمع شيخنا يوصي الأصحاب ويقول: لا تكلموا أهل هذا الطريق إلا في أصفى أوقاتكم. وهذا فيه فائدة كبيرة، فإن نور الكلام على قدر نور القلب، ونور السمع على قدر نور القلب، فإذا دخل على شيخ أو أخ وزاره ينبغي أن يستأذنه إذا أراد الاتصاف.

فقد روى عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ، «إذا زار أحدكم أخاه فجلس عنده فلا يقوم من حتى يستأذنه» وإن نوى أن يقبض أياً ما وفي وقته سعة، ولنفسه إلى البطالة وترك العمل تشوف بطلب خدمة يقوم بها، وإن كان دائم العمل لربه، فكفى بالعبادة شغلاً، لأن الخدمة لأهل العبادة تقوم مقام العبادة. ولا يخرج من الرباط إلا بإذن المتقدم فيه، ولا يعمل شيئاً دون أن يأخذ رايه فيه.

فهذه جمل أعمال يعتمدها الصوفية ولرباب الرباط، والله تعالى بفضله يزيدهم توفيقاً وتاديباً.

الباب التاسع عشر

في حال الصوفي المتسبب

اختلف أحوال الصوفية في الوقوف مع الأسباب والإعراض عن الأسباب. فمنهم من كان على الفتوح لا يركن إلى معلوم، ولا يتسبب بكسب ولا سؤال، ومنهم من كان يكتسب، ومنهم من كان يسأل في وقت حاجته، ولهم في كل ذلك أدب وحد يراعونه ولا يبتعدونه. وإذا كان الفقير يسوس نفسه بالعلم يأتيه الفهم من الله تعالى في الذي يدخل فيه من سبب أو ترك سبب، فلا ينبغي للفقير أن يسأل مهما أمكن.

لقد حدث النبي عليه السلام على ترك السؤال بالترغيب والترهيب. فاما الترغيب فما روى ثوبان قال: قال رسول الله ﷺ، «من ضمن لي واحدة أتكفل له الجنة». قال ثوبان: قلت، أنا. قال: لا تسأل الناس شيئاً» فكان ثوبان تسقط علاقة سوطه فلا يأمر أحداً بناوله، وينزل هو ويأخذها.

وروى أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لأن يأخذ أحدكم حبلاً فيحتطب على ظهره فيأكل ويتصدق خير له من أن يأتي رجلاً فيسأله أعطاه أو منعه، فإن اليد العليا خير من السفلى».

أخبرنا الشيخ الصالح أبو زرعة طاهر بن أبي الفضل الحافظ القلنسي قال، أخبرني والدي قال: أنا أبو محمد الصيرفي بهغلند قال: أنا أبو القاسم عبد الله بن محمد قال، حدثنا عبد الله بن محمد بن عبد العزيز قال، حدثنا علي ابن الجعد قال: حدثنا شعبة عن أبي حمزة قال سمعت هلال بن حصين قال: أتيت المدينة فنزلت دار أبي سعيد فضمني وإياه المجلس، فحدث أنه أصبح ذات يوم وليس عندهم طعام، فأصبح وقد عصب على بطمه حجراً

من الجوع فقالت لي امرأتى: فئت رسول الله ﷺ فقد أتاه فلان فأعطاه وأتاه فلان فأعطاه.

قال، فأتيته وقلت أتمس شيئاً، فذهبت أطلب فأنتهيت إلى رسول الله ﷺ وهو يخطب ويقول: «من يستعف بعفه الله، ومن يستغن بعغنه الله، ومن سألنا شيئاً فهو جبنناه لعطيناه وواسيناه، ومن استعف عنه واستغنى فهو أحب إلينا ممن سألنا». قال: فرجعت وما سألته، فزرقني الله تعالى حتى ما أعلم أهل بيت من الأنصار أكثر أموالاً منا.

وأما من حيث الترهيب والتحذير، فقد روى عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا تزال المسألة بأحدكم حتى يلقى الله وليس في وجهه مزعة لحم».

وروى أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس المسكين الذي ترده الأكلة والأكلتان، والتمرة والتمرتان، ولكن المسكين الذي لا يسأل الناس، ولا يفتن بمكانه فيعطى».

هذا هو حال المقير الصادق. والمتصوف المحقق لا يسأل الناس شيئاً.

ومنهج من يلزم الأدب حتى يؤديه إلى حال يستحي من الله تعالى أن يسأله شيئاً من أمر الدنيا، حتى إذا همت النفس بالسؤال ترده الهيبة، ويرى الإقدام على السؤال جرأة، فيعطيه الله تعالى عند ذلك من غير سؤال.

كما نقل عن إبراهيم الخليل عليه السلام أنه جاءه جبريل وهو في الهواء قبل أن يصل إلى النار فقال: هل لك من حاجة؟ فقال: أما إليك فلا، فقال له: تسأل ربك، فقال: حسبي من سؤال علمه بحالي، وقد يضعف عن مثل هذا فيسأل الله عبودية ولا يرى سؤال الخلقين، فيسوق الله تعالى إليه من القسم من غير سؤال مخلوق.

بلغنا عن بعض الصالحين أنه كان يقول: إذا وجد الفقير نفسه مطالبة بشيء، لا تخلو تلك المطالبة إما أن تكون لرزق يريد الله أن يسوقه

إليه، فتتنبه النفس له، فقد تتطلع نفوس بعض الفقراء إلى ما سوف يحدث وكأنها تخبر بما يكون، وإما أن يكون ذلك عقوبة للذنوب وجد منه، فإذا وجد المقير ذلك، وألحت النفس بالمطالبة، فليقم وليسبح الوضوء، ويصلس ركعتين ويقول، يا رب إن كانت هذه المطالبة عقوبة ذنوب فاستعفرك وأتوب إليك، وإن كانت لرزق قدرته لي فعجل وصوله إلي، فإن الله تعالى يسوقه إليه إن كان رزقه، وإلا فتذهب للمطالبة عن باطنه

فشان المقير أن ينزل حوائجه بالحق، فإما أن يرزقه الشيء أو الصبر، أو ينهب ذلك عن قلبه. فله سبحانه وتعالى أبواب من طريق الحكمة، وأبواب من طريق القدرة، فإن فتح بابا من طريق الحكمة وإلا فيفتح بابا من طريق القدرة ويأتيه الشيء بخرق العادة كما كان يأتي مريم عليها السلام ﴿.. كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَنَزَّيْتُ أَنَّى لَكَ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِن عِنْدِ اللَّهِ ..﴾

حكى عن بعض الفقراء قال: جمعت ذات يوم وكان حالي أن لا أسأل، فدخلت بعض المحال ببغداد محتازا متعرضا لعل الله تعالى يفتح لي على يد بعض عباده شيئا، فلم يقدر، فتمت جانبا ذاتي أت في منامي فقال لي: اذهب إلى موضع هكذا وعين الوضع فثم خرقه زرقاء فيها قطعيات أخرجهما في مصالحك.

فمن تجرد عين للخلق وتصد بالله فقد تفرد بخنى قادر لا يعجزه شيء، يفتح عليه من أبواب الحكمة والقدرة وكيف شاء. وأولى من سأل نفسه يسألها الصبر الجميل، فإن الصادق تجيبه نفسه.

وحكى شيخنا رحمه الله تعالى أن ولده جاء إليه ذات يوم وقال له: أريد حبة، قال: فقلت له: ما تفعل بالحبة؟ فذكر شهوة يشتريها بالحبة ثم قال عن إنك اذهب واستقرض الحبة، قال: فقلت: نعم نستقرضها من نفسك فهي أولى من أقرض. وقد نعلم بعضهم هذا المعنى فقال:

إن شئت أن تستقر من المال منفق على شهوات النفس في زمن العسر
فسل نفسك الإنفاق من كثر صيرها عليك وإرفاقاً إلى زمن اليسر
فإن فعلت كنت الغنى وإن لبت فكل ممنوع بعدها واسع العذر

فإذا استنفذ الفقير الجهد من نفسه، وأشرف على الضعف، وتحققت
الضرورة، وسأل مولاه ولم يقدر له بشيء، ووقته يضيق عن الكسب من
شغله بحاله، فعند ذلك يقرع باب السبب ويسأل، فقد كان الصالحون
يملكون ذلك عند طاقتهم.

نقل عن أبي سعيد الخراز أنه كان يمد يده عند الحاجة ويقول ثم
شيء لله. ونقل عن أبي جعفر الحلي وكان اسداً للجنيح أنه كان يخرج
بين العشاءين ويسأل من باب أو بابين، ويكون ذلك معلومة على قدر الحاجة
بعد يوم أو يومين.

ونقل عن إبراهيم بن تهم أنه كان معتكفاً بجامع البصرة مدة،
وكان يفطر في كل ثلاث ليل ليل، و ليلة إقطاعه يطلب من الأبواب.

ونقل عن سمعان الثوري أنه كان يسافر من الحجاز إلى صنعاء اليمن
ويسأل في الطريق، وقال: كنت أذكر لهم حديثاً في الضيافة فيقدم إلى
الطعام، فأتناول حاجتي، وأترك ما يبقى.

وقد ورد، من جاع ولم يسأل فمات دخل النار. ومن عنده علم وله مع
الله حال لا يبالي بمثل هذا، بل يسأل بالعلم ويمسك عن السؤال بالعلم

وحكى بغض مشايخنا عن شخص كان مصراً على المعاصي ثم انتبه
وتاب وحسنت توبته، وصار له حال مع الله تعالى، قال: عزمتم أن أحج مع
القافلة، ونويت أن لا أسأل أحداً شيئاً، واكتفى بعلم الله بحالي. قال: فبقيت
أياماً في الطريق ففتح الله على بالاء والزلز في وقت الحاجة، ثم وقف الأمر
ولم يفتح الله على بشيء، فحجعت وعطشت حتى لم يبق لي طاقة، فضعفت

عن الشي وبقيت لتأخر عن القافلة قليلاً قليلاً حتى مرت القافلة، فقلت في نفسي: هذا الآن مني إلقاء النفس إلى التهلكة وقد منع الله من ذلك، وهذه مسألة الاضطراب لسأل، فلما هممت بالسؤال تبعث من باطني إنكار لهذه الحال، وقلت عزيزة عقيدتها مع الله لا تنقضها، وهان على الموت دون نقص عزيمة، فقصدت شجرة وقعت في ظلها، وطرحت رأسي استطراحاً للموت، وذهبت القافلة.

فبينما أنا كذلك إذ جاءني شاب متقلد بسيف وحر كني، فقامت وفي يده أداة فيها ماء فقال لي اشرب، فشربت ثم قدم لي طعاماً وقال كل، فاكلت، ثم قال لي أتريد القافلة؟ فقلت من لي بالقافلة وقد عبرت؟ فقال لي قم، وأخذ يهدي ومشى معي خطوات ثم قال لي: اجلس بالقافلة إليك تجي، فجلست ساعة فإذا أنا بالقافلة ورأى متوجهة إلي. هذا شأن من يعامل مولاه بالصدق.

وذكر الشيخ أبو طالب لكي رحمه الله أن بعض الصوفية أول قول رسول الله ﷺ: «أجل ما أكل المؤمن من مكسب يده» بأنه المسألة عند القافة، وأنكر الشيخ أبو طالب هذا التأويل من هذا الصوفي، وذكر أن جعفر الخالدي كان يحكي هذا التأويل عن شيخ من شيوخ الصوفية، ووقع لي والله أعلم أن الشيخ الصوفي لم يرد بكسب اليد ما أنكر الشيخ أبو طالب منه، وإنما أراد بكسب اليد رفعها إلى الله تعالى عند الحاجة، فهو من أجل ما يأكله إذا أجاب الله سؤاله، وساق إليه رزقه.

وقال الله تعالى حكاية عن موسى عليه السلام ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أُرْسِلْتُ إِلَيْكَ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾^(١)

قال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، قال ذلك وإن خصرة البقل تترأى في بطنه من الهزال.

وقال محمد الباقر رحمه الله قالها وإنه محتاج إلى شق ثمرة.

وروى عن مطرف أنه قال: أما والله لو كان عند نبي الله شيء ما اتبع
المرأة، ولكن جعله على ذلك الجهد.

وذكر الشيخ أبو عبد الرحمن السلمي عن النصر أباذى أنه قال في
قوله، ﴿... إِنِّي لِمَا أُنزِلَتْ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ لم يسأل الكلیم الخلق، وإنما
كان سؤاله من الحق، ولم يسأل غناء النفس، إنما أراد سكون القلب.

وقال أبو سعيد الخزاز: الخلق مترددون بين ماله وبين ما إليهم، من
نظر إلى ماله تكلم بلسان الفقر، ومن شاهد ما إليه تكلم بلسان الخيال
والخفر. ألا ترى حال الكلیم عليه السلام لما شاهد خواص ما خاطبه به الحق
كيف قال، (ارني انظر إليك) ولما نظر إلى نفسه كيف أظهر الفقر وقال،
﴿لِمَا أُنزِلَتْ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾.

وقال ابن عطاء: نظر من العبودية فخشع وخضع، وتكلم بلسان
الافتقار بما ورد على سره من الأنوار، الانتقار العبد إلى مولاه في جميع أحواله،
لا الانتقار سؤال ومطلب.

وقال الحسين، فقير لما خصصتني من علم اليقين أن ترفقني إلى عين
اليقين وحقه.

ووقع والله أعلم في قوله، ﴿لِمَا أُنزِلَتْ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ أن الإنزال
مشعر ببعد رتبته عن حقيقة الرب، فيكون الإنزال عين الفقر، فما قنع
بالنزل وأراد قرب للنزل، ومن صح فقره، فقوره في أمر آخرته كفقرة في
أمر دنياه، ورجوعه إليه في الدارين وإياه يسأل حوائج النزلين، وتتساوى
عنده الحاجتان، فما له مع غير الله شغل في الدارين.

الباب الحشرون

في ذكر من يأكل من الفتوح

إذا كمل شغل الصوفي بالله، وكمل زهد لكمال تقواه، يحكم الوقت عليه بترك التسبب، وينكشف له صريح التوحيد وصحة الكفالة من الله الكريم، فيزول عن باطنه الاهتمام بالأقسام، ويكون مقبلة هذا أن يفتح الله له باباً من التعريف بطريق المقابلة على كل فعل يصدر منه، حتى لو جرى عليه يسير من ذنب بحسب حاله أو للخب مطبقاً مما هو منهى عنه في الشرع، يجد عقاب ذلك في وقته أو يومه.

كان يقول بعضهم: إني لأعرف ذنبي في سوء خلق غلامي.

وقيل: عن بعض الصوفية قرض النار خمه فلما رآه تألم وقال: لو كنت من مازن لم تستبح إبلى بنو القبطية من ذهل بسن شهبانا إشارة منه إلى أن الداخل عليه مقابلة له على شيء استوجب به ذلك، فلا تزال به المقابلات متضمنة للتعريفات الإلهية، حتى يتحصن بصدق المحاسبة وصفاء المراقبة عن تضيق حقوق العبودية، ومخالفة حكم الوقت، ويتجرد له حكم فعل الله، وتنمحي عنده لأعمال غير الله، فيرى للعطى والناع هو الله سبحانه ذوقاً وحالاً لا علماً وإيماناً، ثم يتدبره الحق تعالى بالعونة، ويوقفه على صريح التوحيد وتجريد فعل الله تعالى.

كما حكى عن بعضهم أنه خطر له خاطر الاهتمام بالرزق، فخرج إلى بعض الصحاري فرأى نيرة عمياء عرجاء ضعيفة، فوقف متعجباً منها، متفكراً فيما تأكل مع عجزها عن الطيران والنش والروية، فبينما هو كذلك إذا انشقت الأرض وخرجت سكرجتان، في أحدهما سمسم نقي وفي

الأخرى ماء صافيه، فأكلت من السمسم وشربت من الماء، ثم انشقت الأرض وعابت السكر حتان. قال، فلما رايت ذلك سقط عن قلبي الاهتمام بالرزق

هكذا أوقف الحق عبده في هذا المقام، يزيل عن باطنه الاهتمام بالأقسام، ويرى الدخول في التسبب والتكسب بالسؤال وغيره رتبة العوام، ويصير مسلوب الاختيار، غير متطلع إلى الأغيار، ناظراً إلى فعل الله تعالى، منتظراً لأمر الله فتساق إليه الأقسام، ويفتح عليه باب الإيعام، ويكون بدوام ملاحظته لفعل الله، وترصده ما يحدث من أمر الله تعالى مكشفاً له تجليات من الله تعالى بطريق الأفعال، والتجلي بطريق الأفعال رتبة من القرب، ومنه يترقى إلى التجلي بطريق الصفات، ومن ذلك يترقى إلى تجلي الذات والإشارة في هذه التجليات إلى رتب في اليقين، ومقامات في التوحيد شيء فوق شيء، وشيء أصفى من شيء.

فالتجلي بطريق الأفعال يحدث صفو الرضا والتسليم، والتجلي بطريق الصفات يكسب الهيبة والأنس، والتجلي بالذات يكسب الفناء والبقاء.

وقد يسمى ترك الاختبار والوقوف مع فعل الله فناء، يعنون به فناء الإرادة والهوى، والإرادة اللفظ أقسام الهوى، وهذا الفناء هو الفناء الظاهر، فأما الفناء الباطن وهو محو آثار الوجود عند لحاظ نور الشهود، يكون في تجلي الذات، وهو أكمل أقسام اليقين في الفناء، فأما تجلي حكم الذات فلا يكون إلا في الأحرار، وهو المقام الذي حظي به رسول الله ﷺ ليلة العراج، ومنع عنه موسى بلن تراني.

فلنعلم أن قولنا في التجلي إشارة إلى رتب الحظ من اليقين ورؤية البصيرة، فإذا ولي العبد إلى مبادئ أقسام التجلي، وهو مطالعة الفعل الإلهي مجرداً عن فعل سواه يكون تناوله الأقسام من الفتوح.

روى عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من وجه إليه شيء من هذا الرزق من غير مسألة ولا إشراف فليأخذه وليوسع به في رزقه، فإن كان عنده غنى فليدفعه إلى من هو أحوج منه».

وفي هذا دلالة ظاهرة على أن العبد يجوز أن يأخذ زيادة على حاجته بنية صرفه إلى غيره. وكيف لا يأخذ وهو يرى فعل الله تعالى. ثم إذا أخذ فمنهم من يخرج به إلى المحتاج، ومنهم من يقف في الإخراج أيضاً حتى يرد عليه من الله علم خاص، ليكون أخذه بالحق وإخراجه بالحق.

أخبرنا الشيخ أبو زرعه طاهر قال: أنبأنا والدي الحافظ أو الفصل القدسي قال: أنا أبو إسحاق إبراهيم بن سعيد الحبال قال: أنا محمد بن عبد الرحمن بن سعيد قال: أنا أبو طاهر أحمد بن محمد بن عمرو قال: أنا يونس بن عبد الأعلى قال: حدثنا عمرو بن الحارث عن ابن شهاب عن السائب بن يزيد عن حويط بن عبد العزيز عن عبيد الله السعدي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يعطيني العطاء فأقول له أعطه يا رسول الله من هو أفقر مني، فقال رسول الله ﷺ: «خذه فتموله أو تصدق به، وما جاءك من هذا المال وأنت غير متشوف ولا سائل فخذ، وإلا فلا تتبعه نفسك» قال سالم: فمن أجل ذلك كان ابن عمر لا يسأل أحدا شيئا ولا يرد شيئا أعطيه.

درج رسول الله ﷺ الأصحاب بأوامره إلى رؤية فعل الله تعالى، والخروج من تدبير النفس إلى حسن تدبير الله تعالى.

سئل سهل بن عبد الله التستري عن علم الحال قال: هو ترك التدبير، ولو كان هذا في واحد لكان من أولاد الأرض.

وروى يزيد بن خالد قال: قال رسول الله ﷺ «من جاءه معروف من أخيه من غير مسألة ولا إشراف نفس فيقبله فإيما هو شيء من ررق الله تعالى ساقه الله إليه».

وهذا العبد الواقف مع الله تعالى في قبول ما ساق الحق آمن ما يخشى عليه إنما يخشى على من يرد، لأن من رد لا يأمن من دخول النفس عليه إن يرى بعين الزهد، ففي أخذه إسقاط نظر الخلق تحققاً بالصدق والإخلاص، وفي إخراجهم إلى الغير إثبات حقيقة فلا يزال في كلا الحالتين زاهداً يراه الغير بعين الرغبة لقلة العلم بحاله، وفي هذا المقام يتحقق الزهد في الزهد.

ومن أهل الفتوح من يعلم دخول الفتوح عليه، ومنهم من لا يعلم دخول الفتوح عليه، فمنهم من لا يتناول من الفتوح إلا إذا تقدمه علم بتعريف من الله إياه، ومنهم من يأخذ غير متطلع إلى تقدم العلم حيث تجرد له الفعل، ومن لا ينتظر تقدمه العلم فوق من ينتظر تقدمه العلم لتمام صحبته مع الله وانسلاخه من إرادته، وعلم حاله في ترك الاختيار، ومنهم من يدخل الفتوح عليه لا بتقدمه العلم ولا رؤية تجرد الفعل من الله، ولكن يرزق شرباً من المحبة بطريق رؤية النعمة، وقد يتكرر شرب هذا بتغير معهود النعمة، وهذا حال ضعيف بالإضافة إلى الحالتين الأولين، لأنه علة في المحبة ووليحة في الصدق عند الصديقين.

وقد ينتظر صاحب الفتوح العلم في الإخراج أيضاً، فكما ينتظر في الأخذ، لأن النفس تظهر في الإخراج كما تظهر في الأخذ. وأتم من هذا من يكون في إخراجهم مختاراً، وفي أخذه مختاراً بعد تحققه بصحة التصرف، فإن انتظار العلم إنما كان لوضع اتهام النفس، وهو ببقية هوى موجود، فإذا زال الاتهام بوجود صريح العلم يأخذ غير محتاج إلى علم متجدد ويخرج كذلك، وهذه حال من تحقق بقول رسول الله ﷺ حاكياً عن ربه: «فإذا

أحببته كنت له سمعاً وبصراً، فبي يسمع، وبي يبصر، وبي ينطق»
الحديث.

فلما صح تعرفه صح تصرفه، وهذا أعز في الأحوال من الكبريت
الأحمر.

وكان شيخنا ضياء الدين أبو النجيب السهروردي رحمه الله يحكى عن
الشيخ حماد الدباس أنه كان يقول: أنه لا أكل إلا من طعام الفضل، فكان
يرى الشخص في المنام أن يحمل إليه شيئاً وقد كان يعين للراني في المنام أن
أحمل إلى حماد كذا وكذا. وقيل إنه بقي زماناً يرى هو في واقعته أو منامه
أنك أحلت على فلان بكذا وكذا.

وحكى عنه أنه كان يقول: كل جسم تربى بطعام الفضل لا يتسلط
عليه الهلاء، ويعنى بطعام الفضل ما شهد له صحة الحال من فتوح الحق.
ومن كانت هذه حالته فهو غني بالله.

قال الواسطي، الافتقار إلى الله أعلى درجة للرهبان، والاستغناء بالله
أعلى درجة للصالحين.

وقال أبو سعيد الخراز، العارف تكبيره فني في تكبير الحق. فالواقف مع
الفتوح واقف مع الله ناظر إلى الله.

وأحسن ما حكى في هذا أن بعضهم رأى النووي يمد يده ويسأل الناس
قال، فاستعظمت ذلك منه واستقبحته له، فأتته الجنيد فأخبرته فقال له:
لا يعظم هذا عليك، فإن النووي لم يسأل الناس إلا ليعطيهم سؤلهم في
الآخرة، فيؤجرون من حيث لا يضره.

وقول الجنيد ليعطيهم مكقول بعضهم فيد العليا يد الآخذ، لأنه
يعطى النواب.

قال: ثم قال الجنيد: هات الميزان، فوزن مائة درهم ثم قبض قبضة فالتقاها على المائة، ثم قال أحملها إليه، فقلت في نفسي: إنما يزن ليعرف مقدارها كيف خلط للجهول بالوزون وهو رجل حكيم، واستحييت أن أسأله، فذهبت بالصرة إلى النوري، فقال هات الميزان، فوزن مائة درهم وقال: ردها عليه وقل له أنا لا أقبل منك شيئاً، وأخذ ما زاد على المائة. قال فزاد تعجبي، فسألته عن ذلك فقال: الجنيد رجل حكيم، يريد أن يأخذ الجبل بطرفه، وزن المائة لنفسه طلباً للثواب، وطرح عليها قبضة بلا وزن لله، فأخذت ما كان لله وردت ما جعله لنفسه. قال فرددتها على الجنيد فبكى وقال: أخذ ماله ورد مالنا.

ومن لطائف ما سمعت من اصحاب شيخنا أنه قال ذات يوم لأصحابه: نحن محتاجون إلى شيء من العلوم، فارجعوا إلى خلواتكم واسألوا الله تعالى، وما فتح الله تعالى لكم التوحي به، ففعلوا ثم جاءوه من بينهم شخص يعرف بإسماعيل البطانحي، ومعه كاعد عليه ثلاثون دائرة، وقال هذا الذي فتح الله لي وأقمتي، فأخذ الشيخ الكاغد فلم يكن إلا ساعة فإذا بشخص دخل ومعه ذهب قدمه بين يدي الشيخ، ففتح القرطاس وإذا هو ثلاثون صحيحاً، فترك كل صحيح على دائرة وقال هذا فتوح الشيخ إسماعيل أو كلاماً هذا معناه.

وسمعت أن الشيخ عبد القادر رحمه الله بعث إلى شخص وقال لمالان عندك طعام وذهب، فأتني من ذلك بكذا ذهباً وكذا طعاماً، فقال الرجل: كيف أتصرف في وديعة عندي ولو استفتيتك ما أفتيتني في التصرف؟ فألزمه الشيخ بذلك، فأحسن الظن بالشيخ وجاء إليه بالذي طلب، فلما وقع التصرف منه جاءه مكتوب من صاحب الوديعة وهو غائب في بعض نواحي العراق أن أحمل إلى الشيخ عبد القادر كذا وكذا، وهو القدر الذي عييه

الشيخ عبد القادر فعاتبه الشيخ بعد ذلك على توقفه وقال: ظننت بالفقراء أن إشاراتهم تكون على غير صحة وعلم.

فالعبد إذا صح مع الله تعالى يرفع الله عن باطنه هموم الدنيا، ويجعل الغنى في قلبه، ويفتح عليه أبواب الرفق، وكل هموم التسلسلة على بعض الفقراء، لتكون قلوبهم ما استكملت الشغل بالله والاهتمام برعاية حقائق العبودية. فعلى قدر ما خلت من الهم بالله انتهت بهم الدنيا، ولو امتلات من هم الله ما عذبت بهموم الدنيا وفنعت ولزقت.

روى أن عوف بن عبد الله السعودي كان له ثلثمائة وستون صديقاً، وكان يكون عند كل واحد يوماً، وآخر كان له ثلاثون صديقاً، يكون عند كل واحد يوماً، وآخر كان له سبعة إخوان يكون كل يوم من الأسبوع عند واحد، فكان إخوانهم معلومهم، والعلوم إذا أقامه الحق للناظر إلى الله الكامل توحيدة يكون نعمة هنيئة.

جاء رجل إلى الشيخ أبي السعود رحمه الله وكان من أرباب الأحوال السنية، والواقفين في الأشياء مع فعل الله تعالى، متمكناً من حاله، ذاكراً لاحتيازه، ولعله سبق كثيراً من المتقدمين في تحقيق ترك الاختيار، رأينا منه وشاهدنا أحوالاً صحيحة عن قوة وتمكين، فقال له الرجل: أريد أن أعين لك شيئاً كل يوم من الخبز أحمله إليك ولكني قلت: الصوفية يقولون العلوم شؤم، قال الشيخ: نحن ما نقول للعلوم شؤم، فإن الحق يصفى لنا، وفعله نرى، فكل ما يقسم لنا نراه مباركاً ولا نراه شؤماً.

أخبرنا أبو زرعة إجازة قال: أنا أبو بكر بن أحمد بن خلف الشيرازي إجازة قال: أنا عبد الرحمن السلمي قال: سمعت أبا بكر بن شاذان قال: سمعت أبا بكر الكتاني قال: كنت أنا وعمرو الكي وعياش بن المهدي نصطحب ثلاثين سنة، نصلي الغداة على ظهر العصر، ومكاننا يعوداً بمكة على التجريد، ما لنا على الأرض ما يساوى فلساً، وربما كان يصحبنا الجوع يوماً

وبومين وثلاثة وأربعة وخمسة ولا نسأل أحدا، فإن ظهر لنا شيء وعرفنا وجهه من غير سؤال ولا تعريض قبلناه وأكفناه وإلا طوينا، فإذا اشتد بنا الأمر وخفنا على أنفسنا نقصان في الفرائض قصصنا أبا سعيد الخراز فيتحد لنا ألواناً من الطعام، ولا نقصد غيره، ولا ننبسط إلا إليه، لما نعرف من تقواه وورعه.

وقيل لأبي يزيد: ما نراك تشتغل بكسب، فمن أين معاشك؟ فقال، مولاي يزرق الكلب والخنزير، تراه لا يرزق أبا يزيد.

قال السلمي، سمعت أبا عبد الله الرازي يقول، سمعت مظهرا القرمهسي يقول، الفقير الذي لا يكون له عند الله حاجة.

وقيل لبعضهم: ما الفقير؟ قال، وقوف الحاجة على القلب، ومحوها من كل أحد سوى الرب.

وقال بعضهم: أخذ الفقير الصدقة ممن يعطيه لا ممن تصل إليه على يده، ومن قبل من الوسائط فهو المترسم بالفقر مع دناءة همته.

أنا شيخنا صياء الدين أبو النجيب السهروردي قال: أنا عصام الدين أبو حفص عمر بن أحمد بن منصور الصفار قال: أنا أبو بكر أحمد بن خلف الشيرازي قال: أنا أبو عبد الرحمن السلمي قال: سمعت أحمد بن علي ابن جعفر يقول سمعت أن أبا سليمان الدراكي كان يقول: آخر إقدام الزاهدين أول إقدام المتوكلين.

روى أن بعض العارفين زهد، فبلغ من زهده أن هارق الناس وخرج من الأمصار وقال لا أسأل أحدا شيئا حتى يأتيني رزقي، فأخذ يسبح، فأقام في سمح جبل سبعا ثم ياته شيء حتى كاد أن يتلف، فقال يا رب إن أحببتني فأتني برزقي الذي قسمت لي، وإلا فأقبضني إليك، فآلهمه الله تعالى في قلبه. وعزتي وحلالى لا أرزقك حتى تدخل الأمصار وتقيم بين الناس، فدحل

الدينونة وأقام بين ظهراي الناس، فجاء هذا بطعام، وهذا بشرب فأكل وشرب، فأوجس في نفسه من ذلك، فسمع هاتفاً: أردت أن تبطل حكمته برهذك في الدنيا، أما علمت أنه يرزق العباد بأيدي العباد أحب إليه من أن يرزقهم بأيدي القدرة.

هالواقف مع الفتوح استوى عنده أيدي الأدميين وأيدي الملائكة، واستوى عنده القدرة والحكمة، وطلب القفار، والتوصل إلى قطع الأسباب، من الارتهاق برؤية الأسباب. وإذا صبح التوحيد تلاشت الأسباب في عين الإنسان.

أخبرنا شيخنا قال: أنا أبو حفص عمر قال، أنا أبو عبد الرحمن قال: أنا محمد بن أحمد بن حمدان العكيري قال، سمعت أحمد بن محمود بن اليسري يقول: سمعت محمداً الإسكافي يقول: سمعت يحيى بن معاذ الرازي يقول: من استفتح باب العاش بغير مفاتيح الأقدار وكل إلى الخلقين.

قال بعض النقطيين: كنت ذا صنعة جليلة فأريد منى تركها، فحاك في صدري من أين للعاش، فتهتف بي هاتف لا أراه، تنقطع إلى وتتهمني في رزقك؟ على أن أخدمك ولياً من أوليائي، أو أسخر لك منافقاً من أعدائي، فلما صبح حال الصوفي، وانقطعت أطماعه، وسكنت عن كل تشوف وتطلع، خدمته الدنيا، واصلحت له الدنيا خادمة، وما رضيها مخدومة.

فصاحب الفتوح يرى حركة النفس بالتشوف جنابة وذنباً.

روى أن أحمد بن حنبل خرج ذات يوم إلى شارع باب الشام فاشترى دقيقاً ولم يكن في ذلك للوضع من يحملة، فوافى أيوب الحمالي فحملة ودفع إليه أحمد أجرته، فلما دخل الدار بعد يذته له اتفاق أن أهل الدار قد خبزوا ما كان عندهم من الدقيق وتركوا الخبز على السرير ينشف، فراه أيوب وكان يصوم الدهر، فقال أحمد لابنه صالح: انفع إلى أيوب من الخبز، فدفع

له رغيظين، فردهما، قال أحمد: ضعهما، ثم صير قليلاً، ثم قال: خذهما
فالحقه بهما، فالحقه فأخذهما، فرجع صالح متعجباً، فقال له أحمد: عجبت
من رده وأخذه؟ قال: نعم، قال: هذا رجل صالح، هراى الخبز فاستشرفت
نفسه إليه فلما أعطيناه مع الاستشراف رده، ثم أمس فرددناه إليه بعد
الإياس فقبل.

هذا حال لرباب الصدق، إن سألوا سألوا بعلم، وإن أمسكوا عن السؤال
أمسكوا بحال، وإن قبلوا قبلوا بعلم، فمن لم يزرُق حال الفتوح فله حال
السؤال والكسب بشرط العلم. فأما السائل مستكثراً فوق الحاجة لا في وقت
الضرورة فليس من الصوفية بشيء.

سمع عمر رضى الله عنه سائلاً يسأل، فقال لمن عنده: ألم أقل لك عش
السائل؟ فقال: قد عشيته، فيظر عمر فإذا تحت إبطه مخلاة مملوءة خبزاً،
فقال عمر: ألك عيال؟ فقال: لا، فقال عمر: لست بسائل ولكنك تاجر، ثم
نثر مخلاته بين يدي أهل الصلقة وضربه بالبردة.

وروى عن على بن أبي طالب رضى الله عنه قال: إن الله تعالى هو خلقه
مثنوبات فقر، وعقوبات فقر، فمن علامة الفقر إذا كان مثنوبة أن يحسن
خلقته، ويطيع ربه، ولا يشكو حاله، ويشكر الله تعالى على فقره.

ومن علامة الفقر إذا كان عقوبة أن يسوء خلقته، ويحصى ربه، ويكثر
الشكاية، ويتسخط للقضاء.

فحال الصوفية حسن الأدب في السؤال، والفتوح والصدق مع الله على
كل حال كيف تقلب.

الباب الحادي والعشرون في شرح حال المتجرد والمتأهل من الصوفية وصحة مقاصدهم

الصوفي يتزوج لله كما يتجرد لله، فالتجرد مقصد وأوان، ولتأهله مقصد وأوان. والصادق يعلم أن التجرد ولتأهله، لأن الطبع الجموح للصوفي ملجم بلجام العلم، فما يصلح له التجرد لا يستعجله الطبع إلى التزوج، ولا يقدم على التزوج إلا إذا تصلحت النفس واستحقت إدخال الرقيق عليها، وذلك إذا صارت منقادة مطوعة مجيبة إلى ما راد منها، بمثابة الطفل الذي يتعاهد بما يروى له، ويمنع عما يضره، فإذا صارت النفس محكومة مطوعة فقد قامت إلى أمر الله، وتنصلت عن مشاحة القلب، فيصلح بينهما بالعد، وينظر في أمرهما بالقسط.

ومن صبر من الصوفية على العزوبة هذا الصبر إلى حين بلوغ الكتاب أجله، ينتخب له الزوجة انتخاباً، ويهيئ الله له أعواناً وأسباباً، وينعم برقيق يدخل عليه، ورزق يساق إليه.

ومن استعجل الزيد، واستغفره الطبع، وخامره الجهل، بثوران دخان الشهوة الطامنة لشعاع العلم، وانحط من أوج العزيمة الذي هو قضية حاله وموجب إرادته، وشريطة صدق طلبه، إلى حضيض الرخصة التي هي رحمة من الله تعالى لعامة خلقه، يحكم عليه بالنقصان، ويشهد له بالخسران. ومثل هذا الاستعجال هو حضيض الرجال.

قال سهل بن عبد الله التستري: إذا كان للمريد مال يتوقع به زيادة، فدخل عليه الابتلاء، فرجوعه في الابتلاء إلى حال دون ذلك نقصان وحدث.

وسمعت بعض الفقهاء وقد قيل له: لم لا تتزوج؟ فقال: المرأة لا تصلح إلا للرجال، وأنا ما بلغت مبلغ الرجال فكيف أتزوج؟

فالمصدقون لهم أنان بلوغ عنده يتزوجون.

وقد تعارضت الأخبار، وتماثلت الآثار في فضيلة التجريد والتزويج، وتنوع كلام رسول الله ﷺ في ذلك لتنوع الأحوال، فمنهم من فضيلته في التجريد، ومنهم من فضيلته في التأهل، وكل هذا التعارض في حق من سار توفيقه برد وسلام لكمال تقواه، وقهره هواه.

والأقضي غير هذا الرجل الذي يخاف عليه الفتنة يجب النكاح في حال التوقان المضرط، ويكون الخلاف بين الأئمة في غير التائق.

فالمصوفي إذا صار متأهلاً يتعين على الإخوان معاونته بالإيثار، ومسامحته في الاستكثار، إذا روى ضعيف الحال قاصراً عن رتبة الرجال كما وصفنا من صير حتى ظفر لما بلغ الكتاب أجله.

أخبرنا أبو زرعة عن والده أبي الفضل القنسي الحافظ قال: أنا أبو محمد عبد الله بن محمد الخطيب قال: أنا أبو الحسين محمد بن عبد الله بن أخي ميمي قال: أنا أبو القاسم عبيد الله بن محمد بن عبد العزيز قال: حدثنا محمد بن هارون قال: أنا أبو الخيرة قال: حدثنا صفوان بن عمرو قال: حدثنا عبد الرحمن بن جبير عن أبيه عن عوف بن مالك قال: كان رسول الله ﷺ إذا جاءه فيء قسمه في يومه، فأعطى للتأهل حظين والعزب حظاً واحداً، فدعينا وكنت أنعى قبل عمار بن ياسر فأعطاني حظين وأعطاه حظاً واحداً، فسقط حتى عرف ذلك رسول الله ﷺ في وجهه ومن حضره، فبقيت معه سلسلة من ذهب فجعل رسول الله ﷺ يرفعها بطرف عصاه وتسقط وهو يقول: «كيف أنتم يوم يكثر لكم من هذا؟» فلم يجبه أحد، فقال عمار: وددنا يا رسول الله لو قد أكثر لنا من هذا.

فالتجرد عن الأرواح والأولاد أعون على الوقت للفقير، واجمع لهم، وألذ

لعيشه

ويصلح للمقير في ابتداء أمره قطع العلائق، ومحو العوائق، والتبقل في الأسفار، وركوب الأخطار، والتجرد عن الأسباب، والخروج عن كل ما يكون حجاباً. والتزوج انحطاط من العزيمة إلى الرخص، ورجوع من التروح إلى النقص، وتقيد بالأولاد والأزواج، ودوران حول مظان الإعوجاج، والتفات إلى الدنيا بعد الزهادة، وانعطاف على الهوى بمقتضى الطبيعة والعادة.

قال أبو سليمان الداراني: ثلاث من طلبهن فقد ركن إلى الدنيا، من طلب معاشاً، أو تروج امرأة، أو كتب الحديث.

وقال، ما رأيت أحداً من أصحابنا تزوج فنبث على مرتبته.

أخبرنا الشيخ طاهر قال: أنا والدي أبو الفضل قال: أنا محمد بن إسماعيل المقرئ قال: أنا أحمد بن الحسن قال: أنا صاحب الطوسي قال: حدثنا عبد الرحيم قال: حدثنا العزاري عن سليمان التيمي عن أبي عثمان النهدي عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «ما تركت بعدى فتنة أضر على الرجال من النساء».

وروى رجاء بن حيوة عن معاذ بن جبل قال: «ابتلينا بالضراء فصبرنا، وابتلينا بالسراء فلم نصبر، وإن أخوف ما أخاف عليكم فتنة النساء إذا تسورن بالذهب، ولبسن ربط الشام وعصب اليمن، وتعبن الغنى، وكلفن المقير ما لا يجدر»

وقال بعض الحكماء: معالجة العزوبة خير من معالجة النساء.

وسئل سهل بن عبد الله عن النساء فقال: الصبر عنهن خير من الصبر عليهن، والصبر عليهن خير من الصبر على النار.

وقيل في تفسير قوله تعالى: ﴿وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾^(١) لأنه لا يصير على النساء.

وقيل في قوله تعالى: ﴿... رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ...﴾^(٢) الغلظة، فإن قدر الفقير على مقاومة النفس، ورزق العلم الوافر بحسن العاملة في معالجة النفس وصبر عنهن، فقد حاز الفضل، واستعمل العقل، واهتدى إلى الأمر السهل.

قال رسول الله ﷺ: «خيركم بعد النابتين رجل خفيف الحاد، قيل يا رسول الله وما خفيف الحاد؟ قال: الذي لا اهل له ولا ولد».

وقال بعض الفقهاء لما قيل له تزوج، أنا إلى أن أطلق نفسي أحوج مني إلى التزوج.

وقيل لبشر بن الحارث: إن الناس يتكلمون فيك، فقال: ما يقولون؟ قيل: يقولون إنه تارك للسنة، يعني النكاح، فقال: قولوا لهم أنا مشغول بالفرض عن السنة.

وكان يقول: لو كنت أعول دجاجة خفت أن أكون جلادا على الجسر.

والصوفي مبتلى بالنفس ومطالباتها، وهو في شغل شاغل عن نفسه، فإذا اصاف إلى مطالبات نفسه مطالبات زوجته يضعف طلبه، وتكل إرادته، وتفتر عزيمته.

والنفس إذا أطعمت طامعت وإذا التفتت قنعت، فيستعين الشاب الطالب على حسم مواد خاطر النكاح بإدامة الصوم، فإن للصوم أثرا ظاهرا في قمع النفس وقهرها.

(١) سورة النساء: الآية ٢٨.

(٢) سورة البقرة: الآية ٢٨٦.

وقد ورد أن رسول الله ﷺ مر بجماعة من الشبان وهم يرفعون الحجارة، فقال: «يا معشر الشبان من استطاع منكم الباءة فليتزوج، ومن لم يستطع فليصم، فإن الصوم له وجاء» أصل الوجود رض الخصيتين، كانت العرب تجأ الفحل من الغنم لتذهب فحولته ويسمن. ومنه الحديث «ضحى رسول الله ﷺ بكبشين أملحين موحوئين».

وقد قيل: هي النفس إن لم تشغلها شغلتك.

هنا، أدام الشاب المريد العمل، وأدب نفسه في العبادة، تقل عليه خواطر النفس.

وأيضاً شغله بالعبادة يثمر له حلاوة للعامة، ومحبة الإكثار منه، ويمتدح عليه باب السهولة والعيش في العمل، فيعار على حاله ووقته أن يتكدر بهم الزوجة.

ومن حسن أدب المريد في عرويته أن لا يمكن خواطر النساء من باطنه، وكلما خطر له خاطر النساء والشهوة يفر إلى الله تعالى بحسن الإجابة، فيتداركه الله تعالى حينئذ بقوة العزيمة، ويؤيده بمراغمة النفس.

بل ينعكس على نفسه نور قلبه ذواً لحسن إجابته، فتسكن النفس عن المطالبة، ثم تعرض على نفسه ما يدخل عليه بالنكاح من الدخول في المداخل المذمومة المؤدية إلى الذل والهوان، وأخذ الشيء من غير وجهه، وما يتوقع من القواطع بسبب التفات الخواطر إلى ضيطة امرأة وحراستها والكلف التي لا تنحصر.

وقد سئل عبد الله بن عمر عن جهد البلاء فقال: كثرة العيال، وقلة المال.

وقد قيل، كثرة العيال أحد الفقرين، وقلة العيال أحد اليسارين.

وكان إبراهيم بن أدهم يقول: من تعود أخذ النساء لا يفلح.

ولا شك أن المرأة تدعو إلى الرفاهية والدعة، وتمنع عن كثرة الاشتغال بالله وقيام الليل وصيام النهار، ويتسلط عن الباطن خوف الفقر ومحبة الادخار وكل هذا بعيد عن التجرد.

وقد ورد: إذا كان بعد اللانيتين أبيحت العزوبة لأمتي.

فإن تولت على الفقير خواطر النكاح، وزاحمت باطنه سيما في الصلاة والأذكار والتلاوة فليستعن بالله أولاً، ثم بالمشايخ والإخوان، ويشرح الحال لهم، ويسألهم مسألة الله له في حسن الاختيار، ويطوف على الأحياء والأموات والساجد والشاهد، ويستعظم الأمر، ولا يدخل فيه بقلة الإكترت، فإنه باب فتنة كبيرة وخطر عظيم.

وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ مِنْ أَرْوَاحِكُمْ وَأَوْلِيَّكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾^(١) ويكثر الضراعة إلى الله تعالى، ويكثر البكاء بين يديه في الخلوات، ويكرر الاستخارة.

وإن رزق القوة والصبر حتى يستبين له من فضل الله الخيرة في ذلك فهو الكمال والتمام، فقد يكشف الله تعالى للصادق ذلك منعاً أو إطلاقاً في منامه أو بفضله أو على لسان من ينق إلى دينه وحاله أنه إذا أشار لا يشير إلا على بصيرة، وإذا حكم لا يحكم إلا بحق، فعند ذلك يكون تزوجه مدبراً معاناً فيه.

وسمعنا أن الشيخ عبد القادر الجيلاني قال له بعض الصالحين: لم تزوجت؟ فقال: ما تزوجت حتى قال رسول الله ﷺ تزوج، فقال له ذلك الرجل، الرسول ﷺ يأمر بالرخص وطريق القوم التزم بالعزيمة، فلا أعلم ما

قال الشيخ في جوابه، ولكني أقول رسول الله ﷺ يأمره بالرخصة وأمره على لسان الشرع.

فأما من التجأ إلى الله تعالى واقتقر إليه استخاره فيكاشفه الله بتبنيه إياه في منامه، وأمره هذا لا يكون أمر رخصة بل هو أمر يتبعه أرباب العزيمة، لأنه من علم الحال لا من علم الحكم.

وبدل على صحة ما وقع له ما نقل عنه أنه قال: كنت أريد الزوجة مدة من الزمان ولا اجزئ على التزوج خوفاً من تكدير الوقت، فلما صيرت إلى أن بلغ الكتاب أجله، ساق الله لي أربع زوجات ما فيهن إلا من تنفق على لإرادة ورغبة. فهذه ثمرة الصبر الجميل الكامل.

فإذا صبر الفقير وطلب المخرج من الله يأتيه الفرج والمخرج ﴿...وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾^(١)

فإذا تزوج الفقير بعد الاستقصاء والإكثار من الضراعة والدعاء، وورد عليه وارد من الله تعالى بإذن فيه، فهو العاية والنهاية، وإن عجز عن الصبر إلى ما ورود الإذن، واستنفذ جهده في الدعاء والضراعة فقد يكون ذلك حظاً من الله تعالى، ويعان عليه لحسن نيته، وصدق مقصده، وحسن رحانه، واعتماده على ربه.

وقد نقل عن عبد الله بن عباس أنه قال: لا يتم نسك الشاب حتى يتزوج^(٢).

(١) سورة الطلاق، الآية ٢-٣.

(٢) وهذا يتعارض مع ما ذكر سابقاً حول العزوبة وهو يتفق مع قوله ﷺ: «لا رهبانية في الإسلام» وقوله صلوات الله وسلامه عليه: «النفكاح سنن» .. الحديث. وعموماً ما قبل عن العزوبة هي نراء وتصرفات شخصية لبعض أهل الطريق، يطبقونها على أنفسهم حسب ما تطمئن إليه قلوبهم وما يرونه أسلحاً لحالهم.

ونقل عن شيخ من مشايخ خراسان أنه كان يكثّر التزوج حتى لم يكن يخلو عن زوجتين أو ثلاث، فعوتب في ذلك فقال هل يعرف أحد منكم أنه جلس بين يدي الله تعالى جلسة، أو وقف وقفه في معاملته، فحضر على قلبه خاطر شهوة؟

فقالوا: قد يصيبنا ذلك، فقال: لو رضيت في عمري كله بمثل حالكم في وقت واحد ما تزوجت قط، ولكن ما خطر على قلبي خاطر شهوة قط شغلني عن حالي إلا نفذته لاستريح منه وأرجع إلى شغلي. ثم قال: منذ أربعين سنة ما خطر على قلبي خاطر معصية.

فالمصادقون ما دخلوا في النكاح إلا على بصيرة، وقصدوا حسن مواد النفس.

وقد يكون للأقوياء والعلماء الراسخين في العلم أحوال في دخولهم في النكاح تختص بهم، وذلك أنهم بعد طول المجاهدات والمراقبات والرياضات تطمئن نفوسهم، وتقبل قلوبهم، وللقلوب إقبال وإدبار.

يقول بعضهم: إن للقلوب إقبالاً وإدباراً، فإذا أدبرت روحت بالإرهاق، وإذا أقبلت ردت إلى الميثاق، فتبقى قلوبهم دائمة الإقبال إلا اليسير، ولا يدوم إقبالها إلا لطمانينة النفوس، وكما عن النازعة، وترك التشبث في القلوب.

فإذا اطمأنت النفوس واستقرت من طيشها ونفورها وشراستها، توهبت عليها حقوقها، وربما يصير من حقوقها حظوظها، لأن في أداء الحق إقباعاً، وفي أخذ الحظ اتساعاً، وهذا من دقيق علم الصوفية، فإنهم يتسعون بالنكاح للباح إيصالاً إلى النفس حظوظها، لأنها ما زالت تخالف هواها حتى صار داؤها دواءها، وصارت الشهوات الباحة واللذات الشروعة لا تضرها ولا تفر عليها عزائمها.

بلى كلما وصلت النفوس الزكية إلى حظوظها ازداد القلب انشراحاً وانفساحاً، ويصير بين القلب والنفوس موافقة يعطف أحدهما على الآخر، ويزداد كل واحد منهما بما يدخل على الآخر من الحظ، كلما أحد القلب حظه من الله خلع على النفس خلع الطمانينة، فيكون مزيد السكينة للقلب مزيد للطمانينة للنفس، وينشد:

إلى السماء إذا اكتست كست الثرى حلاً يندبجها الغمام الرام
وكلما أخذت النفس حظها تروح القلب تروح الجار الشفق براحه
الجار.

سمعت بعض الفقراء يقول: النفس تقول للقلب: كن معي في الطعام أكن معك في الصلاة وهذا من الأحوال العزيزة لا تصلح إلا لعالم رباني.
وكم من مدع يهلك بتوهمه هذا في نفسه. ومنل هذا العبد يزداد بالنكاح ولا ينقص. والعبد إذا كمل علمه بأخذ من الأشياء ولا تأخذ الأشياء منه.

وقد كان الهندي يقول: أنا احتاج إلى الزوجة كما احتاج إلى الطعام.
وسمع بعض العلماء بعض الناس يطعن في الصوفية، فقال: يا هذا ما الذي ينقصهم عندك؟ فقال: يأكلون كثيراً، فقال: وأنت أيضاً لو جعت كما يجوعون أكلت كما يأكلون. ثم قال: ويتزوجون كثيراً، قال: وأنت أيضاً لو حفظت فرجك كما يحفظون تزوجت كما يتزوجون. قال: وأي شيء أيضاً؟ قال: يسمعون القول، قال: وأنت أيضاً لو نظرت كما ينظرون سمعت كما يسمعون.

وكان سفيان بن عيينة يقول: كثرة النساء ليست من الدنيا، لأن علياً رضى الله عنه كان أزهق أصحاب رسول الله ﷺ وكان له أربع نسوة

وسبع عشرة سرية. وكان ابن عباس رضى الله عنه يقول: خير هذه الأمة أكثرها نساء.

وقد ذكر في أخبار الأنبياء أن عابداً تبتل للعبادة حتى هاق أهل زمانه، فذكر ذلك لنبى ذلك الزمان، فقال: نعم الجبر لو لا أنه تارك لشيء من السنة، فسمى ذلك إلى العابد، فأهمه فقال: ما تنفعنى عبادتى وأنا تارك السنة؟ فجاء إلى النبى عليه السلام فسأله فقال: نعم إنك تارك التزوج.

فقال: ما تركته لأنى أحرمه، وما منعنى منه إلا أنى فقير لشيء لى وأنا عيال على الناس، بطعمنى هذا مرة وهذا مرة، فأصكره أن أتزوج بامرأة أعضلها أو أرهقها جهداً^(١)، فقال له النبى ﷺ: وما يمنعك إلا هذا؟ قال: نعم، فقال: أنا أزوجه ابنتى، فزوجه النبى عليه السلام ابنته.

وكان عبد الله بن مسعود يقول: لو لم يبق من عمرى إلا عشرة أيام أحببت أن أتزوج ولا ألقى الله عزياً.

وما ذكر الله تعالى في القرآن من الأنبياء إلا المتأهلين.

وقيل: إن يحيى بن زكريا عليهما السلام تزوج لأجل السنة ولم يكن بقربها^(٢).

وقيل: إن عيسى عليه السلام سينكح إذا نزل إلى الأرض ويولد له.

وقيل: إن ركعة من متأهل خير من سبعين ركعة من عزب.

أخبرنا الشيخ الطاهر بن أبي الفضل قال أنا أبو منصور محمد بن الحسين بن أحمد بن الهيثم للقومى القزوينى قال أما أبو طلحة القاسم بن

(١) وهكذا يؤكد ما ذهبنا إليه في الهامش السابق من أن بعض أهل التصوف ترك الزواج لأسباب شخصية يراها في نفسه، وأن العزوبة هي أصلح لطله. والزواج عموماً قد يكون فرضاً أو واجباً أو حراماً أو مندوباً أو مكروهاً حسب حالة كل مكلف: راجع في ذلك كتاب (دور المرأة في المجتمع الإسلامى) تأليف المستشار توفيق على وهبه، طه، من ١٥٨/١٥٦، الرياض، ١٩٨٢/١٤٠٦.

(٢) لا دليل على ذلك من كتاب أو سنة. ولأنه إما فعل ذلك يكون قد ظلم من تزوجها ظلماً بيهاً.

أبي البندر الخطيب قال حدثنا أبو الحسن علي بن إبراهيم بن سلمة القطان قال حدثنا أبو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجه قال حدثنا أحمد بن الأزهر قال حدثنا آدم قال حدثنا عيسى بن ميمون عن القاسم عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «النكاح سنتي، فمن لم يعمل بسنتي فليس مني، فتزوجوا إلى مكائركم الأمم، ومن كان ذا طول فلينكح، ومن لم يجد فعله بالصيام فإن الصوم له وجاء».

ومما ينبغي للمتاھل أن يعتذر من الإفراط في الخالطة والعاشرة مع الزوجة إلى حد ينقطع عن أوره وسياسة أوقاته، فإن الإفراط في ذلك يقوى النفس وجنودها، ويفتر ناهض الهمة.

وللمتاھل بسبب الزوجة فتنتان: فتنة لعموم حاله، وفتنة لخصوص حاله. فتنة عموم حاله الإفراط في الاهتمام بأسباب العيشة.

كان الحسن يقول، والله ما أصبح اليوم رجل يطيع امرأته فيما تهوى إلا أسكبه الله على وجهه في النار.

وفي الخبر: «يأتي على الناس زمان يكون هلاك الرجل على يد زوجته وأبويه وولده، يعيرونه بالفقر، ويكلفونه ما لا يطيق، فيدخل في الداخل التي يذهب فيها دينه فيهلك».

وروى أن قوما دخلوا على يونس عليه السلام فاضافهم، وكان يدخل ويخرج إلى منزله فتؤذيه امرأته وتستطيل عليه وهو ساكت، فعجبوا من ذلك وهابوه أن يسألوه، فقال: لا تعجبوا من هذا فإني سألت الله فقلت يا رب ما كنت معاليبي به في الآخرة فعجله لي في الدنيا، فقال: إن عقوبتك بنت فلان تزوج بها، فتزوجت بها وأنا صابر على ما ترون.

فإذا افراط الفقير في اللذات ربما تعدى حد الاعتدال في وجوه العيشة متطلباً رضا الزوجة، فهذا فتنة عموم حاله، وفتنة خصوص حاله الإفراط

في الجالسة والمخالطة، فتنتطلق النفس عن قيد الاعتدال، وتسترق الغرض بطول الاسر سال، فيستولى على القلب بسبب ذلك السهو والعملة، ويستجلس مقار الهلة، فيقل الولد لقلة الأوراء، ويتكرر الحال لإهمال شروط الأعمال.

والطف من هذين الفتنتين فتنة أخرى تختص بأهل القرب والحضور، وذلك أن للنفوس امتزاجاً وبرابطة الامتزاج تعتصد وتشتد وتتطرى طبيعتها الجامدة، وتلتهب نارها الخامدة. فدواء هذه الفتنة أن يكون للمتاهل عند الجالسة عينان باطنان ينظر بهما إلى مولاه، وعينان ظاهران يستعملهما في طريق هواه. وقد قالت رابعة هي معنى هذا نظماً:

إنى جعلتك في الفؤاد محنكى وأبحت جسمي من أراد جلوسى
فالجسم منى للجليس مؤنم وحبیب قلبى فی الفؤاد انیسى

والطف من هذا فتنة أخرى يخشاها للتاهل، وهو أن يصير للروح استرواح إلى لطف الجمال، ويكون ذلك الاسترواح موقوفاً على الروح، ويصير ذلك وليجة في حب الروح للخصوص بالتعلق بالحضرة الإلهية، فتتبدد الروح، وينسد باب الزيد من الفتوح، وهذه البلادة في الروح يعز الشعور بها فلتحذر.

ومن هذا القبيل دخلت الفتنة على طائفة قالوا بالشاهدة. وإذا كان في باب الحلال وليجة في الحب يتولد منها بلادة الروح في القيام بوظائف حب الحضرة الإلهية، فما ظنك فيمن يدعى ذلك في باب غير مشروع، بغره سكون النفس. فيظن أنه لو كان من قبيل الهوى ما سكنت النفس، والنفس لا تسكن في ذلك دائماً بل تسلب من الروح ذلك الوصف وتأخذه إليها.

على أنى استبحثت عما يبتلى للفتونون بالشاهدة، فوجدت المحمى من ذلك من صورة الفسق عنده رغبة شرب الشهوة، إذ لو تهببت علة الشرب ما

بقية الرغبة. فليحذر ذلك جنس، ولا يسمع ممن يدعى فيه حالاً وصحة فإنه كذاب مدع.

ولهذا لعنى قال الأطباء: الجماع يسكن هيجان العشق، وإن كان من غير العشوق فليعلم أن مستنده الشهوة. ويكذب من يدعى فيه حالاً. وهذه فتن التاهل.

وفتنة العزب مرور النساء بخاطرهن، وتصورهن في متخيله، ومن أعطى الطهارة في باطنه لا يندس باطنه بخواطر الشهوة، وإذا سنج الخاطر بمحوه بحسن الإنابة واللياذ بالهرب، ومتى سامر الفكر بكشف الخاطر وخرج من القلب إلى الصدر، وعند ذلك يحذر إحساس العضو بالخاطر، فيصير ذلك عملاً خفياً. وما أقبح مثل هذا بالصادق المتطلع إلى الحضور واليقظة، فيكون ذلك فاحشة الحال. وقد قيل: مرور الفاحشة بقلب العارفين كفعل الفاعلين.

والله أعلم.

الباب الثاني والحشرون في القول في السماع قبولاً وإيثاراً

قال الله تعالى: ﴿... فَبَشِّرْ عِبَادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾^(١)

قيل: أحسنه أي أهله وأرشد.

وقال عز وجل: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ...﴾^(٢) هذا السماع هو السماع الحق الذي لا يختلف فيه اثنان من أهل الإيمان، محكوم لصاحبه بالهداية واللب، وهذا سماع ترد حرارته على برد اليقين فتفيض العين بالدمع، لأنه تارة يثير حزننا والحزن حار، وتارة يثير شوقنا والشوق حار، وتارة يثير ندمنا والندم حار، فإذا أثار السماع هذه الصفات من صاحب قلب مملوء ببرد اليقين أبكى وادمع، لأن الحرارة والجودة إذا اصطدما عصرا ماء، فإذا ألم السماع بالقلب تارة يخف المألم، فيظهر أثره في الجسد، ويقشعر منه الجلد.

قال الله تعالى: ﴿... تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ...﴾^(٣) وتارة يعظم وقعها ويتصوب أثره إلى فوق نحو الدماغ، كالخبر للعقل، فيعظم وقع التجدد الحادث، فتندفق منه العين بالدمع، وتارة يتصوب أثره إلى الروح فت موج منه الروح موجاً يكاد يضيق عنه نطاق القلب، فيكون من ذلك الصياح والاضطراب، وهذه كلها أحوال يجنبها أربابها من أصحاب الحال، وقد يحكيها بدلائل هوى النفس أرباب الحال.

(١) سورة الرمر: الآية ٧٧ - ٧٨ .

(٢) سورة النمل: الآية ٨٣ .

(٣) سورة الزمر: الآية ٢٣ .

روى أن عمر رضى الله عنه كان ربما مر بآية في ورده فتخنفه العبرة
ويسقط ويلزم البيت اليوم واليومين حتى يعاد ويحسب مريضاً.

فالسماح يستجلب الرحمة من الله الكريم.

روى زيد بن أسلم قال، قرأ أبي بن كعب عند رسول الله ﷺ فارقوا،
فقال رسول الله ﷺ: «اغتنموا الدعاء عند فرقة فإنها رحمة من الله تعالى».

وروت أم كلثوم قالت قال رسول الله ﷺ: «إذا الشعر جلد العبد من
خشية الله تحانت عنه الذنوب كما تحانت عن الشجرة اليابسة ورقها».

وورد أيضاً «إذا الشعر الجلد من خشية الله حرمه الله تعالى على النار».

وهذه جملة لا تنكر ولا اختلاف فيها، إنما الاختلاف في استماع الأشعار
بالألحان، وقد كثرت الأقوال في ذلك وتباينت الأحوال، فمن منكر يلحقه
بالفسق، ومن مولع به يشهد بانه واضح الحق، ويتحاذيان في طرق الإفراط
والتعريط.

فيل لأبي الحسن بن سالم، كيف تنكر السماع وقد كان الجنيد
وسرى السقطي وذو النون يسمعون؟ فقال، كيف أنكر السماع وقد أجهزه
وسمعه من هو خير مني، لقد كان جعفر الطيار يسمع، وإنما المنكر للهو
واللعب في السماع، وهذا قول صحيح.

أخبرنا الشيخ طاهر بن أبي الفضل عن أبيه الحافظ القاسم قال أنا أبو
القاسم الحسين بن محمد بن الحسن الخوافي قال، أنا أبو محمد عبد الله بن
يوسف قال حدثنا أبو بكر بن وثب قال حدثنا عمرو بن الحارث قال حدثنا
الأوزاعي عن الزهري عن عروة عن عائشة رضى الله عنها أن أبا بكر دخل
عليها وعندها جاريتان تغنيان وتضربان بدهقين، ورسول الله ﷺ مسجى
بثوبه، فانتهرهما أبو بكر، فكشف رسول الله ﷺ عن وجهه، وقال: «دعهما يا
أبا بكر فإنها أيام عيد».

وقالت عائشة رضي الله عنها: رأيت رسول الله ﷺ يسترني بردائه وأنا أنظر إلى الحبيشة يلعبون في المسجد حتى أكون أنا أسام.

وقد ذكر الشيخ أبو طالب الكي رحمه الله ما يدل على تجويزه.

ونقل عن كثير من السلف صحابي وتابعي وغيرهم.

وقول الشيخ أبي طالب الكي يعتبر لوقور علمه، وكمال حاله، وعلمه بأحوال السلف، ومكان ورعه وتقواه، وتحربه الأصوب والأولى.

وقال: في السماع حرام وحلال وشبهة.

فمن سمعه بنفسه مشاهدة شهوة وهوى فهو حرام، ومن سمعه بمعقوله على صفة مباح من جارية أو زوجة كان شبهة لدخول اللهو فيه، ومن سمعه بقلب يشاهد معاني تدله على الدليل، ويشهده طرقات الجليل فهو مباح.

وهذا قول الشيخ أبي طالب الكي وهو الصحيح، فإذا لا يطلق القول بمنعه وتحريمه والإنكار على من يسمع، كفعل القراء التزهدين المبالغين في الإنكار، ولا يفسح فيه على الإطلاق، كفعل بعض المستهترين به المهملين شروطه وأدابه، الهممين على الإصرار.

ونفصل الأمر فيه تفصيلاً، ونوضح الماهية فيه تحريماً وتحليلاً.

فأما النكاح والشباب وإن كان فيهما في مذهب الشافعي السحرة فالأولى تركهما والأخذ بالأحوط والخروج من الخلاف، وأما غير ذلك فإن كان من القصائد في ذكر الجنة والنار والتشويق إلى دار القرار، ووصف نعم الملك الجبار، وذكر العبادات والترغيب في الخير، فلا سبيل إلى الإنكار.

ومن ذلك القبيل قصائد الغزاة والحجاج في وصف الغزو والحج، مما يثير
كامن العزم من الغازي وسامكن الشوق من الحاج. وأما ما كان فيه ذكر
القلود والخنود ووصف النساء فلا يليق بأهل الحيوانات الاجتماع لئلا ذلك.

وأما ما كان من ذكر الهجر والوصل والقطيعة والصد مما يقرب
جملة على أمور الحق سبحانه وتعالى من تلون أحوال الرهين ودخول الآفات
على الطالبين، فمن سمع ذلك وحدث عنده ندم على ما فات، أو تجدد عنده
عزم لما هوأت فكيف ينكر سماعه.

وقد قيل إن بعض الواجدين يفتات بالسماع، ويتقوى به على الطلى
والوصال، ويثير عنده من الشوق ما يذهب عنه لهب الجوع، فإذا استمع العبد
إلى بيت من الشعر وقلبه حاضر فيه، كان يسمع الحادي يقول مثلاً:
أنوب إليك يا رحمن أنى أسأت وقد تضاعفت الذنوب
فأما من هوى ليلى وحسى زيارتها فسأتى لا أنوب
فطاب قلبه لما يجده من قوة عزمه على الثبات في أمر الحق إلى المات،
يكون في سماعه هذا ذكر لله تعالى.

قال بعض أصحابنا، كنا نعرف مواجد أصحابنا في ثلاثة أشياء: عند
اللسائل، وعند الغضب، وعند السماع.

وقال الجنيد: تنزل الرحمة على هذه الطائفة في ثلاثة مواضع: عند
الأكل لأنهم يأكلون عن هافة، وعند اللامكرة لأنهم يتحاورون في مقامات
الصلبيين، وأحوال النبيين، وعند السماع لأنهم يسمعون بوجد ويشهدون
حقاً.

وسئل رويم عن وجد الصوفية عند السماع فقال: يتنهيون للمعاني
التي تعذب عن غيرهم، فيشير إليهم فيتنعمون بذلك من الفرح، ويقع

الحجاب للوقت، فيعود ذلك الفرح بكاء، فمنهم من يمزق ثيابه، ومنهم من يبكي ومنهم من يصيح.

أخبرنا أبو زرعة إجازة عن ابن خلف إجازة عن السلمي قال سمعت أبا سهل محمد بن سليمان يقول: السمع بين استتار وتجل، فالاستتار يورث التلهب، والتجلي يورث الزيد، فالاستتار يتولد منه حركات المريدين، وهو محل الضعف والعجز، والتجلي يتولد منه السكون للواصلين، وهو محل الاستقامة والتمكين، وكذلك محل الحضرة ليس فيه إلا الذبول تحت موارد الهيبة.

قال الشيخ أبو عبد الرحمن السلمي: سمعت جدي يقول: السمع ينبغي أن يستمع بقلب حي ونفس مبهتة، ومن كان قلبه ميتاً ونفسه حياً لا يحل له السماع.

وقيل في قوله تعالى: ﴿يَزِيدُ فِي خَلْقِ مَا يَشَاءُ...﴾^(١) الصوت الحسن.

وقال عليه السلام: «لله أشدُّ لنا بالرجل الحسن الصوت بالقرى، من صاحب قينة إلى قينته».

نقل عن الجنيد قال: رأيت إبليس في النوم فقلت له: هل تظفر من أصابعنا بشيء أو تنال منهم شيئاً؟ فقال: إنه يحسر على شأنهم ويحظم على أن أصيب منهم شيئاً إلا في وقتين، قلت: أي وقت؟ قال: وقت السماع، وعند النظر، فإلى استرق منهم فيه وادخل عليهم به.

قال: فحكيت رؤيائي لبعض الشيوخ فقالوا: لو رأيته. قلت له: يا أحمق من سمع منه إذا سمع، ونظر إليه إذا نظر، أتربح أن عليه شيئاً أو تظفر بشيء منه. فقلت: صدقت.

(١) سورة طه: الآية ١٨.

وروت عائشة رضي الله عنها قالت كانت عندي جارية تسمى،
قد دخل رسول الله ﷺ وهي على حالها، ثم دخل عمر هفرت، فضحك رسول
الله ﷺ، فقال عمر: ما يضحكك يا رسول الله؟ فحلفتة حديث الجارية، فقال:
لا أبرح حتى أسمع ما سمع رسول الله، فأمرها رسول الله ﷺ فاستمعت.

وذكر الشيخ أبو طالب المكي قال، كان لعطاء جاريان تلحنان،
وكان إخوانه يجتمعون إليهما، وقال: أتركنا أبا مروان القاضي وله جوار
يسمعن التلحين أعدهن للصوفية.

وهذا القول نقلته من قول الشيخ أبي طالب، فقال، وعندى احتساب
ذلك هو الصواب، وهو لا يعلم إلا بشرط طهارة القلب، وغيض البصر، والوفاء
بشرط قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَائِبَةٌ الْآخِرِينَ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾^(١)، وما هذا
القول من الشيخ أبي طالب المكي إلا مستغرب عجيب، والتنزه عن مثل ذلك
هو الصحيح.

وفي الحديث في مدح داود عليه السلام إنه كان حسن الصوت بالنياحة
على نفسه، وبتلاوة الزبور، حتى كان يجتمع الإنس والجن والطير لسماع
صوته، وكان يحمل من مجلسه آلاف من الخنازير.

وقال عليه السلام في مدح أبي موسى الأشعري: «لقد أعطى زمماراً من
مزامير آل داود».

وروى عنه عليه السلام أنه قال: «إن من الشعر لحكمة».

ودخل رجل على رسول الله ﷺ وعنده قوم يقرءون القرآن وقوم
ينشدون الشعر، فقال: يا رسول الله قرآن وشعر؟ فقال: «من هذا مرة ومن
هذا مرة».

وانشد النابغة عند رسول الله ﷺ أبياته التي فيها:

ولا حير في حلم إذا لم يكن له بولدر تحمى صهوة أن يكدر
ولا حير في امرئ إذا لم يكن له حكيم إذا ما لورد الأمر أصدرا

فقال له رسول الله ﷺ: «أحسنت يا أبا ليلى لا يقصص الله فاك» فعاش
أكثر من مائة سنة وكان أحسن الناس فغرا.

وكان رسول الله ﷺ يضع لحسان منيراً في السجد فيقوم على النبر قائماً
يهجو الذين كانوا يهجون رسول الله ﷺ، ويقول النبي ﷺ: إن روح القدس مع
حسان ما دام يناقح عن رسول الله ﷺ.

ورأى بعض الصالحين أبا العباس الخضر قال: فقلت له ما تقول في
السماع الذي يختلف فيه أصحابنا؟ فقال: هو الصفا الزلال لا يثبت عليه إلا
أقدام العلماء.

ونقل عن مشاد الدينوري قال: رأيت رسول الله ﷺ في المنام فقلت يا
رسول الله هل تنكر من هذا السماع شيئاً؟ فقال: ما أنكره ولكن قل لهم
يفتحون قبله بقراءة القرآن ويختمون بعده بالقرآن.

فقلت: يا رسول الله إنهم يؤذوني وينبسطون، فقال: احتملهم يا أبا على
هم أصحابك. فكان مشاد يفتخر ويقول: كفايتي رسول الله ﷺ.

وأما وجه الإنكار فيه فهو أن يرى جماعة من المريدين دخلوا في
مبادئ الإرادة ونفوسهم ما تمرنت على صدق المجاهدة حتى يحدث عندهم
علم بظهور صفات النفس وأحوال القلب حتى تنضبط حركاتهم بقانون
العلم، ويعملون ما لهم وعليهم مشتغلين به.

حكى أن ذا النون لما دخل بغلاد دخل عليه جماعة ومعهم قوال،
فاستأذنه أن يقول شيئاً، فاذن له، فأنشد:

القبول صغير هوائك عنيني فكيف به إذا احتكنا
وانت جمعت من قلبي هوى قد كان مشركا
أما ترثني لكتنسيب إذا ضحكك الخلق بكى

فطاب قلبه وقام وتواجد وسقط على جبهته والدم يقطر من جبهته
ولا يقع على الأرض، ثم قام واحد منهم فنظر إليه ذو النون فقال، اتق الذي
براك حين تقوم، فجلس الرجل وكان جلوسه لوضع صدقه وعلمه أنه غير
كامل الحال غير صالح للقيام متواجداً.

فيقوم أحدهم من غير تنهر وعلم في قيامه، وذلك إذا سمع إيقاعاً
موزوناً يسمع يؤدي ما سمعه إلى طبع موزون، فيتحرك بالطبع الموزون
للسوت الموزون والإيقاع الموزون، وينسبل حجاب نفسه التيسط بالتيسط
الطبع على وجه القلب، ويستفزه النشاط للنبعث من الطبع، فيقوم برقص
موزوناً بتصنع، وهو محرم عند أهل الحق، ويحسب ذلك طيبة للقلب، وما
رأى وجه القلب وطيبتة بالله تعالى.

ولعمري هو طيبة القلب ولكن قلب ملون بلون النفس، ميال إلى الهوى،
موافق للردى، لا يهتدى إلى حسن النية في الحركات، ولا يعرف شروط
صحة الإرادات، ولئلا هذا الرقص قيل:

الرقص نقص، لأنه رقص مصدره الطبع، غير مقترن بنية صالحة لا
سيما إذا انضاف إلى ذلك شوب حركاته بصريح النفاق بالتودد والتقرب إلى
بعض الحاضرين من غير نية، بل دلالة نشاط النفس من العانقة وتقبيل
اليدين والقدم، وغير ذلك من الحركات التي لا يعتمد عليها للتصوفة إلا من
ليس له من التصوف إلا مجرد زى وصورة.

أو يكون القوال أمرد تنجذب النفوس إلى النظر إليه، وتستلذ ذلك
وتضمر خواطر السوء، أو يكون للنساء إشراف على الجمع، وتراسل البواطن

الملاوعة من الهوى بسفارة الحركات ورقص وإظهار التواجد، فيكون ذلك عين الفسق للجمع على تحريمه.

فأهل الواخير حينئذ أرجى حالاً ممن يكون هذا ضميره وحركاته، لأنهم يرون فسقهم، وهذا لا يراه ويريه عباده لمن لا يعلم ذلك.

أفترى أحداً من أهل الديانت يرضى بهذا ولا ينكره؟

فمن هذا الوجه توجه للمنكر الإنكار، وكان حقيقاً بالاعتذار، فكم من حركات موجبة للمقت، وكم من نهضات تذهب رونق الوقت، فيكون إنكار المنكر على المرید الطالب بمنعه عن مثل هذه الحركات، ويحذره من مثل هذه المجالس وهذا إنكار صحيح.

وقد برقص بعض الصادقين بإيقاع ووزن من غير إظهار وجد وحال، ووجه نيته في ذلك إنه ربما يوافق بعض العقراء في الحركة، فيتحرك به حركة موزونة غير مدع بها حالاً ووجداً، يجعل حركته في طرف الباطل لأنها وإن لم تكن محرمة في حكم الشرع ولكنها غير محللة بحكم الحال لما فيها من اللهو، فتصير حركاته ورقصه من قبيل اللباعات التي تجري عليه من الضحك والمزاح، وملاعبة الأهل والولد.

ويدخل ذلك في باب الترويح للقلب وربما صار ذلك عبادة بحسن البينة إذا نوى به استجمام النفس، كما نقل عن أبي الدرداء أنه قال: إني لأستجم نفسي بشيء من الباطل ليكون ذلك عوناً لي على الحق.

ولوضع الترويح كرهت الصلاة في أوقفت، ليستريح عمال الله، وترتفق النفوس ببعض ما ربحها من ترك العمل، وتستطيب أوطان اللهم.

والأدنى تركيبه للختلف، وترتيب خلقه للتنوع بتنوع أصول خلقته - وقد سبق شرحه في غير هذا الباب - لا تنفي قواه بالصبر على الحق الصراف، فيكون التفسح في أمثال ما ذكرناه من اللباح الذي ينزع إلى لهو ما باطلاً

يستعان به على الحق، فإن الباطح وإن لم يكن باطلاً في حقيقة الشرع، لأن حد الباطح ما استوى طرفاه واعتدل جانباه، ولكنه باطل بالنسبة إلى الأحوال.

ورأيت في بعض كلام سهل بن عبد الله يقول في وصفه للصادق: الصادق يكون جهله مزيداً لعلمه، وباطله مزيداً لحقه، ودنياه مزيداً لأخرته، ولهذا المعنى حبيب إلى رسول الله ﷺ النساء، ليكون ذلك حظ نمسه الشريعة، الوهوب لها حظوظها، الوهر عليها حقوقها، لوضع طهارتها وقيسها، فيكون ما هو نصيب الباطل الصرف في حق الغير من الباطحات المقبولة برخصة الشرع، الردودة بعزيمة الحال في حقه ﷺ متسماً بسمه العبادات.

وقد ورد في فضيلة النكاح ما يدل على أنه عبادة، وذلك من طريق القياس لاشتماله على الصالح الدينية والدينيوية، على ما أطنب في شرحه الفقهاء في مسألة التخلي لنوافل العبادات.

فإذا يخرج هذا الرأى بهذه النية، التبرئ من دعوى الحال في ذلك من زمن إنكار النكر، فيكون رقصه لا عليه ولا له، وربما كان بحسن النية في الترويح بصير عبادة، سيما إن اضمر في نفسه فرحاً بربه، ونظر إلى شمول رحمته وعطفه، ولكن لا يليق الرقص بالشيوخ ومن يقتدى به، لما فيه من مشابهة اللهو، واللهو لا يليق بمنصبهم، ويباين حال المتمكن مثل ذلك.

وأما وجه منع الإنكار في السماع، فهو أن النكر للسماع على الإطلاق من غير تفصيل لا يخلو من أحد أمور ثلاثة: إما جاهل بالسنن والآثار، وإما مغر بما أتيج له من أعمال الأخيار، وإما جامد الطبع لا ذوق له فيصير على الإنكار. وكل واحد من هؤلاء الثلاثة يقابل بما سوف يقبل.

أما الجاهل بالسنن والآثار فيعرف بما أسلفناه من حديث عائشة رضي الله عنها، وبالأخيار والآثار الواردة في ذلك، وفي حرمكة بعض المتحركين

تعرف رخصة رسول الله ﷺ للحبشة في الرقص، ونظر عائشة رضي الله عنها إليهم مع رسول الله ﷺ، هذا إذا سلمت الحركة من الكاره التي ذكرناها.

وقد روى أن رسول الله ﷺ قال لعلي رضي الله عنه: «أنت مني وأنا منك» فخجل. وقال لجعفر: «أشبهت خلقي وخلقي» فخجل. وقال لزيد: «أنت اخونا ومولانا» فخجل. وكان خجل جعفر في قصة ابنة حمزة لما اختصم فيها علي وجعفر وزيد.

وأما النكر للغرور بما أنتج له من أعمال الأخيار فيقال، تقربك إلى الله بالعبادة لشغل جوارحك بها، وتولا نية قلبك ما كان لعمل جوارحك قدر، فإنما الأعمال بالنيات ولكل امرئ ما نوى، والنية لنظرك إلى ربك خوفاً أو رجاء.

فالسامع من الشعر بهتاً يأخذ منه معنى يذكركه ربه، إما فرحاً أو حزناً أو انكساراً أو انتقاراً، كيف يقلب قلبه في أنواع ذلك ذاكرًا لربه. ولو سمع صوت طائر طاب له ذلك الصوت، وتفكر في قدرة الله تعالى وتسويته حنجرة الطائر، وتسخير حلقه، ومنشأ الصوت، وتأديته إلى الأسماع، كان في جميع ذلك الفكر مسبباً مقدساً. فإذا سمع صوت آدمي وحضره مثل ذلك الفكر وامتلأ باطنه ذكراً وفكراً كيف ينكر ذلك.

حكى بعض الصالحين قال: كنت معتكفاً في جامع جده على البحر. فرايت يوماً طائفة يقولون في جانب منه شيئاً فانكرت ذلك بقلبي وقلت في بيت من بيوت الله تعالى يقولون الشعر، فرايت رسول الله ﷺ في المنام تلك الليلة وهو جالس في تلك الناحية وإلى جنبه أبو بكر، وإذا أبو بكر يقول شيئاً من القول والنبي ﷺ يستمع إليه ويضع يده على صدره كالواحد بذلك، فقلت في نفسي: ما كان ينبغي لي أن أنكر على أولئك الذين كانوا يسمعون، وهذا رسول الله ﷺ يسمع وأبو بكر إلى جنبه يقول، فالتفت إلى رسول الله ﷺ وهو يقول هذا حق بحق، أو حق من حق.

هل إذا كان ذلك الصوت من أمرد يخشى بالنظر إليه الفتنة، أو من امرأة غير محرم، وإن وجد من الأذكار والأفكار ما ذكرنا، يحرم سماعه لخوف الفتنة لا لمجرد الصوت، ولكن يجعل سماع الصوت حريم الفتنة، ولكل حرام حريم ينسحب عليه حكم النع لوجه الصلحة، كالتعبلة للشاب الصائم، حيث جعلت حريم حرام الوقاع، وكالخلوة بالأجنبية وغير ذلك. فعلى هذا قد تقتضى الصلحة النع من السماع إذا علم حال السامع وما يؤديه إليه سماعه، فيجعل النع حريم الحرام وهكذا.

وقد ينكر السماع جامد الطبع، عديم الذوق، فيقال له: العنيد لا يعلم لذة الوقاع، والكفوف ليس له بالجمال البارع استمتاع، وغير النصاب لا يتكلم بالاسترجاع، فماذا ينكر من محب تربي باطنه بالشوق والمحبة، ويرى انحباس روحه الطيارة في مضيق فقص النفس الأمانة، يمر بروحه نسيم اتس الأوطان، وتلوح له طوابع جنود العرقان، وهو بوجود النفس في دار الغربة يتجرع كأس الهجران، ينن تحت أعباء المجاهدة، ولا تحمل كمنه سوانح المشاهدة، وكلما قطع منازل النفس بكثرة الأعمال، لا يقرب من كعبة الوصال، ولا يكشف له السبل من الحجاب، فيتروح بنفس الصعداء، ويرتاح باللائح من شدة البرحاء، ويقول مخاطباً للنفس والشيطان وهما المانعان:

أيا حبيلى نعمان بمالله خليفا	نسبهم الصبا يخلص إلى نسيمها
فإن الصبا ربح إذا ما تنسمت	على قلب محزون تجلت همومها
أحد بردها لو تشف منى حريرة	على كبى لم يبق إلا صميمها
إلا إن أدوائى بليلى قديمسة	واقفل داء العاشقين قديمها

ولعل النكر يقول: هل المحبة إلا امتثال الأمر وهل يعرف غير هذا، وهل هناك إلى الخوف من الله، وينكر المحبة الخاصة التى تختص بالعلماء الراسخين والأبدال القريبين، ولما تقرر هي فهمه القاصر أن المحبة تستدعى

مثالا وخيالا وأجاسا وأشكالا، أنكر محبة القوم، ولم يعلم أن القوم بلغوا في رتب الإيمان إلى أتم من المحسوس، وجادوا من شرط الكشف والعيان بالأرواح والنفوس.

روى أبو هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه ذكر غلاما كان في بني إسرائيل على جبل، فقال لأمه: من خلق السماء؟ قالت: الله، قال: من خلق الأرض؟ قالت: الله، قال: من خلق الجبال؟ قالت: الله، قال: من خلق الغيب؟ قالت: الله، فقال: إني أسمع لله شأنا، ورمى بنفسه من الجبل فتقطع.

فالجمال الأزلي الإلهي منكشف للأرواح غير مكيف للعقل ولا مفسر لفهم، لأن العقل موكل بعالم الشهادة لا يهتدي من الله سبحانه إلا إلى مجرد الوجود، ولا يتطرق إلى حريم الشهود المتجلى في هلي الغيب المكشف للأرواح بلا ريب. وهذه الرتبة من مطالعة الجمال رتبة خاصة، وأعم منها رتبة المحبة الخاصة دون العامة من مطالعة جمال الكمال من الكبرياء والجلال، والاستقلال بالنجح والنوال.

والصفات المنقسمة إلى ما ظهر منها في الأبد ولازم الذات في الأزل، فللكمال جمال لا يدرك بالحواس، ولا يستنبط بالقياس، وهي مطالعة ذلك الجمال أخذ طائفة من المحبين خصوا بتجلى الصفات، ولهم بحسب ذلك ذوق وشوق ووجد وسماع، والأولون منحوا قسطا من تجلى الذات، فكان وحيهم على قدر الوجود، وسماعهم على حد الشهود.

وحكى بعض الشايخ قال: رأينا جماعة ممن يمشى على الماء والهواء يسمعون السماع، ويجلون به، ويتولعون عنده^(١).

وقال بعضهم: كنا على الساحل، فسمع بعض إخواننا هجلا يتقلب على الماء يمره ويحي حتى رجع إلى مكانه^(٢).

ونقل أن بعضهم كان يتقلب على النار عند السماع ولا يحس بها^(٣).

(١، ٢، ٣) هذه كلها روايات مجهولة غير معروفة رتبها ولا من شاهدها وليس لها دليل نقلي أو عقلي يستدل بها.

ونقل أن بعض الصوفية ظهر منه وجد عند السماع، فأخذ شمعة فجعلها في عينه. قال الناقل: قربت من عينه فنظر فرأيت نارا أو نورا يخرج من عينه يرد نار الشمعة.

وحكى عن بعضهم أنه كان إذا وجد عند السماع ارتفع عن الأرض في الهواء أذرعاً يمر ويحيى فيه.

وقال الشيخ أبو طالب الكي رحمه الله في كتابه: إن أبكرنا السماع مجعلاً مطلقاً غير مقيد مفصل يكون إنكاراً على سبحين صليحاً، وإن كنا نعلم أن الإنكار أقرب إلى قلوب القراء والتعبدية، إلا أننا لا نفعل ذلك، لأننا نعلم ما لا يعلمون، وسمعنا عن السلف من الأصحاب والتابعين ما لا يسمعون.

وهذا قول الشيخ عن علمه الوافر بالسنن والآثار، مع اجتهاده وتحريه الصواب، ولكن نبسط لأهل الإنكار لسان الاعتذار، ونوضح لهم الفرق بين سماع يؤثر وبين سماع ينكر.

وسمع الشبلي فأنلنا يقول:

أسائل عن سلمى فهل من مخير يكون له علم بها أين تنزل

فزعم الشبلي وقال: لا والله ما هي الثارين عنه مخير.

وقيل: الوجد سر صفات الباطن، كما أن الطاعة سر صفات الظاهر، وصفات الظاهر الحركة والسكون، وصفات الباطن الأحوال والأخلاق.

وقال أبو نصر السراج: أهل السماع على ثلاث طبقات: فقوم يرجعون في سماعهم إلى مخاطبات الحق لهم فيما يسمعون، وقوم يرجعون فيما يسمعون إلى مخاطبات أحوالهم ومقامهم وأوقاتهم، فهم مرتبطون المجردون الذين قطعوا العلائق ولم تتلوث قلوبهم بمحبة الدنيا والجمع والتبع، فهم يسمعون لطيفة قلوبهم، ويليق بهم السماع، فهم أقرب الناس إلى السلامة،

وأسلمهم من الفتنة، وكل قلب ملوث بحب الدنيا فسماعه سماع طبع وتكلف.

وسئل بعضهم عن التكلف في السماع فقال، هو على ضربين، تكلف في السمع لطلب جاه أو منفعة دنيوية، وذلك تلبيس وخيانة، وتكلف فيه لطلب الحقيقة، كمن يطلب الوجد بالتواجد، وهو بمنزلة التباسكي المنسوب إليه.

وقول القائل إن هذه الهيئة من الاجتماع بدعة، يقال له، إنما البدعة المحذورة الممنوع منها بدعة تزاحم سنة مأمورا بها، وما لم يكن هكذا فلا بأس به، وهذا كالقيام للدخول لم يكن، فكان في عادة العرب ترك ذلك حتى نقل أن رسول الله ﷺ كان يدخل ولا يقام له^(١).

وهي البلاد التي فيها هذا القيام لهم عادة إذا اعتمد ذلك لتطهير القلوب والدلالة لا بأس به، لأن تركه يوحش القلوب ويوغر الصدور، فيكون ذلك من قبيل العشرة وحسن الصحبة، ويكون بدعة لا بأس بها، لأنها لم تزاحم سنة مأمورة.

(١) سبق ذكر خلاف ذلك فكانوا في بعض الأحيان يقومون، وكان الرسول ﷺ يقوم لبعضهم كما سبق وذكره المؤلف. ومعنى ذلك أن كلا التصرفين مباح بناء على ما ذكرنا وما ذكر هنا.

الباب الثالث والحشرون في القول في السماع ردا وإنكارا

قد ذكرنا وجه صحة السماع وما يليق منه بأهل الصدق، وحيث كثرت الفتنة بطريقة، وزالت العصمة فيه، وتصدى للحرص عليه أقوام قلت أعمالهم، وفسدت أحوالهم، وأكثروا الاجتماع للسماع، وربما يتخذ للاجتماع طعام تطلب النفوس الاجتماع لذلك لا رغبة للقلوب في السماع، كما كان من سمر الصادقين، فيصير السماع معلولا تركن إليه النفوس طلبا للشهوات، واستحلاء لمواطن اللهو والغفلات، ويقطع ذلك على المرید طلب المزيد، ويكون بطريقة تضويع الأوقات، وقللة الحظ من العبادات، وتكون الرغبة في الاجتماع طلبا لتناول الشهوة واسترواحا لأولى الطرب واللهو والعشرة ولا يخفى أن هذا الاجتماع مردود عند أهل الصدق.

وكان يقال: لا يصح السماع إلا لعارف مكين، ولا يباح لمرید مبتدى، وقال الجنيد رحمه الله تعالى: إذا رأيت المرید يطلب السماع فاعلم أن فيه بقية البطالة.

وقيل: إن الجنيد ترك السماع، فقيل له: كنت تستمع، فقال مع من؟ قيل له: تسمع لنفسك، فقال ممن، لأنهم كانوا لا يسمعون إلا من أهل مع أهل، فلما فقد الإخوان ترك. فما اختاروا السماع حيث اختاروه إلا بشروط وقيود وآداب يذكرون به الآخرة، ويرغبون في الجنة، ويحذرون من النار، ويزداد به طلبهم، وتحسن به أحوالهم، ويتفق لهم ذلك اتفاقا في بعض الأحيان، لا أن يجعلوه دأبا وديننا حتى يتركوا لأجله الأوراد.

وقد نقل عن الشافعي رحمته أنه قال في كتاب القضاء: العساء لهو مكروه يشبه الباطل. وقال: من استكثر منه فهو سقيه ترد شهادته.

واتفق أصحاب الشافعي أن المرأة غير المحرم لا يجوز الاستماع إليها، سواء أكانت حرة أو مملوكة أو مكشوفة الوجه أو من وراء حجاب.

ونقل عن الشافعي رحمته الله أنه كان يكره الطقطقة بالقضيب ويقول: وضعه الزنادقة ليشتغلوا به عن القرآن. وقال: لا بأس بالقراءة بالألحان وتحسين الصوت بها بأي وجه كان.

وعند مالك رحمته الله إذا اشترى جارية فوجدها مغنية فله أن يردها بهذا العيب، وهو مذهب سائر أهل النجدة.

وهكذا مذهب الإمام أبي حنيفة رحمته الله.

وسماع الغناء من الذنوب وما أباحه إلا نفر قليل من الفقهاء، ومن أباحه من الفقهاء أيضا لم ير إعلانا له في المساجد والبقاع الشريفة.

وقيل في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ﴾ ^(١) قال عبد الله بن مسعود رحمته الله، هو الغناء والاستماع إليه.

وقيل في قوله تعالى: ﴿وَأنتُمْ سَمِيعُونَ﴾ ^(٢) أي مغنون. رواه عكرمة عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، وهو الغناء بلغة حمير، يقول أهل اليمن، سمع فلان إذا غنى.

وقوله تعالى: ﴿وَأَسْتَفِرِّزُ مَنِ اسْتَطَاعَتْ مِنْهُم بِصَوْتِكَ﴾ ^(٣) قال معاهد، الغناء والزامير.

وروى عن رسول الله ﷺ أنه قال «كان إبليس أول من ناح وأول من تغنى».

(١) سورة لقمان، آية ٦.

(٢) سورة الحج، آية ٦١.

(٣) سورة الإسراء، آية ٦٤.

وروى عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إيما نهيت عن صوتين فأجرتين: صوت عند نعمة، وصوت عند مصيبة».

وقد روى عن عثمان رضي الله عنه أنه قال: ما غنيت ولا تعنيت، ولا مسست ذكرى يميني منذ بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وروى عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال: الغناء ينبت البفاق في القلب.

وروى ابن ابن عمر رضي الله عنه مر عليه قوم وهم محرمون وفيهم رجل يتغنى، فقال: ألا لا سمع الله لكم، ألا لا سمع الله لكم.

وروى أن إنسانا سأل القاسم بن محمد عن الغناء فقال: أنهاك عنه وأكبره لك، قال: أحرام هو؟ قال: أنظر يا ابن أخي إذا ميز الله الحق من الباطل في أيهما يجعل الغناء.

وقال الفضيل بن عياض: الغناء رفية زنا.

وعن الضحاك: الغناء مفسدة للقلب، مسخطة للرب.

وقال بعضهم: إياك والغناء فإنه يزيد الشهوة، ويهدم الروعة، وإنه لينوب عن الخمر، ويفعل ما يفعل السكر.

وهذا الذي ذكره هذا القائل صحيح، لأن الطبع للوزون يفوق بالغناء والأوزان، ويستحسن صاحب الطبع عند السماع ما لم يكن يستحسنه من الفرقة بالأصابع والتصفيق والرقص، وتصدر منه أفعال تدل على سخافة العقل.

وروى عن الحسن أنه قال: ليس الف من سنة المسلمين.

والذي نقل عن رسول الله ﷺ أنه سمع الشعر لا يدل على إباحة الغناء، فإن الشعر كلام منظوم وغيره كلام منثور، فحسنه حسن وقبحه قبيح، وإنما يصير غناء بالألحان.

وإن أنصف النصف وتفكر في اجتماع أهل الزمان، وقعود الغنى بدفه والشعب بشبابته، وتصور في نفسه هل وقع مثل هذا الجلوس والهيئة بحضرة رسول الله ﷺ، وهل استحضروا قوالا وأعدوا مجتمعين لاستماعه، لا شك بأنه ينكر ذلك من حال رسول الله ﷺ وأصحابه.

ولو كان في ذلك فضيلة تطلب ما أهملوها. فمن يشر بأنه فضيلة تطلب ويجتمع لها لم يحظ بنوع معرفة أحوال رسول الله ﷺ وأصحابه والتابعين، واستروح إلى استحسان بعض التأخرين ذلك، وكثيرا ما يغلط الناس في هذا. وكلما احتج عليهم بالسلف للماضيين يحتجون بالتأخرين، وكان السلف أقرب إلى عهد رسول الله ﷺ، وهدى رسول الله ﷺ وكثير من الفقهاء يستمع عند قراءة القرآن بأشياء من غير غلبة.

قال عبد الله بن عروة بن الزبير، قلت لحدثي أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما، كيف كان أصحاب رسول الله ﷺ يفعلون إذا قرئ عليهم القرآن؟ قالت: كانوا كما وصفهم الله تعالى تسمع أعينهم وتتشعر جلودهم. قال قلت: إن ناسا اليوم إذا قرئ عليهم القرآن خر أحدهم مغشيا عليه، قالت: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

وروي أن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما مر برجل من أهل العراق يتساقط، قال: ما لهذا قالوا: إنه إذا قرئ عليه القرآن وسمع ذكر الله تعالى سقط، فقال ابن عمر رضي الله عنهما، إنا لنخشى الله وما نسقط. إن الشيطان يدخل في جوف أحدهم، ما هكنا مكان يصنع أصحاب رسول الله ﷺ.

وذكر عند ابن سيرين الذين يصرعون إذا قرئ القرآن، فقال: بيننا وبينهم أن يقعد واحد منهم على ظهر بيت باسطا رجله ثم يقرأ عليه القرآن من لوله إلى آخره، فإن رمى بنفسه فهو صادق.

وليس هذا القول منهم إنكارا على الإطلاق، إذ يتفق ذلك لبعض الصادقين، ولكن للتصنع التوهم في حق الأكثرين، وقد يكون ذلك من البعض تصنعا ورياء، ويكون من البعض نقصور علم ومغامرة جهل ممزوج بهوى، ولم بأحدهم يسر من الوجد فيتبعه بزيادات يجهل أن ذلك يضر دينه، وقد لا يجهل أن ذلك من النفس، ولكن النفس تسترق السمع استراقا خفيا، تخرج الوجد عن الحد الذي ينبغي أن يقف عليه، وهذا يبين الصدق.

نقل أن موسى عليه السلام وعظ قومه، فشق منهم رجل قميصه، فقبل موسى عليه السلام، قل لصاحب القميص لا يشق قميصه ويشرح قلبه.

وأما إذا انضاف إلى السماع أن يسمع من أمرد، فقد توجهت الفتنة، وتعين على أهل الديانات إنكار ذلك.

قال بقرية بن الوليد، كانوا يكرهون النظر إلى الغلام الأمرد الجميل.

وقال عطاء: كل نظرة بهواها القلب فلا خير فيها.

وقال بعض التابعين، ما أنا أخوف على الشاب القانيب من السبع الضاري خوفاً عليه من الغلام الأمرد يقعد إليه.

وقال بعض التابعين أيضاً اللوطية على ثلاثة أصناف، صنف ينظرون، وصنف يضافحون، وصنف يعملون ذلك العمل.

فقد تعين على طائفة الصوفية اجتنب مثل هذه الجماعات واتقاء مواضع التهم، فإن التصوف صلق كله، وجد كله.

يقول بعضهم: التصوف كله جد فلا تخلصوه بشيء من الهزل.

فهذه الآثار دلت على اجتناب السماع وأخذ الحذر منه. والباب الأول بما فيه دل على جوازها بشرائطها، وتنزيهها عن الكارم التي ذكرناها.

وقد فصلنا القول وفرقنا بين القصائد والغناء وغير ذلك.

وكان جماعة من الصالحين لا يسمعون، ومع ذلك لا ينكرون على من يسمع بنية حسنة وبراعى الأدب فيه.

الباب الرابع والحشرون في القول في السماع ترفعا واستغناء

اعلم أن الوجد يشعر بسابقة فقد، فمن لم يفقد لم يجد، وإنما كان
الفقد لزاحمة وجود العبد بوجود صفاته وبقاياه، فلو تمحض عبدا لتمحض
حرا، ومن تمحض حرا لفلت من شرك الوجد. فشرك الوجد يصطاد البقايا،
ووجود البقايا لتخلف شيء من العطلية.

قال الحصري رحمه الله، ما نون حال من يحتاج إلى مزعج يزعجه.

فالوجد بالسماع في حق للحق، كالوجد بالسماع في حق المبطل من
حيث النظر إلى انزعاجه وتأثير الباطن به، وظهور اثره على الظاهر، وتغييره
للعبد من حال إلى حال. وإنما يختلف الحال بين الحق والمبطل. إن المبطل
يجد لوجود هوى النفس، والحق يجد لوجوده إرادة القلب، ولهذا قيل: السماع
لا يحدث في القلب شيئا وإنما يحرك ما في القلب فمن تعلق باطنه بغير الله
بهركه السماع فيجد بالهوى، ومن تعلق باطنه بمحبة الله يجد بالإرادة
إرادة القلب. فالمبطل محجوب بحجاب النفس، والحق محجوب بحجاب القلب،
وحجاب النفس حجاب أرضى ظلماني، وحجاب القلب حجاب سماوى نوراني.
ومن لم يفقد بدوام التحقق بالشهود ولا يتعثر بأذيال الوجود، فلا يسمع
ولا يجد.

ومن هذه المطالعة قال بعضهم: الوجد نار دم مكلى لا ينفذ في قول.

ومر مشاد الدينوري رحمه الله بقوم فيهم قول، فلما راوه أمسكوا،
فقال ارجعوا إلى ما كنتم فيه، فوالله لو جمعت ملاهى الدنيا في أدنى ما
شغل همى ولا شفى ما بى.

فالوحد صراخ الروح للبلى بالنفس تارة في حق للبطل، وبالقلب تارة في حق المحق، فثمار الوحد الروح الروحاني في حق المحق والمبطل، ويكون الوحد تارة من فهم للعاني يظهر، وتارة من مجرد النغمات والألحان. فما كان من قبيل العاني تشارك النفس الروح في السماع في حق المبطل، ويشارك القلب في حق المحق، وما كان من قبيل مجرد النغمات، تتجرد الروح للسمع، ولكن في حق المبطل تسترق النفس السمع، وفي حق المحق يسترق القلب السمع. ووجه استئثار الروح النغمات لأن العالم الروحاني مجمع الحسن والجمال، ووجود التناسب في الأكوان مستحسن قولاً وفعلًا، ووجود التناسب في الهياكل والصور ميراث الروحانية، فمتى سمع الروح النغمات اللذيذة، والألحان المناسبة، تأثر به لوجود الجنسية، ثم يتقيد ذلك بالشرع بمصالح عالم الحكمة، ورعاية الحدود للعبد عين الصلحة عاجلاً وأجلاً.

ووجه آخر، إنما يستلذ الروح النغمات لأن النغمات بها تطلق النفس مع الروح بالإيماء الخفي إشارة ورمزا بين التعاشقين، وبين النفوس والأرواح تعاشق أصلي، ينزع ذلك إلى أنوثة النفس وذكرورة الروح، والميل والتعاشق بين الذكر والأنثى بالطبيعة واقع. قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾^(١) وفي قوله سبحانه (منها) إشعار بتلازم وتلاصق موجب للالتفاف والتعاشق والنغمات تستلذها الروح، لأنها مناغاة بين التعاشقين.

وكما أن في عالم الحكمة كونت حواء من آدم، ففي عالم القلرة كونت النفس من الروح الروحاني، فهنا التآلف من هذا الأصل، وذلك أن النفس روح حيواني تجنس بالقرب من الروح الروحاني. وتجنسها بأن امتازت من أرواح جنس الحيوان بشرف القرب من الروح الروحاني، فصارت نفساً، فإذا تكون النفس من الروح الروحاني في عالم القلرة، كتكون حواء من آدم في عالم الحكمة. فهنا التآلف والتعاشق، ونسبة الأنوثة والذكورة من ههنا ظهر،

(١) سورة الأعراف آية ١٨٩.

وبهذا الطريق استطابت الروح النعمات لأنها مرسلات بين المتعاشقين، ومكاملة بينهما. وقد قال القائل:

تكلم منا في الوجود عيوننا فنحن سكوت والهوى يتكلم
فإذا استلذ الروح النعمة، وجئت النفس العلولة بالهوى، وتحركت بما
فيها لحبوت العارض، ووجد القلب العلول بالإرادة، وتحرك بما فيها لوجود
العارض في الروح.

شربنا وأهرقنا على الأرض وللأرض من كاس الكرام نصيب
فنفس البطل أرض لسماء قلبه، وقلب الحق أرض لسماء روحه. قالبالغ
مبلغ الرجال، والمتجوهر للتجرد من أعراض الأحوال، خلع نعلى النفس
والقلب بالوحدى للقدس، وفي مقعد صدق عند مليك مقتدر استقر وعرس،
وحرق بنور العيان أجرام الألحان، ولم تصغ روحه إلى مناغاة عاشقه، لشغله
بمخالعة آثار محبوبه. قالهائم للشتاق لا يسعه كشف ظلامه العشاق.

ومن هذا حاله لا يحركه السماع رأسا، وإذا كانت الألحان لا تلحق
هذا الروح مع لطافة مناجاتها وخفى لطف مناغاتها، كيف يلحقه السماع
بطريق فهم للعانى وهو أكثف، ومن يضعف عن حمل لطيف الإشارات
كيف يتحمل ثقل أعباء العبارات.

واقرب من هذا عبارة تقرب إلى الأفهام، الوجد ورد برد من الحق
سبحانه وتعالى، ومن يريد الله لا يقنع بما من عند الله، ومن صار في محل
القرب متحققا به لا يلهيه ولا يحركه ما ورد من عند الله. فالوارد من عند
الله مشعر ببعد، والقريب واحد فما يصنع بالوارد. والوجد نار والقلب للواجد
ربه نور، والنور اللطف من النار، والكثيف غير مسيطر على اللطيف.

فما دام الرجل البالغ مستمرا على جلادة استقامته، غير منحرف عن
وجه معهوده بنوازع وجوده لا يلركه الوجد بالسماع، فإن دخل عليه فتور

أو عاقبه قصور بدخول الابتلاء عليه من لبلى المحسن، يتألف المحن من تفريق صور الابتلاء، أى يدخل عليه وجود يتركه الواحد لعود العبد عند الابتلاء إلى حجاب القلب، فمن هو مع الحق إذا زل وقع على القلب، ومن هو مع القلب إذا زل وقع على النفس.

سمعت بعض مشايخنا يحكى عن بعضهم أنه وجد من السماع، فقيل له، أين حالك من هذا؟ فقال، دخل على داخل أوردنى هذا للورد.

قال بعض أصحاب سهل: صحبت سهلاً سنين ما رأيت تغيير عند شيء كان يسمعه من الذكر والقرآن، فلما كان فى آخر عمره قرئ عليه ﴿فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ﴾^(١) فارتعد وكاد يسقط، فسأله عن ذلك، قال: نعم لحقنى ضعف. وسمع مرة ﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ﴾^(٢) فاضطرب، فسأله ابن سالم وكان صاحبه، قال: قد ضعفت، فقيل له، إن كان هذا من الضعف فما القوة؟ قال، القوة أن الكامل لا يرد ولرد إلا يبتلعه بقوة حاله فلا يغيره الورد.

ومن هذا القبيل قول أبى بكر رضي الله عنه: هكنا مكنا حتى قست القلوب، لما رأى الباسكى يبكى عند قراءة القرآن. وقوله: قست، أى تصلبت وأدمنت سماع القرآن وألفت أنواره فما استعربت حتى تغير.

والواجب كالمستغرب، ولهذا قال بعضهم: حالى قبل الصلاة كحالى فى الصلاة، إشارة منه إلا استمرار حال الشهود، فهكنا فى السماع كقبل السماع.

وقد قال الجنيد، لا يضر نقصان الوجد مع فضل العلم، وفضل العلم أتم من فضل الوجد.

(١) سورة الحديد، آية ١٥.

(٢) سورة المرقان، آية ٢٦.

وبلغنا عن الشيخ حماد رحمه الله أنه كان يقول: البكاء من بقية الوجود، وكل هذا يقرب البعض من البعض في المعنى لأن عرف الإشارة فيه وفهم، وهو عزيز الفهم، عزيز الوجود.

واعلم أن للهاكين عند السماع مواجيد مختلفة. فمنهم من يبكي خوفاً، ومنهم من يبكي شوقاً، ومنهم من يبكي فرحاً، كما قال القائل:

هفج السرور على حتى أنسى من عظم ما قد سرني أهكاني

قال الشيخ أبو بكر الكتاني رحمه الله سماع العوام على متابعة الطبع، وسماع الرهبين رغبة ورهبة، وسماع الأولياء رؤية الآلاء والنعماء، وسماع العارفين على الشاهدة، وسماع أهل الحقيقة على الكشف والعيان، ولكل واحد من هؤلاء مصير ومقام.

وقال أيضاً: للوارد تردد فتصانف شكلاً أو موافقاً، فأى وارد صانف شكلاً مازجه، وأى وارد صانف موافقاً ساكنه، وهذه كلها مواجيد أهل السماع، وما ذكرناه حال من ارتفع عن السماع، وهذا الاختلاف منزل على اختلاف المقام البكاء التي ذكرناها من الخوف والشوق والفرح، ولعلها بكاء الفرح بمنابة قادم يقدم على أهله بعد طول غربته، فعند رؤية أهل يبكي من قوة الفرح وكثرته.

وهي البكاء رتبة أخرى أعز من هذه، يعز ذكرها، ويكر نشرها، لقصور الأفهام عن إدراكها، فربما يقابل ذكرها بالإتكاف، ويخفى بالاستكبار، ولكن يعرفها من وجبها قديماً ووصولاً، أو فهمها نظراً كثيراً ومثولاً، وهو بكاء الوجدان، غير بكاء الفرح، وحدث ذلك في بعض مواطن حق اليقين، ومن حق اليقين في الدنيا لما امت يسيروا، فيوجد البكاء في بعض مواطنه، لوجود تغاير وتباين بين الحدث والقديم، فيكون البكاء رشحاً هو من وصف الحدان لو هج سطوة عظمة الرحمن.

ويقرب من ذلك مثلاً في شاهد قطر الغمام يتلاقى مختلف الأجرام.
وهنا وإن عز مشعر ببقية تقترح في صرف، لفناء.

نعم قد يتحقق العبد في الفناء متجرداً عن الآثار، منغمساً في الأنوار، ثم يرتقى منه إلى مقام البكاء، ويرد إليه الوجود مظهرًا، فتعود إليه الأقسام البكاء خوفاً وشوقاً وفرحاً ووجعاً، بمشاكل صورها، ومباينة حقائقها، بفرق لطيف يتركه أربابه، وعند ذلك يعود عليه من السماع أيضاً قسم، وذلك القسم مقنن له، مقهور معه، يأخذه إذا أراد.

ويرد إذا أراد، ويكون هذا السماع من التمكن بنفس اطمأنث واستنارت، وبابنت طبيعتها، واكتسبت طمانينتها، واكسبها الروح معنى منه، فيكون سماعه نوع تمتع للنفس، كتمتعها بمباحات اللذات والشهوات، لأن يأخذ السماع منه أو يزيد به، أو يظهر عليه منه أثر، فتكون النفس في ذلك بمثابة الطفل في حجر الوالد، بفرحه في بعض الأوقات ببعض مآربه.

ومن هذا القبيل ما نقل أن أبا محمد الراسي كان يشغل أصحابه بالسماع، وينعزل عنهم ناحية يصلي، فقد تطرق هذه النغمات مثل هذا للصلى فتبدل إلى إليها النفس متنعمة بذلك، فيزداد مورد الروح من الأنس صفاء عند ذلك، لبعد النفس عن الروح في تمتعها، فإنها مع طمانينتها بوصف من الأجنبية بوضعها وجيلتها، وفي بعدها توهج الأقسام الروح من الفتوح، ويكون طروق الألحان سمعه في الصلوة، غير محيل بينه وبين حقيقة المناجاة، ولهم تنزيل الكلمات وتصل الأقسام إلى محالها غير مزاحمة ولا مزاحمة، وذلك كله لسعة شرح الصلوة بالإيمان.

وقله للحسن الثاني.

ولهذا قيل: السماع لقوم كالنوء، ولقوم كالغناء، ولقوم كالروحة.
ومن عود الأقسام البكاء ما روى أن رسول الله ﷺ قال لأبي «اقرأ»، فقال: اقرأ

عليك وعليك انزل؟ فقال «أحب أن أسمع من غيري» فافتتح سورة النساء حتى بلغ قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا ۖ﴾^(١) فإذا عيناه تهللان.

وروى أن رسول الله ﷺ استقبل الحجر واستلمه ثم وضع شفتيه عليه طويلاً يبكي وقال «يا عمر ههنا تسكب العبرات».

والتمكن تعود إليه السام البكاء، وفي ذلك فضيلة سألها النبي ﷺ فقال «اللهم ارزقني عينين هطالتين».

ويكون البكاء في الله، فيكون لله، ويكون بالله وهو الأتم، لعوده إليه بوجود مستأنف موهوب له من الكريم اللنان في مقام البقاء.

الباب الخامس والحشرون في القول في السماع تأديبا واعتناء

ويتضمن هذا الباب أدب السماع، وحكم التخريق وإشارات الشايخ في ذلك، وما في ذلك من الأثر والمحضور.

مبنى التصوف على الصديق في سائر الأحوال، وهو جد كله لا ينبغي لصادق أن يعتمد الحضور في مجمع يكون فيه سماع إلا بعد أن يخلص النية لله تعالى، ويتوقع به مزيدا في لائقته وطلبه، ويحذر من ميل النفس لشيء من هواها، ثم يقدم الاستخارة للحضور، ويسأل الله تعالى إذا عزم الحركة فيه، وإذا حضر يلزم الصديق والوفاء بسكون الأطراف.

قال أبو بكر الكتاني رحمه الله: السمع يجب أن يكون في سماعه غير مستروح إليه، يهيج منه السماع وجدا أو شوقا أو غلبة أو وراة، والورد عليه يفنيه عن كل حركة وسكون، فيتقى الصادق استدعاء الوجد، ويجتنب الحركة فيه مهما أمكن سيما بحضرة الشيوخ.

حكى أن شابا كان يصحب الجنيد رحمه الله، وكلما سمع شيئا زعق وتغير فقال له يوما: إن ظهر منك شيء بعد هذا فلا تصحبني، فكان بعد ذلك يصبط نفسه، وربما كان من كل شعرة منه تقطر قطرة عرق، فلما كان يوما من الأيام زعق زعقة فخرج روحه.

فليس من الصديق إظهار الوجد من غير وجد نازل، أو لثناء الحال من غير حال حاصل، وذلك عين النفاق.

قيل: كان النصراني رحمه الله كثير الولع بالسماع، فعوتب في ذلك فقال: نعم هو خير من أن نقعد ونغتابه فقال له أبو عمرو بن بجيد وغيره من إخوانه: هيهات يا أبا القاسم زلة في السماع شر من كذا وكذا سنة نغتاب

الساس، وذلك أن زلة السماع إشارة إلى الله تعالى، وترويح للحال بصريح الحال، وفي ذلك ذنوب متعددة.

منها: أنه يكذب على الله تعالى أنه وهب له شيئاً وما وهب له، والكذب على الله من أقبح الزلات.

ومنها: أن يغتر بعض الحاضرين فيحسن به الظن، والغرور خيانة. قال عليه السلام «من غشنا فليس منا».

ومنها: أنه إذا كان مبطلاً ويرى بعين الصلاح فسوف يظهر منه بعد ذلك ما يفسد عقيدة المعتقد فيه، فيفسد عقيدته في غيره ممن يظن به الخير من أمثاله، فيكون سبباً إلى فساد العقيدة في أهل الصلاح، ويدخل بذلك ضرر على الرجل الحسن الظن مع فساد عقيدته، فينقطع عنه مدد الصالحين ويتشعب من هذا آفات كثيرة يعثر عليها من يبحث عنها.

ومنها: أنه يحوج الحاضرين إلى موافقته في قيامه وقعوده، فيكون متكافياً مكافياً للناس بهاطله، ويكون في الجمع من يرى بنور الفراسة أنه مبطل، ويحمل على نفسه اللوامة للجمع من وراء، ويكثر شرح الذنوب في ذلك، يلتقي الله ربه ولا يتحرك إلا إذا صارت حركته حركة الترتعش الذي لا يجد سبيلاً إلى الإمساك، وكالعاطس الذي لا يقدر أن يرد العطسة، وتكون حركته بمثابة النفس الذي يدعو إليه داعية الطبع قهراً.

قال السري: شرط الواحد في زعقته أن يبلغ إلى حد لو ضرب وجهه بالسيف لا يشعر فيه بوجه. وقد يقع هذا لبعض الواجبين نادراً، وقد لا يبلغ الواحد هذه الرتبة من الغيبة، ولكن زعقته تخرج كالتنفس بنوع إرادة ممزوجة بالاضطرار، فهذا الضبط من رعاية الحركات ورد الزعقات، وهو في تمزيق الثياب أكد، فإن ذلك يكون إتلاف لال، وإتفاق المحال.

وهكذا رمى الخرقعة إلى الحادى لا ينبغي أن يفعل إلا إذا حضرته نية
يجتنب فيها التكلف والمراعاة، وإذا حسنت النية فلا بأس بإلقاء الخرقعة إلى
الحادى، فقد روى عن كعب بن زهير أنه دخل على رسول الله ﷺ المسجد
ولنشدته أبياته التي أولها:

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول

حتى انتهى إلى قوله فيها:

إن الرسول لسيف يستضاء به مهتد من سيوف الله مسلول

فقال له رسول الله ﷺ «من أنت؟» فقال: أشهد إلا إله إلا الله وأنشد أن
محمدًا رسول الله، أنا كعب بن زهير، فرمى رسول الله ﷺ بعشرة آلاف، فوجه
إليه: ما كنت لأوثر بنوب رسول الله ﷺ أحدا. فلما مات كعب بعث معاوية
إلى أولاده بعشرين ألفا وأخذ البردة، وهي البردة الباقية عند الإمام الناصر لدين
الله اليوم، عانت بركتها على أيامه الزاهرة.

وللمتصوفة أدب يتعاهدونها، ورعايتها حسن الأدب هي الصحبة
والعاشرة. وكثير من السلف لم يكونوا يعتمدون ذلك، ولكن ككل شيء
استحسنوه وتواظنوا عليه ولا ينكره الشرع لا وجه للإنكار فيه.

فمن ذلك أن أحدهم إذا تحرك في السماع فوقعته منه خرقعة أو نازله
وجد ورمى عمامته إلى الحادى، فاستحسن عندهم موافقة الحاضرين له في
كشف الرأس إذا كان ذلك من متقدم وشيخ. وإن كان ذلك من الشبان في
حضره الشيوخ فليس على الشيوخ موافقة الشبان في ذلك، وينسحب حكم
الشيوخ على بقية الحاضرين في ترك الموافقة للشبان، فإذا سكتوا عن السماع
يرد الواجد إلى خرقته، ويوافق الحاضرون برفع العمام، ثم ردها على
الرؤوس في الحال للموافقة.

والخرقة إذا رميت إلى الحادى هي للحادى إذا قصد إعطاءه إياها، وإن لم يقصد إعطاءها للحادى قليل هي للحادى لأن المحرك هو، ومنه صدر اللوجب لرمى الخرقة. وقال بعضهم: هي للجمع والحادى واحد منهم، لأن المحرك قول الحادى مع بركة الجمع هي إحدت الوجد، وإحدت الوجد لا يتقاصر عن قول القائل فيكون الحادى واحدا منهم في ذلك.

روى أن رسول الله ﷺ قال يوم بدر: من وقف بمكان مكنا فله مكنا، ومن قتل فله مكنا، ومن أسر فله مكنا، فتسارع الشبان وأقام الشيوخ والوجوه عند الرايات، فلما فتح الله على المسلمين طلب الشبان أن يجعل ذلك لهم، فقال الشيوخ: مكنا ظهرا لكم وردء فلا تنهبوا بالغنائم دوننا، فأنزل الله تعالى ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾^(١).

وقيل: إذا كان القول من القوم بجعل كواحد منهم، وإذا لم يكن من القوم فما كان له قيمة يؤثر به، وما كان من خرق الفقراء بقسم بينهم.

وقيل: إذا كان القول أحيرا فليس له منها شيء، وإن كان متبرعا يؤثر بذلك، وكل هذا إذا لم يكن هناك شيخ يحكم، فاما إذا كان هناك شيخ بهاب ويمثل أمره فالشيخ يحكم في ذلك بما يرى، فقد تختلف الأحوال في ذلك. وللشيخ اجتهد في فعل ما يرى، فلا اعتراض لأحد عليه. وإن قلناها بعض المحبين أو بعض الحاضرين فرضى القول والقوم بما رضوا به، وعاد لكل واحد منهم إلى خرقته فلا بأس بذلك. وإذا أصر واحد على الإيثار بما خرج منه لنية له في ذلك يؤثر بخرقته الحادى.

وأما تمزيق الخرقة للجروحة التي مزقها واحد صادق عن غلبة سلبت اختياره، كغلبة النفس، فمن يعتمد إمساكه فنيته في تفرقتها وتمزيقها التبرك بالخرقة، لأن الوجد أثر من آثار فضل الحق، وتمزيق الخرقة لأثر من آثار الوجد، فصارت الخرقة متأثرة بأثر رباتى من حقها أن تفدى بالنفوس وتترك

على الرؤوس إكراها وإعزازه، تضوع لأرواح تجد من ثيابهم يوم القنوم لقرب العهد بالبر، كان رسول الله ﷺ يستقبل الغيث ويترك به ويقول «حديث عهد بربه».

فالخرقة المزقة حليلة العهد، فحكم الجروحة أن تفرق على الحاصرين، وحكم ما يتبعها من الخرق الصحاح أن يحكم فيها الشيخ إن خصص بشيء منها بعض الفقهاء فله ذلك، وإن خرقه خرقاً فله ذلك، ولا يقال هذا تفريط وسرف، فإن الخرق الصغيرة ينتفع بها في موضعها عند الحاجات كالكبيرة.

وروى عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام أنه قال، أهدى لرسول الله ﷺ حلة حرير فأرسل بها إلى، فخرجت فيها فقال لي «ما كنت لأكره لنفسى شيئاً أفضاه لك» فسقطها بين النساء حمراء» وفي رواية، أتته فقلت ما أصنع بها البسها؟ قال، «لا ولكن اجعلها حمراء بين الفواطم» أراد فاطمة بنت أسد، وفاطمة بنت رسول الله ﷺ، وفاطمة بنت حمزة. وفي هذه الرواية أن الهدية كانت حلة مكفوفة بحرير. وهنا وجه في السنة لتمزيق الثوب وجعله خرقاً.

حكى أن الفقهاء والصوفية بنيسابور اجتمعوا في دعوة فوَقعت الخرق، وكان شيخ الفقهاء الشيخ أبا محمد الجويني وشيخ الصوفية الشيخ أبا القاسم القشيري، فقسمت الخرق على عائلتهم، فالتفت الشيخ أبو محمد إلى بعض الفقهاء وقال سراء هنا سرف وإضاعة للمال، فسمع أبو القاسم القشيري، ولم يقل شيئاً حتى فرغت القسمة ثم استلصق الخادم وقال انظر في الجمع من معه سجادة خرق فتنى بها، فجاءه بسجادة ثم أحضر رجلاً من أهل الخبرة فقال، هذه السجادة بكم تشتري في الزاد؟ قال، بلحinar، قال، ولو كانت قطعة واحدة كم تساوي؟ قال، نصف دينار، ثم التفت إلى الشيخ أبي محمد وقال، هذا لا

يسمى إصاعة لئال، والخرقعة للمزقة تقسم على جميع الحاضرين، من كان من الجنس أو من غير الجنس إذا كان حسن الظن بالقوم معتقدا للتبرك بالخرقعة

روى طارق بن شهاب أن أهل البصرة غزوا نهاوند، وأمنهم أهل الكوفة وعلى أهل الكوفة عمار بن ياسر، فظفروا، ولزاد أهل البصرة ألا يقسموا لأهل الكوفة من الغنيمة شيئا، فقال رجل من بني تميم لعمار: أيها الأجدع تريد أن تشاركنا في غنائمنا؟ فكتب إلى عمر بذلك فكتب عمر رضي الله عنه أن الغنيمة لن شهد الواقعة.

ونهب بعضهم إلى أن للجروح من الخرق يقسم على الجمع، وما كان من ذلك صاحبها يعطى للقول، واستدل بما روى عن أبي قتادة قال، لما وضعت الحرب أوزارها يوم حنين، وفرغنا من القوم، قال رسول الله ﷺ «(من قتل قتيلًا لله سابه)» وهذا له وجه في الخرقعة الصحيحة. فلما للجروحة فحكمها إسهام الحاضرين والقسمة لهم. ولو دخل على الجمع وقت القسمة من لم يكن حاضرا قسم له.

روى أبو موسى الأشعري رضي الله عنه قال، لما قدمنا على رسول الله ﷺ بعد خيبر بثلاث فأسهم لنا ولم يسهم لأحد لم يشهد الفتح غيرنا.

ويكره للقوم حضور غير الجنس عندهم في السماع، كمنزهد لا ذوق له من ذلك فينكر ما لا ينكر، أو صاحب دنيا يحوج إلى الدلالة والتكليف، أو متكلف للوجد يشوش الوقت على الحاضرين بتواجده.

أخبرنا أبو زرعة طاهر عن والده أبي الفضل الحافظ القنصی قال، أخبرنا أبو منصور محمد بن عبد الله الطخري بسر جس قال، أخبرنا أبو علي الفضل بن منصور بن نصر الكاغلي السمرقندي بإجازة قال، حدثنا الهيثم بن كليب قال، أخبرنا أبو بكر عمار بن إسحاق قال، حدثنا سعيد بن عامر عن شعبة عن عبد العزيز بن صهيب عن أنس قال، كنا عند رسول الله ﷺ لا نزل عليه

جبريل عليه السلام فقال: يا رسول الله إن فقراء أمتك يدخلون الجنة قبل الأغنياء بنصف يوم وهو خمسمائة عام، ففرح رسول الله ﷺ فقال: هل فيكم من ينشدنا؟ فقال بنو نضلة نعم يا رسول الله فقال هات، فأنشأ الأعرابي:

لقد لسعت حبة الهوى كبدي فلا طيب لها ولا راقى
إلا الحبيب الذي شغفت به فعنده رقيبى وترى

فتواجد رسول الله ﷺ وتواجد الأصحاب معه حتى سقط رداؤه عن منكبيه، فلما فرغوا لوى كل واحد منهم إلى مكانه. قال معاوية بن أبي سفيان: ما أحسن لعبكم يا رسول الله، فقال: مه يا معاوية ليس بكريم من لم يهتز عند سماع ذكر الحبيب. ثم قسم رده رسول الله ﷺ على من حاضرهم بأربعمائة قطعة. فهذا الحديث أورده مسندنا كما سمعناه ووجدناه. وقد تكلم في صحته أصحاب الحديث. وما وجدنا شيئا نقل عن رسول الله ﷺ بشا كل وجد أهل الزمان وسماعهم واجتماعهم وهيئتهم إلا هذا. وما أحسنه من حجة للصوفية وأهل الزمان في سماعهم وتمزيقهم الخرق وقسمتها إن لو صبح والله أعلم. ويخالف سري أنه غير صحيح، ولم أجد فيه ذوق اجتماع النبي ﷺ مع أصحابه وما كانوا يعتمدونه على ما بلغنا في هذا الحديث وبأبي القلب قبوله والله أعلم بذلك.

الباب السادس والعشرون في خاصية الأربعينية التي يتعاهدها الصوفية

ليس مطلوب القوم من الأربعين شيئا مخصوصا لا يطلبونه في غيرها، ولكن لما طرفتهم مخالفت حكم الأوقات أحبوا تقييد الوقت بالأربعين، رجاء أن ينسحب حكم الأربعين على جميع زمانهم، فيكونوا في جميع أوقاتهم مكهينتهم في الأربعين، على أن الأربعين خصت بالذكر في قول رسول الله ﷺ «(من أخلص لله أربعين صباحا ظهرت بذابيح الحكمة من قلبه على لسانه)».

وقد خص الله تعالى الأربعين بالذكر في قصة موسى عليه السلام، وأمره بتخصيص الأربعين بمزيد تبذل. قال الله تعالى: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ قَتْمٍ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَنْ نَعِمَّ لَيْلَةً﴾^(١) وذلك أن موسى عليه السلام وعد بني إسرائيل وهم بمعصية أن الله تعالى إذا أهلك عدوهم واستنقذهم من أيديهم يأتيهم بكتاب من عند الله تعالى، فيه تبيان الحلال والحرام، والحدود والأحكام.

فلما فعل الله ذلك، وأهلك فرعون، سأل موسى ربه الكتاب، فأمره الله تعالى أن يصوم ثلاثين يوما، وهو ذو القعدة، فلما تمت الثلاثون ليلة، أنكر خلوف فمه فتسوك بعود خرنوب، فقالت له اللانكة: كنا نشم من فمك رائحة للسك فأفسدته بالسواك، فأمره الله تعالى أن يصوم عشرة أيام من ذي الحجة، وقال له: أما علمت أن خلوف فم الصائم أطيب عندى من ريح السك، ولم يكن صوم موسى عليه السلام ترك الطعام بالنهار وأكله بالليل، بل طوى الأربعين من غير أكل، فدل على أن خلو المعدة من الطعام أصل كبير في الباب حتى احتاج موسى إلى ذلك مستعينا لمكالة الله تعالى.

والعلوم الدنية هي قلوب النقطتين إلى الله تعالى ضرب من الكالية، ومن انقطع إلى الله أربعين يوما مخلصا متعاهدا نفسه بخفة للعبد، يفتح الله عليه العلوم الدنية، كما أخبر رسول الله ﷺ بذلك غير أن تعيين الأربعين من الدنة هي قول رسول الله ﷺ وهي أمر الله تعالى موسى عليه السلام بذلك والتحديد والتقييد بالأربعين لحكمة فيه، ولا يطالع أحد على حقيقة ذلك إلا الأنبياء إذا عرفهم الحق ذلك أو من يخصه الله تعالى بتعريف ذلك من غير الأنبياء.

ويلوح في سر ذلك معنى والله أعلم، وذلك أن الله تعالى لما أراد بتكوين آدم من تراب قدر التخمير بهذا القدر من العند كما ورد، خمر طينة آدم بيده أربعين صباحا، فكان آدم لما كان مستصلحا لعمارة النرين، وأراد الله تعالى منه عمارة الدنيا.

كما أراد منه عمارة الجنة، يكون من التراب تركيبها يناسب عالم الحكمة والشهادة وهذه النجار الدنيا.

وما كانت عمارة الدنيا تأتي منه وهو غير مخلوق من أجزاء أرضية سفلية بحسب قانون الحكمة فمن التراب كونه، وأربعين صباحا خمر طينه ليبعد بالتخمير أربعين صباحا بأربعين حجابا من الحضرة الإلهية، ومواطن القرب، إذ لو لم يتعوق بهذا الحجاب ما عمرت الدنيا، فتأصل البعد عن مقام القرب فيه لعمارة عالم الحكمة وخلافة الله تعالى في الأرض^(١).

فالتبتل لطاعة الله تعالى والإقبال عليه، والانتزاع عن التوجه إلى أمر العاش بكل يوم يخرج عن حجاب هو معنى فيه مودع، وعلى قدر زوال كل حجاب ينجليب ويتخذ منزلا في القرب من الحضرة الإلهية التي هي مجمع العلوم ومصدرها، فإذا تمت الأربعون ذات الحجب وانصبت إليه العلوم والعارف انصبايا.

(١) هذا اجتهد من المصنف رحمه الله.

ثم العلوم والمعارف هي أعيان انقلبت أنواراً باتصال إكسير نوع العظمة الإلهية بها، فانقلبت أعيان حبيث النفس علوماً إلهامية، وتصلت أجرام حبيث النفس لقبول أنوار العظمة، فلولا وجود النفس وحديثها ما ظهرت العلوم الإلهية، لأن حبيث النفس وعاء وجودي لقبول الأنوار، وما للقلب في ذاته لقبول العلم شيء. وقول رسول الله ﷺ ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه، أشار إلى القلب باعتبار أن للقلب وحياً إلى النفس، باعتبار توجهه إلى عالم الشهادة وله وجه إلى الروح باعتبار توجهه إلى عالم الغيب، فيستمد القلب العلوم للكون في النفس، ويخرجها إلى اللسان الذي هو ترجمانه. فظهور العلوم من القلب لأنها متصلة فيه.

فالقلب والروح مراتب من قرب الله سبحانه وتعالى فوق رتب الإلهام. فالعبد بانقطاعه إلى الله تعالى واعتزال الناس يقطع مسافات وجوده، ويستنبط من معنن نفسه جواهر العلوم. وقد ورد في الخبر «الناس معادن كمعادن الذهب والفضة، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا».

لنفي كل يوم بإخلاصه في العمل لله يكشف طبقة من الطباق الترابية الجاهلية تليق عن الله تعالى، إلى أن يكشف باستكمال الأربعين أربعين طبقة في كل يوم طبقة من أطباق حجابيه. وآية صحة هذا العبد وعلامة تأخره بالأربعين ووفائه بشروط الإخلاص أن يزهد بعد الأربعين في الدنيا، ويتجافى عن دار الضرور، وينيب إلى دار الخلود، لأن الزهد في الدنيا من ضرورة ظهور الحكمة، ومن ثم يزهد في الدنيا ما ظفر بالحكمة، ومن ثم يظفر بالحكمة بعد الأربعين تبين أنه قد اخل بالشروط ولم يخلص لله تعالى، ومن ثم يخلص لله ما عبد الله، لأن الله تعالى أمرنا بالإخلاص كما أمرنا بالعمل، فقال تعالى ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾^(١).

أخبرنا الشيخ طاهر بن أبي الفضل إجازة قال أنا أبو بكر أحمد بن خلف إجازة قال أنا أبو عبد الرحمن السلمي قال أنا أبو منصور الضبعي قال حدثنا محمد بن أنس قال حدثنا حفص بن عبد الله قال حدثنا إبراهيم بن طهمان عن عاصم عن زرعة صفوان بن عسال رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إنا كان يوم القيامة يجرى الإخلاص والشرك يجنون بين يدي الرب عز وجل، فيقول الرب للإخلاص: انطلق أنت وأهلك إلى الجنة، ويقول للشرك: انطلق أنت وأهلك إلى النار».

وبهذا الإسناد قال السلمي: سمعت علي بن سعيد وسأله عن الإخلاص ما هو؟ قال: سمعت محمد بن جعفر الخفاف وسأله عن الإخلاص ما هو؟ قال: سألت أحمد بن بشار عن الإخلاص ما هو؟ قال: سألت أبا يعقوب الشروطي عن الإخلاص ما هو؟ قال: سألت أحمد بن عسان عن الإخلاص ما هو؟ قال: سألت أحمد بن علي الهجيمي عن الإخلاص ما هو؟ قال: سألت عبد الواحد بن زيد عن الإخلاص ما هو؟ قال: سألت الحسن عن الإخلاص ما هو؟ قال: سألت حذيفة عن الإخلاص ما هو؟ قال: سألت النبي ﷺ عن الإخلاص ما هو؟ قال: «سألت جبريل عليه السلام عن الإخلاص ما هو؟ قال: سألت رب العزة عن الإخلاص ما هو؟ قال: هو سر من سرى لوعته قلب من أحببت من عبادي».

فمن الناس من يدخل الخلوة على مراغمة لنفس، لا النفس بطبعها كارهة للخلوة، مبالغة إلى مخالطة الخلق، فإذا أزعجها عن مقام عاداتها، وحبسها عن طاعة الله تعالى، يعقب كل مريرة تدخل عليها خلوة في القلب.

قال ذو النون رحمه الله: لم أر شيئا أبعث على الإخلاص من الخلوة، ومن أحب الخلوة فقد استمسك بعمود الإخلاص، وظفر بركن من أركان الصديق.

وقال الشبلي رحمه الله لرجل استوصاه الزم الوحشة، وامح اسمك عن القوم، واستقبل الجنار حتى تموت.

قال يحيى بن معاذ رحمه الله: ألوحدة منهية الصليقيين.

ومن الناس من ينبعث من باطنه داعية الخلوة، وتتجذب النفس إلى ذلك، وهذا أتم وأكمل وأدل على كمال الاستعداد.

وقد روى من حال رسول الله ﷺ ما يدل على ذلك فيما حدثنا ضياء الدين أبو النجيب إسماعيل قال أخبرنا الحافظ إسماعيل بن أحمد القرطبي قال أنا جعفر بن الحكاك الكوفي قال أنا أبو عبد الله الصنعاني قال أنا أبو عبد الله البغوي قال أنا إسحاق النخعي قال أنا عبد الرزاق عن معمر قال أخبرني الزهري عن عروة عن عائشة رضي الله عنها قالت: «أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حبيب إليه الخلاء، فكان يأتي حرًا فيتحنث فيه الليالي ذوات العدد ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خبيجة فيتزود لمثلها، حتى جاءه الحق وهو في غار حراء، فجاءه الملك فيه فقال: اقرأ، فقال رسول الله ﷺ: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني الثالثة حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال: ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝﴾ حتى بلغ ﴿مَا لَمْ يَعْزَمْ ۝﴾^(١)، فرجع بها رسول الله ﷺ ترجف بوعدة، حتى دخل على خبيجة فقال: زملوني، فزملوه حتى ذهب عنه الروع، فقال لخبيجة: ما لي وأخبرها الخبر، فقال: قد خشيت على عقلي، فقالت: كلا أبشر، فوالله لا يخزيك الله أبدا، إنك لتصل الرحم، وتصلق الحديث، وتحمل الكل، وتكسب المعصوم، وتقري الضيف، وتعين على نواقب الحق. ثم انطلقت به خبيجة حتى أتت ورقة بن نوفل، وكان امرأ تنصر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العربي، ويكتب من الإنجيل بالعربية ما شاء الله أن يكتبه وكان شيخا كبيرا قد عمى، فقالت له

خليجة، يا عم اسمع من ابن أخيك فقال ورقة: يا ابن أخى ماذا ترى؟ فأخبره
الخير رسول الله ﷺ، فقال لرسول الله ﷺ: هذا هو الناموس الذى أنزل على
موسى، يا ليتنى جذعا، ليتنى فيها ككون حيا حين يخرجك قومك فقال
رسول الله ﷺ: لو مخرجى هم؟ قال ورقة: نعم إنه لم يأت أحد قط بما جئت به
إلا عودى ولودى وإن يدركنى يومك أتصرك نصرا مؤزرا».

وحدث جابر بن عبد الله ؓ قال: سمعت رسول الله ﷺ وهو يحدث عن
فترة الوحي فقال فى حديثه «فبينما أنا أمشى سمعت صوتا من السماء
فرفعت رأسى فإذا ذلك الذى جاءنى بجراة جالس على كرسى بين السماء
والأرض، فجئنت منه رعبا، فرجعت فقلت زملونى زملونى، فذكرونى
فأنزل الله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ﴾ إلى ﴿وَالرُّجْزَ فَأَهْجُرْ﴾^(١).

وقد نقل ابن رسول الله ﷺ ذهب مرثرا كى يردى نفسه من شواهق
الجبال، فكما وهى نروة جبل لى يلقى نفسه تهبى له جبرائيل عليه السلام،
فقال: يا محمد إنك لرسول الله حقا، فهسكن لذلك جأشه، وإذا طالت عليه فترة
الوحي عاد لمثل ذلك، فيتهدى له جبريل فيقول له مثل ذلك.

فهذه الأخبار النبنة عن بدء أمر رسول الله ﷺ هى الأصل فى إثبات الشايخ
الخلوة للمريدين والطلابين فإنهم إذا أخلصوا الله تعالى فى خلواتهم يفتح الله
عليهم ما يؤنسهم فى خلوتهم تعويضا من الله إياهم عما تركوا لأجله.

ثم خلوة القوم مستمرة وإنما الأربعون واستكمالها له أثر ظاهر فى ظهور
مبادئ بشارت الحق سبحانه وتعالى وسنوح موهبه السنية.

الباب السابع والحشرون في ذكر فتوح الأربعينية

وقد غلط في طريق الخلوة والأربعينية قوم وحرّفوا الكلم عن مواضعه ودخل عليهم الشيطان، وفتح عليهم بابا من العرور، ودخلوا الخلوة على غير أصل مستقيم من تأدية حق الخلوة بالإخلاص، وسمعوا أن المشايخ والصوفية كانت لهم خلوات، وظهرت لهم وقائع، وكوشفوا بغرائب وعجائب، فدخلوا الخلوة لطلب ذلك، وهذا عين الاعتلال ومحض الضلال. وإنما القوم اختاروا الخلوة والوحدة لسلامة الدين، وتفقد أحوال النفس، وإخلاص العمل لله تعالى.

نقل عن أبي عمرو الأنماطي أنه قال، لن يصفو للعاقل فهم الأخير إلا بإحكامه ما يجب عليه من إصلاح الحال الأول والواطن التي ينبغى أن يعرف منها أمزجاده هو أم منتقص، فعليه أن يطلب مواضع الخلوة لكي لا يعارضه شائيل فيفسد عليه ما يريد.

أثبانا طاهر بن أبي الفضل إجازة عن أبي بكر بن خلف إجازة قال أثبانا أبو عبد الرحمن قال سمعت أبا تميم الغريبي يقول: من اختار الخلوة على الصحبة فينبغى أن يكون خاليا من جميع الأفكار إلا ذكر ربه عز وجل، وخاليا من جميع الرفات إلا مراد ربه، وخاليا من مطالبه النفس من جميع الأسباب، فإن لم يكن بهذه الصفة فإن خلوته تواقع في فتنة أو بلية.

أخبرنا أبو زرعة إجازة قال لنا أبو بكر إجازة قال أنا أبو عبد الرحمن قال سمعت منصورا يقول سمعت محمد بن حامد يقول: جاء رجل إلى زيارة أبي بكر الوراق وقال له: أوصني، فقال: وجبت خير الدنيا والآخرة في الخلوة والقلة، ووجبت شرهما في الكثرة والاختلاط فمن دخل الخلوة معتلا في دخوله دخل عليه الشيطان، وسول له أنواع الطغيان، وامتلأ من ضرور

والحال، فظن أنه على حسن الحال، فقد دخلت المتنّة على قوم دخلوا
الخلوة بعير شروطها، وأقبلوا على ذكر من الأذكار، واستجمعوا نفوسهم
بالعزلة عن الخلوة، ومنعوا الشواغل من الحواس كفعل الرهابين والبراهمة
والفلاسفة.

والوحدة في جمع الهم لها تأثير في صفاء الباطن مطلقاً، فما كان من
ذلك بحسن سياسة الشرع وصدق المتابعة لرسول الله ﷺ أنتج تنوير القلب،
والزهد في الدنيا، وحلاوة الذكر، والعاملة لله بالإخلاص من الصلاة
والتلاوة وغير ذلك، وما كان من ذلك من غير سياسة الشرع ومتابعة رسول
الله ﷺ ينتج صفاء في النفس يستعان به على اكتساب علوم الرياضة مما
يعتنى به الفلاسفة والمهريون خذلهم الله تعالى.

وكلما أكثر من ذلك بعد عن الله، ولا يزال القلب على ذلك يستفويه
الشيطان بما يكتسب من العلوم الرياضية، أو بما قد يترأى له من صدق
الخاطر وغير ذلك، حتى يركن إليه الركون التام، ويظن أنه فاز بالمقصود،
ولا يعلم أن هذا الفس من الفائدة غير ممنوع من النصارى والبراهمة، وليس
هو المقصود من الخلوة بقول بعضهم إن الحق يريد منك الاستقامة وأنت
تطلب الكرامة

وقد يفتح على الصادقين من خوارق العادات وصدق الفراسة، ويتبين
ما سيحدث في المستقبل، وقد لا يفتح عليهم ذلك، ولا يقدح في حالهم عدم
ذلك، وإنما يقدح في حالهم الانحراف عن حد الاستقامة، فما يفتح من ذلك
على الصادقين يصير سبباً لمزيد إيقانهم، والداعي لهم إلى صدق المجاهدة
والعاملة والزهد في الدنيا والتخلق بالأخلاق الحميدة.

وما يفتح من ذلك على ما ليس تحت سياسة الشرع يصير سبباً لمزيد
بعده وغروره وحمافته، واستطالته على الناس وازدراءه بالخلق، ولا يزال به
حتى يخلع ربة الإسلام عن عنقه، وينكر الحدود والأحكام والحلال والحرام،

ويطعن أن المقصود من العبادات ذكر الله تعالى، ويترك متابعة فرسول ﷺ، ثم يتدرج من ذلك إلى تلحد وتزندق، نعوذ بالله من الضلال.

وقد يلوح لأقوام خيالات يظنونها وقائع، ويشبهونها بوقائع المشايخ من غير علم بحقيقة ذلك، فمن أراد تحقيق ذلك فليعلم أن العبد إذا اخلص لله واحسن نيته وقعد في الخلوة أربعين يوما أو أكثر، فمنهم من يباشر باطنه صفو اليقين، ويرفع الحجاب عن قلبه، ويصير كما قال قائلهم راي قلبي ربي.

وقد يصل إلى هذا المقام نارة بإحياء الأوقات بالصالحات، وكف الجوارح، وتوزيع الأوراد من الصلاة والتلاوة والذكر على الأوقات، ونارة يبادنه الحق لموضع صدقه، وقوة استعداده ومبادئه، من غير عمل وجد منه، ونارة يجد ذلك بملازمة ذكر واحد من الأذكار، لأنه لا يزال يردد ذلك الذكر ويقول، وتكون عبادته الصلوات الخمس بسنتها الراتبة فحسب، وسائر أوقاته مشغولة بالذكر الواحد، لا يتخللها فتور، ولا يوجد منه قصور، ولا يزال يردد ذلك الذكر ملتزما به، حتى في طريق الوضوء وساعة الأكل لا يفتر عنه.

واختار جماعة من المشايخ من الذكر كلمة:

لا إله إلا الله.

وهذه الكلمة لها خاصية في تنوير الباطن وجمع الهمم إذا دأب عليها صادق مخلص، وهي من مواهب الحق لهذه الأمة، وفيها خاصية لهذه الأمة فليها حدثنا شيخنا ضياء الدين إملاء قال أنا أبو القاسم الدمشقي الحافظ قال أنا عبد الكريم بن الحسين قال أنا عبد الوهاب الدمشقي قال أنا محمد بن خريم قال حدثنا هشام بن عمار قال حدثنا الوليد بن مسلم قال أنا عبد الرحمن بن زيد عن أبيه: أن عيسى بن مريم عليه السلام قال: رب انبئني

عن هذه الأمة للرحومة، قال: أمة محمد عليه الصلاة والسلام. علماء حنفاء اتقياء حلماة أصفياء حكماء كأنهم أنبياء، يرضون منى بالقليل من العطاء، ولرضى منهم باليسير من العمل، ولدخلهم الجنة بلا إله إلا الله، يا عيسى هم أكثر سكان الجنة، لأنها لم تذل السن قوم قط بلا إله إلا الله كما ذلت السنتهم، ولم تذل رقاب قوم قط بالسجود كما ذلت رقابهم.

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما قال: إن هذه الآية مكتوبة في التوراة ﴿يَتَأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾^(١) وحرز للمؤمنين وكنزاً للأمين، أنت عبدى ورسولى سميتك للتوسكل، ليس بفظ ولا غلظ ولا صخاب فى الأسواق، ولا يجرى بالسينة السيئة ولكن يحفو ويصفح، ولن أقبضه حتى تقام به اللة للعوجة بان يقولوا لا إله إلا الله، ويفتحوا أعينا عميا، وأذانا صما، وقلوبا غلفا.

فلا يزال العبد فى خلوته يردد هذه الكلمة على لسانه، مع مواظاة القلب حتى تصير الكلمة مناصلة فى القلب مزيلة لحديث النفس، بنوب معناها فى القلب عن حديث النفس، فإذا استولت الكلمة، وسهلت على اللسان يتشربها القلب، فلو سكنت اللسان لم يسكت القلب دم تتجوهر فى القلب، وتتجوهرها يستكن نور اليقين فى القلب، حتى إذا ذهبت صورة الكلمة من اللسان والقلب لا يزال نورها متجوهرًا، ويتخذ الذكر مع رؤية عظمة للذكور سبحانه وتعالى، ويصير الذكر حينئذ ذكر اللفظ وهذا الذكر هو للشاهدة والكاشفة والعابنة، أعنى ذكر اللفظ بتجوهر نور الذكر، وهذا هو المقصد الأقصى من الخلوة.

وقد يحصل هذا من الخلوة لا بالذكر الكلمة، بل بتلاوة القرآن إذا أكثر من التلاوة واجتهد فى مواظاة القلب حديث النفس، فيدخل على العبد سهولة فى التلاوة والصلاة، ويتنور فباطن بتلك السهولة فى التلاوة والصلاة.

وبتجوهر نور الكلام في القلب ويكون منه أيضا ذكر الذات، ويجتمع نور الكلام في القلب مع مطالعة عظمة للتكلم سبحانه وتعالى، ودون هذه اللوهمية ما يفتح على العبد من العلوم الإلهامية اللغزية، وإلى حين بلوغ العبد هذا اللبغ من حقيقة الذكر والتلاوة إذا صفا باطنه، قد يغيب في الذكر من كمال نفسه وحلاوة ذكره، حتى يلتحق في غيبته في الذكر بالنائم.

وقد تتجلى له الحقائق في لبسة الخيال أولا، كما تنكشف الحقائق للنائم في لبسة الخيال، كمن رأى في المنام أنه قتل حية، فيقول له العبر تظفر بالعدو، فظفروه بالعدو هو كشف كاشفه الحق تعالى به، وهذا الظفر روح مجرد صاغ ملك رؤيا له حسنا لهذا الروح من خيال الحية، فالروح الذي هو كشف الظفر أخبار الحق، ولبسة الخيال الذي هو بمثابة الجسد مثال البحث من نفس الرائي في المنام من استصحاب القوة الوهمية والخيالية من اليقظة، فيتألف روح كشف الظفر مع حسد مثال الحية، لافتقر إلى التعبير، إذ لو كشف بالحقيقة التي هي روح الظفر من غير هذا المثال الذي هو بمثابة الجسد ما احتاج إلى التعبير، فكان يرى الظفر ويصبح الظفر.

وقد يتجرد الخيال باستصحاب الخيال والوهم من اليقظة في المنام من غير حقيقة، فيكون المنام أضغاث أحلام لا يعبر، وقد يتجرد لصاحب الخلوة للبحث من ذاته، من غير أن يكون وعاء لحقيقة، فلا يبنى على ذلك ولا يلتفت إليه، فليس ذلك والفة وإنما هو خيال، فإما إذا غلب الصادق في ذكر الله تعالى حتى يغيب عن الحسوس، بحيث لو دخل عليه داخل من الناس لا يعلم به لغيبته في الذكر.

فعند ذلك قد ينبعث في الابتداء من نفسه مثال وخیال ينفخ فيه روح الكشف، فإذا عاد من غيبته فإما يأتيه تفسيره من باطنه موهبة من الله تعالى، وإما يفسره له شيخه كما يعبر المنام، ويكون ذلك والفة، لأنه كشف حقيقة في لبسة مثال، وشرط صحة الواقعة الإخلاص في الذكر أولا، ثم الاستغراق

في الذكر ذنبا، وعلامة ذلك الزهد هي النخيا وملازمة التقوى، لأن الله جعله بما يكشف به في واقعة من غير لبسة للنال، فيكون ذلك كشفا وإخبارا من الله تعالى إياه، ويكون ذلك تارة بالرؤية وتارة بالسمع، وقد يسمع من باطنه، وقد يطرق ذلك من الهوى لا من باطنه كالهواتف يعلم ذلك أمرا يريد الله إحسانه له أو لغيره، فيكون إخبار الله إياه بذلك مزيدا ليقينه، أو يرى في المنام حقيقة الشيء.

نقل عن بعضهم أنه أتى بشراب في قدح، فوضعه من يده وقال: قد حدث في العالم حدث ولا أشرب هذا لأن أعلم ما هو، فأنكشف له أن قوما دخلوا مكة وقتلوا فيها.

وحكى عن أبي سليمان الخواص قال: كنت راكبا حمارا لي يوما، وكان يؤذيه الذباب الباطلي رأسه، فكت أصرب رأسه بخشبة فكانت في يدي، فرفع الحمار رأسه إلي وقال أصرب فإنك على رأسك تضرب، قيل له: يا أبا سليمان وقع لك ذلك أو سمعته؟ فقال: سمعته يقول حكما سمعته.

وحكى عن أحمد بن عطاء الروزباري قال: كان لي مذهب في أمر الطهارة، فكنت ليلة من الليالي استنحي إلى أن مضى ثلث الليل ولم يطب قلبي، فتضجرت فبكيت وقلت: يا رب العفو، أسمع صوتا ولم أر أحدا يقول: يا أبا عبد الله العفو في العلم. وقد يكشف الله تعالى عبده بآيات وكرامات تربية للعبد وتقوية ليقينه وإيمانه.

قيل: كان عند جعفر الخليلي رحمه الله فص له قيمة، وكان يوما من الأيام راكبا في السمارية في دجلة، فهم أن يعطى للملاح قطعة، وحل الحرقعة فوق الفص في دجلة، وكان عنده دعاء للضالة مجرب، وكان يدعو به، فوجد الفص في وسط أوراق كان يتفحصها. والدعاء هو أن يقول: [يا جامع الناس ليوم لا ريب فيه أجمع على ضلتي].

وسمعت شيخنا بهمان حكى له شخص أنه كوشف في بعض خلواته بولد له في جيجون، كاد يسقط في الماء من السفينة، فقال فزجرتة فلم يسقط، وكان هذا الشخص بنواحي هملان وولده بجيجون، فلما قدم الولد أخبر أنه كاد يسقط في الماء فسمع صوت والده فلم يسقط.

وقال عمر رضي الله عنه، يا سارية الجبل، على النير بالهينة، وسارية بنهاوند، فاخذ سارية نحو الجبل وظفر بالعدو، فقيل لسارية: كيف علمت ذلك؟ فقال، سمعت صوت عمر وهو يقول يا سارية الجبل.

سئل ابن سالم وكان قد قال للإيمان أربعة أركان، ركن منه الإيمان بالقدر، وركن منه الإيمان بالحكمة، وركن منه التبري من الحول والقوة، وركن منه الاستعانة بالله عز وجل في جميع الأشياء. قيل له: ما معنى قولك الإيمان بالقدر؟ فقال: هو أن تؤمن ولا تنكر أن يكون لله عبد بالشرق قائما على يمينه، ويكون من كرامة الله له أن يعطيه من القوة ما ينقلب من يمينه على يساره فيكون بالغرب، تؤمن بجواز ذلك وكونه.

وحكى لي فقير أنه كان بمكة ولرجف على شخص ببغداد أنه قد مات، فكاشفه الله بالرجل وهو راكب يمشي في سوق بغداد، فأخبر إخوانه أن الشخص لم يمته، وكان كذلك حتى ذكر لي هذا الشخص أنه في تلك الحالة التي كوشف بالشخص راكبا، قال رأيت في السوق وأنا اسمع بأذن صوت الطرقة من الحبل في سوق بغداد.

وكل هذه مواهب الله تعالى، وقد يكاشف بها قوم وتعطى، وقد يكون فوق هؤلاء من لا يكون له شيء من هذا، لأن هذه كلها تقوية اليقين، ومن منح صرف اليقين لا حاجة له إلى شيء من هذا.

فكل هذه الكرامات دون ما أكرناه من تجوهر النكر في القلب ووجود ذكر الله فإن تلك الحكمة فيها تقوية للمريد، وتربية للسالكين،

ليزدادوا بها يقينا يجلبون به إلى مراغمة النفوس، والسوا عن ملاذ الدنيا، ويستنهض منهم بذلك ساكن عزمهم لعمارة الأوقات بالقربات، فيترجون بذلك ويرقون لطريقة من مكوشف بصرف اليقين من ذلك، لكان أن نفسه تسرع إجابة، وأسهل تقياده، وأتم استعلاها.

والأولون استلبن بذلك منهم ما استوعرو واستكشف منهم ما استتر، وقد لا يمنع صور ذلك الرهائين واليرغمة، ممن هو غير منتهج سبل الهدى، وراسكب طريق الردى، ليكون ذلك في حقهم مكرًا واستدراجًا، ليستحسنوا حالهم، ويستقروا في مقام الطرد والبعد إبقاء لهم فيما أرك الله منهم من العمى والضلال، والردى والوبال، حتى لا يخر السالك بهير شيء يفتح له، ويعلم أنه لو مشى على الماء والهواء لا ينفعه ذلك حتى يؤدي حق التقوى والزهد.

فأما من تعوق بخيال، أو قنع بمحال ولم يحكم أساس خلوته بالإخلاص بدخل الخلوة بالزور، ويخرج بالغرور، فيرفض العبادات ويستحضرها، ويسلبه الله تعالى لذة للعاملية، وتذهب عن قلبه هبة الشريعة، ويقتضح في الدنيا والآخرة.

فأعلم الصادق أن المقصود من الخلوة التقرب إلى الله تعالى بعمارة الأوقات، وكف الجوارح عن الكروهاة، فيصلح لقوم من أرباب الخلوة لخدمة الأوراد، وتوزيعها على الأوقات، ويصلح لقوم ملازمة الذكر واحد، ويصلح لقوم دوام للراقبة، ويصلح لقوم الانتقال من الذكر إلى الأوراد، ولقوم الانتقال من الأوراد إلى الذكر، ومعرفة مقلد ذلك يعلمه الصحوب للشيخ المصالح على اختلاف الأوضاع وتنويعها، مع نصحه للأمة وشفقته على الكافة، يريد للرشد لله لا لنفسه، غير مبتلى بهوى نفسه، محبا للاستتباع. ومن كان محبا للاستتباع فما يفسده مثل هذا أكثر مما يصلحه.

الباب الثامن والحشرون في كيفية الدخول في الأربعينية

روى أن داود عليه السلام لما ابتلى بالخطيئة خر لله ساجدا أربعين يوما وليلة حتى أتاه الغفران من ربه وقد تقرر أن الوحدة والعزلة ملاك الأمر ومتمسك لرباب الصدق، فمن استمرت أوقاته على ذلك فجميع عمره خلوة وهو الأسلم لدينه، فإن لم يتيسر له ذلك وكان مبتلى بنفسه أولا ثم بالأهل والأولاد ثانيا، فليجعل لنفسه من ذلك نصيبا.

نقل عن سفیان الثوري فيما روى أحمد بن حنبل عن خالد بن زيد عنه أنه كان يقال، ما أخلص العبد الله أربعين صباحا إلا أنبت الله سبحانه الحكمة في قلبه، وزهده الله في الدنيا، ورغبه في الآخرة، بصره داء الدنيا ودواءها، فليتعاهد العبد نفسه في كل سنة مرة.

وأما المرید الطالب إذا أراد أن يدخل الخلوة، فأكمل الأمر في ذلك أن يتجرد من الدنيا، ويخرج كل ما يملكه ويفتسل غسلا كاملا بعد الاحتياط للثوب والصلى بالنظافة والطهارة، ويصلى ركعتين، ويتوب إلى الله تعالى من ذنوبه، يبكاء وتضرع، واستكانة وتخضع، ويسوى بين السريرة والعلانية، ولا يخطو على غل وغش وحقد وحسد وخيانة.

ثم يقعد في موضع خلوته ولا يخرج إلا لصلاة الجمعة وصلاة الجماعة، فترك المحافظة على صلاة الجماعة غلط وخطأ، فإن وجود تفرقة في خروجه يكون له شخص يصلى معه جماعة في خلوته، ولا ينبغي أن يرضى بالصلاة منعزدا البتة، فترك الجماعة يخشى عليه آفات، وقد رأينا من يتشوش عقله في خلوته، ولعل ذلك بشؤم إصراره على ترك صلاة الجماعة، غير أنه ينبغي أن يخرج من خلوته لصلاة الجماعة وهو ذكر لا يمتز عن الذكر، ولا يكثر إرسال الطرف إلى ما يرى، ولا يصفى إلى ما يسمع.

لأن القوة الحافظة والتخيلة كلوح ينتقش بكل مرئي ومسموع، فيكثر ذلك للوسواس وحديث النفس والخيال، ويجتهد أن يحضر الجماعة بحيث يدرك مع الإمام تكبيره الإحرام، فإذا سلم الإمام وانصرف ينصرف إلى خلوته، ويتقوى في خروجه استجلاء نظر الخلق إليه، وعلمهم بجلوسه في خلوته، فقد قيل، لا تطمع في النزلة عند الله وأنت تريد للنزلة عند الناس.

وهذا أصل يفسد به كثير من الأعمال إذا أهمل، وينصلح به كثير من الأحوال إذا اعتبر. ويكون في خلوته جاعلاً وقته شيئاً واحداً موهوباً لله بإدامة فعل الرضا، إما تلاوة أو ذكر أو صلاة أو مراقبة، وأي وقت فتر عن هذه الأقسام ينام، فإن أراد تعيين لعدد من الركعات ومن التلاوة والذكر، أتى بذلك شيئاً فشيئاً، وإن أراد أن يكون بحكم الوقت يعتمد أخف ما على قلبه من هذه الأقسام، فإذا فتر عن ذلك ينام، وإن أراد أن يبقى في سجود واحد أو ركوع واحد أو ركعة واحدة أو ركعتين ساعة أو ساعتين فعل.

ويلازم في خلوته إدامة الوضوء، ولا ينام إلا عن غلبة بعد أن يدفع النوم عن نفسه مرات، فيكون هذا شغله ليله ونهاره، وإذا كان ذكراً لكلمة لا إله إلا الله وسنمت النفس الذكور باللسان بقولها بقلبه من غير حركة اللسان. وقد قال سهل بن عبد الله: إذا قلت لا إله إلا الله مد الكلمة وانظر إلى قدم الحق فأدبته وأبطل ما سواه وليعلم أن الأمر كالسلسلة يتداعى حلقة حلقة، فليكن دائم التلزم بفعل الرضا.

وأما قوت من في الأربعينية والخلوة، فالأولى أن يقتنع بالخبز والملح، ويتناول كل ليلة رطلاً واحداً باليقطين، يتناوله بعد العشاء الآخرة، وإن قسمه نصفين يأكل أول الليل نصف رطل وآخر الليل نصف رطل فيكون ذلك أخف للمعدة، وأعون على قيام الليل وأحيائه بالذكر والصلاة وإن أراد تأخير ظهوره إلى السحر فليفعل.

وإن لم يصبر على ترك الإدام يتناول الإدام، وإن كان الإدام شيئاً يقوم مقام الخبز ينقص من الخبز بقدر ذلك، وإن أراد التقليل من هذا القدر أيضاً ينقص كل ليلة دون اللقمة، بحيث ينتهي ثقله في العشر الأخير من الأربعين إلى نصف رطل.

وإن قوى قنع النفس بنصف رطل من أول الأربعين ونقص يسيراً كل ليلة بالتدريج، حتى يعود طوره إلى ربع رطل في العشر الأخير.

وقد اتفق مشايخ الصوفية على أن بناء أمرهم على أربعة أشياء: قلة الطعام، وقلة للنوم، وقلة الكلام، والاعتزال عن الناس، وقد جعل للجوع وقتان: أحدهما آخر الأربع والعشرين ساعة، فيكون من الرطل لكل ساعتين لوقية بأكلة واحدة، يجعلها بعد العشاء الأخيرة، أو يقسمها أكلتين كما ذكرنا، والوقت الآخر على رأس اثنتين وسبعين ساعة، فيكون الطي ليلتين والإفطار في الليلة الثالثة، ويكون لكل يوم وليلة ثلث رطل، وبين هذين الوقتين وقت وهو أن يفطر من كل ليلتين ليلة، ويكون لكل يوم وليلة نصف رطل، وهذا ينبغي أن يفعله إذا لم ينتج ذلك عليه سامة وضجرا، وقلة انشراح في الذكر والعامة، فإذا وجد شيئاً من ذلك فليفطر كل ليلة وبأكل الرطل في الوقتين أو الوقت الواحد، فالنفس إذا أخذت بالإفطار من كل ليلتين ليلة ثم ردت إلى الإفطار كل ليلة تقنع، وإن سومت بالإفطار كل ليلة لا تقنع بالرطل وتطلب الإدام والشهوات. وقس على هذا، فهي إن أطعمت طمعت، وإن أقبعت قنعت.

وقد كان بعضهم ينقص كل ليلة حتى يرد النفس إلى أقل قوتها. ومن الصالحين من كان يعبر القوت بنوى التمر، وينقص كل ليلة نواة.

ومنهم من كان يعبر بعود رطب، وينقص كل ليلة بقدر شاف العود.

ومنهم من كان ينقص كل ليلة ربع سبع الرغيف، حتى ينفى
الرغيف في شهر. ومنهم من كان يؤخر الأكل ولا يعمل في تقليل القوت،
ولكن يعمل في تأخيره بالتدريج، حتى تنتج ليلة في ليلة، وقد فعل ذلك
طائفة حتى انتهى عليهم إلى سبعة أيام، وعشرة أيام، وخمسة عشر يوماً، إلى
الأربعين.

وقد قيل لسهل بن عبد الله هذا الذي يأكل في كل أربعين وأكثر
أكلة أين يذهب لهب الجوع عنه؟ قال: يطفئه النور. وقد سألت بعض
الصالحين عن ذلك فذكر لي كلاماً بعبارة دلت على أنه يجد فرحاً بربه
ينطفئ معه لهب الجوع، وهذا في الخلق يقع أن الشخص بطرقه فرح وقد
كان جائعاً فيذهب عنه الجوع. وهكذا في طرق الخوف يقع ذلك.

ومن فعل ذلك ودرج نفسه في شيء من هذه الأقسام التي ذكرناها لا
يؤثر ذلك في نقصان عقله واضطراب جسمه، إذا كان في حماية الصديق
والإخلاص، وإنما يخشى في ذلك وفي دوام الذكر على من لا يخلص لله
تعالى.

وقد قيل: حد الجوع أن لا يميز بين الخبز وغيره مما يؤكل. ومتى
عبيت النفس الخبز فليس بجائع، وهذا المعنى قد يوجد في آخر الحدين
بعد ثلاثة أيام وهذا جوع الصديقين، وطلب الغذاء عند ذلك يكون ضرورة
لقوام الجسد والقيام بفرائض العبودية، ويكون هذا حد الضرورة لمن لا
يجتهد في التقليل بالتدريج. فأما من درج نفسه في ذلك فقد يصير على
أكثر من ذلك إلى الأربعين كما ذكرنا. وقد قال بعضهم: حد الجوع أن
يهزق، فإذا لم يقع الذباب على بزائه يدل هذا على خلو المعدة من السموم،
وصفاء الهزاق كالماء الذي لا يقصده الذباب.

روى أن سفيان الثوري وإبراهيم بن أدهم عليهما السلام كانا يطويان دلالنا، وكان أبو بكر الصديق عليه السلام يطوى ستا. وكان عبد الله ابن الربيع عليه السلام يطوى سبعة أيام.

واشتهر حال جدنا محمد بن عبد الله الحروف بعمومه رحمه الله، وكان صاحب أحمد الأسود الدينوري أنه كان يطوى أربعين يوما. وأقصى ما بلغ في هذا المعنى الطي رجل أدركنا زمانه، وما رأيت له كان في أبهر يقال له الزاهد خليفة، كان يأكل في كل شهر نوزة، ولم نسمع أنه بلغ في هذه الأمة أحد بالطي والتدريج إلى هذا الحد، وكان في أول أمره على ما حكى ينقص القوت بنشاف العود، ثم طوى حتى انتهى إلى النوزة في الأربعين.

ثم إنه قد يسلك هذا الطريق جميع من الصادقين، وقد يسلك غير الصادق هذا لوجود هوى مستكن في باطنه، يهون عليه ترك الأكل إذا كان له استجلاء لنظر الحلق، وهذا عين العفاق نعوذ بالله من ذلك. والصادق ربما يقدر على الطي إذا لم يعلم بحاله أحد، وربما تضعف عزيمته في ذلك إذا علم بأنه يطوى، فإن صدقه في الطي ونظره إلى من يطوى لأجله يهون عليه الطي.

فإذا علم به أحد تضعف عزيمته في ذلك، وهذا علامة الصادق، فلهما أحس في نفسه أنه يحب أن يرى بعين التقل قلبيتهم نفسه، فإن فيه شائبة العفاق، ومن يطوى لله يعوضه الله تعالى فرحا في باطنه ينسيه الطعام، وقد لا ينسى الطعام ولكن امتلاء قلبه بالأنوار يقوى جانب الروح الروحاني، فيجذبه إلى مركزه ومستقره من العالم الروحاني، وينفر بذلك عن أرض الشهوة النفسانية.

وأما أثر جانب الروح إذا تخلف عن جانب النفس عند كمال طمانينتها، وانعكاس أنوار الروح عليها بواسطة القلب المستنير، فأجل من

جذب للمغناطيس للحديد، إذ للمغناطيس يجذب الحديد لروح في الحديد مشاكل للمغناطيس، فيجذبه بنفسية الجنسية الخاصة، فإذا تجنست النفس بعكس نور الروح الواصل إليها بواسطة القلب يصير في النفس روح استمدتها القلب من الروح، وأدناها إلى النفس، فتجذب الروح النفس بجنسية الروح الحادثة فيها، فيزدرى الأطعمة النخوية والشهوات الحيوانية، ويتحقق عنده قول رسول الله ﷺ «أبعت عند ربى بطعمتى ويسقيني».

ولا يقدر على ما وصفناه إلا عبد تصير أعماله وأقواله وسائر أحواله ضرورة، فيتناول من الطعام أيضاً ضرورة، ولو تكلم مثلاً بكلمة من غير ضرورة أذهب فيها نار الجوع أذهب الحلفاء بالنار، لأن النفس الراقدة تستيقظ بكل ما يوقظها، وإذا استيقظت نزعته إلى هواها. فالعبد أراد بهذا إذا فطن لسياسة النفس، ورزق العلم، سهل عليه الطي، وتدارمته المعونة من الله تعالى، لا سيما إن مكوشف بشيء من النوح الإلهية.

وقد حكى لي فقير أنه اشتد به الجوع، وكان لا يطلب ولا يتسبب. قال فلما انتهى جوعى إلى الغاية بعد أيام فتح قلبه على بتفاحة، قال فتناولت التفاحة وقصصت أكلها، فلما كسرتها مكوشفت بحوراء نظرت إليها عقيب كسرها، فحدث عندي من الفرح بذلك ما استغنيت عن الطعام أياماً. وذكر لي أن الحوراء خرجت من وسط التفاحة، والإيمان بالقدرة ركن من أركان الإيمان، فسلم ولا تنكر.

وقال سهل بن عبد الله رحمه الله: من طوى أربعين يوماً ظهرت له القدرة من الملكوت وكان يقال، لا يزهد العبد حقيقة الزهد الذي لا مشوبة فيه إلا بمشاهدة قدرة من الملكوت.

وقال الشيخ أبو طالب الكلى رحمه الله: عرفنا من طوى أربعين يوماً برياضة النفس في تأخير القوت. وكان يؤخر فطره كل ليلة إلى نصف

سبع الليل، حتى بطوى ليلة في نصف شهر، فيطوى الأربعين في سنة وأربعة أشهر، فتندرج الأيام والليالي حتى يكون الأربعين بمنزلة يوم واحد.

وذكر لي أن الذي فعل ذلك ظهرت له آيات من الملكوت، وكشف بمعاني القدرة من الجبروت، تجلى قلبه بها له فكيف شاء.

واعلم أن هذا المعنى من الطي والتقليل، لو أنه عين المضيلة ما فات أحدا من الأنبياء، وكان رسول الله ﷺ يبلغ من ذلك إلى أقصى غاياته، ولا شك أن لذلك فضيلة لا تنكر، ولكن لا ينحصر مواهب الحق تعالى في ذلك، فقد يكون من يأكل كل يوم أفضل ممن يطوى أربعين يوما، وقد يكون من لا يكشف بشيء من معاني القدرة لأفضل ممن يكشف بها إذا مكاشفه الله بصرف المعرفة. فالقدرة أكر من القادر.

ومن أهل لقب القادر لا يستعرب ولا يستنكر شيئا من القدرة، ويرى القدرة تتجلى له من سحب أجزاء علم الحكمة، فإذا أخلص العبد لله تعالى أربعين يوما واجتهد في ضبط أحواله بشيء من الأنواع التي ذكرنا من العمل والذكر والقوت وغير ذلك، تعود بركة ذلك الأربعين على جميع أوقاته وساعاته، وهو طريق حسن اعتمده طائفة من الصالحين. وسكن جماعة من الصالحين يختارون للأربعين ذا القعدة وعشر ذي الحجة، وهي أربعون موسى عليه السلام.

أخبرنا شيخنا ضياء الدين أبو النجيب إجازة قال أنا أبو منصور محمد ابن عبد الملك بن خيرون إجازة قال أنا أبو محمد الحسن بن علي الجوهري إجازة قال أنا أبو عمر محمد بن العباس قال حدثنا أبو محمد يحيى بن محمد بن صاعد قال حدثنا الحسين بن الحسن للروزي قال حدثنا عبد الملك ابن المبارك قال حدثنا أبو معاوية الضرير قال حدثنا الحجاج عن مكحول قال: قال رسول الله ﷺ: «من أخلص لله تعالى العبادة أربعين يوما ظهرت بياض الحكمة من قلبه على لسانه».

الباب التاسع والحشرون في أخلاق الصوفية وشرح الخلق

الصوفية أوفر الناس حظا في الاقتناء برسول ﷺ، وأحقهم بإحياء سنته، والتخلق بأخلاق رسول الله ﷺ من حسن الاقتناء وإحياء سنته على ما أخبرنا الشيخ العالم ضياء الدين شيخ الإسلام أبو أحمد عبد الوهاب بن علي قال أنا أبو الفتح عبد الملك بن أبي القاسم الهروي قال أنا أبو نصر عبد العزيز ابن محمد الرياقي قال أنا أبو محمد عبد الجبار بن محمد الجراحي قال أنا أبو العباس محمد بن أحمد الجبوي قال أنا أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي قال حدثنا مسلم بن حاتم الأنصاري البصري قال حدثنا محمد بن عبد الله الأنصاري عن أبيه عن علي بن زيد عن سعيد بن المسيب قال، قال أنس بن مالك رضي الله عنه، قال لي رسول الله ﷺ «يا بني إن قدرت أن تصبح وتمسى وليس في قلبك عش لأحد فافعل، ثم قال، يا بني وذلك من سنتي، ومن أحيا سنتي فقد أحياني، ومن أحياني كان معي في الجنة».

فالصوفية أحيوا سنة رسول الله ﷺ، لأنهم وفقوا في بدايتهم لرعاية أقواله، وفي وسط حالهم اقتدوا بأعماله، فأنتم لهم ذلك أن تحققوا في نهاياتهم بأخلاقه، وتحسين الأخلاق لا يتأتى إلا بعد تركيبة النفس، وطريق التزكية بالإذعان لسياسة الشرع، وقد قال الله تعالى لنبيه ﷺ ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ١﴾ ^(١). لما كان أشرف الناس وأزكاهم نفسا كان أحسنهم خلقا، قال مجاهد: [على خلق عظيم] أي على دين عظيم، والدين مجموع الأعمال الصالحة والأخلاق الحسنة.

سئلت عائشة رضي الله عنها عن خلق رسول الله ﷺ، قالت: [كان خلقه القرآن].

أمه إلا وقد قدمنا به عليها. قالت: ما ربكما، قد كنتم عليه حربصين؟ قلنا: لا والله لا ضير إلا أن الله عز وجل قد أدى عنا وقضينا الذي كان علينا وقلنا نخشى الإتلاف والإحداث نرده إلى أهله.

فقالت: ما ذاك بكما فاصلتاني شأنكما، فلم تدعنا حتى أخبرناها خبره. فقالت: خشيتما عليه الشيطان كلا والله ما للشيطان عليه سبيل، وإنه لكائن لابنتي هذا شأن، ألا أخبركما بخبره؟ قلنا: بلى، قالت: حملت به هما حملت حملاً قط أخف منه. قالت: فأريت في النوم حين حملت به كأنه خرج مني نور قد أضاءت به قصور الشام، ثم وقع حين ولدته وقوعاً لم يقع المولود معتمداً على يديه رافعاً رأسه إلى السماء، فدعاه عنكما.

فبعد أن ظهر الله رسوله من نصيب الشيطان بقيت النفس الزكية النبوية على حد نفوس البشر لها ظهور بصفات وأخلاق مبقاه على رسول الله ﷺ رحمة للخلق، لوجود أمهات تلك الصفات في نفوس الأمة بمزيد من الظلمة لتفاوت حال رسول الله ﷺ وحال الأمة، فاستمدت تلك الصفات البهالة بظهورها في رسول الله ﷺ بتنزيل الآيات والحكمات بإزائها لقمعها تأديها من الله لنبهه، رحمة خاصة له، وعامة للأمة، موزعة لنزول الآيات على الأناء والأوقات عند ظهور الصفات.

قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً ۝﴾^(١). وثببت الفؤاد بعد اضطرابه بحركة النفس بظهور الصفات، لارتباط بين القلب والنفس وعند كل اضطرابه آية متضمنة لخلق صالح سني، إما تصريحاً أو تحريضاً، كما تحركت النفس الشريفة النبوية لما كسرت رباعيته وصار الدم يسيل على الوجه، ورسول الله ﷺ يمسحه ويقول «كيف يفلح قوم خصبوا وجه نبيهم وهو يدعوهم إلى ربهم» «ها أنزل الله تعالى ﴿لَيْسَ لَكَ

مِنْ الْأَمْرِ شَيْءٌ»^(١). فاكتمسى القلب النبوى لباس الاصطبار، وفاء بعد الاصطراب إلى القرار.

فلما توزعت الآيات على ظهور الصفات فى مختلف الأوقات، صفت الأخلاق النبوية بالقرآن ليكون خلقه القرآن، ويكون فى إبقاء تلك الصفات فى نفس رسول الله ﷺ معنى قوله عليه السلام «إنما أنسى لاسن» فظهور صفات نفسه الشريفة وقت استنزال الآيات لتأديب نفوس الأمة وتهذيبها رحمة فى حقهم، حتى تتزكى نفوسهم» ونشرف أخلاقهم؛ قال رسول الله ﷺ «(الأخلاق مغرونة عند الله تعالى فإذا أريد الله تعالى بعبد خيرا منحه منها خلقا)».

وقال ﷺ «(إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق)».

وروى عنه ﷺ «(أن لله تعالى مائة وبضعة عشر خلقا، من آتاه واحدا منها دخل الجنة)».

فتقديرها وتحليلها لا يكون إلا بوحى سماوى إلى النبى، الرسل، والله تعالى أبرز إلى الخلق اسماء منبئة عن صفاته سبحانه وتعالى، وما أظهرها لهم إلا ليدعوهم إليها، ولولا أن الله تعالى أودع فى القوى البشرية التخلق بهذه الأخلاق ما أبرزها لهم دعوة لهم إليها يختص برحمته من يشاء. ولا يبعد والله أعلم أن قول عائشة رضى الله عنها، [كان خلقه القرآن]، فيه رمز غامض وإيماء خفى إلى الأخلاق الربانية، فاحتشمت من الحضرة الإلهية أن تقول كان متخلقا بأخلاق الله تعالى، فعبرت عن العنى بقولها، [كان خلقه القرآن].

قال الجنيد رحمه الله: كان خلقه عظيما لأنه لم يكن له همة سوى الله تعالى.

وقال الواسطي رحمه الله تعالى: لأنه جاد بالكونين عوضاً عن الحق.

وقيل: لأنه عليه السلام عاشر الخلق بخلقه وبايتهم بقلبه، وهذا ما قاله بعضهم في معنى التصوف: التصوف الخلق مع الخلق، والصدق مع الحق.

وقيل: عظم خلقه حيث صغرت الأكوان في عينيه بمشاهدة مكنونها.

وقيل: سمى خلقه عظيماً لاجتماعه مكارم الأخلاق فيه.

وقد نسب رسول الله ﷺ أمته إلى حسن الخلق في حديث أخبرنا به الشيخ العالم ضياء الدين عبد الوهاب بن علي قال أنا أبو الفتح الهروي قال أنا أبو نصر الترياقى قال أنا أبو محمد الجراحي قال أنا أبو العباس المحبوبي قال أنا أبو عيسى الحافظ الترمذي قال حدثنا أحمد بن الحسين بن خراش قال حدثنا بن حبان بن هلال قال حدثنا مبارك بن فضالة قال حدثني عبد الله بن سعيد عن محمد بن المنكدر عن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال «إن من أحبكم إلى وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً، وإن أبغضكم إلى وأبعدكم مني مجلساً يوم القيامة الثرثارون المتشدقون المتفيهقون. قالوا: يا رسول الله علمنا الثرثارون والمتشدقون فما المتفيهقون؟ قال: المتكبرون» والثرثار هو الكثار من الحديث، والمتشديق: المتطاول على الناس في الكلام.

قال الواسطي رحمه الله: الخلق العظيم أن لا يخاصم ولا يخاصم.

وقال أيضاً: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝﴾^(١) لو جلدك حلاوة المطالعة على سرك.

وقال أيضاً: لأنك قبلت فتون ما أسديت إليك من نعمي أحسن مما قبله غيرك من الأنبياء والرسل.

وقال الحسين: لأنه لم يؤثر فيك جفاء الخلق مع مطالعة الحق.

وقيل: الخلق العظيم لباس التقوى، والتخلق باخلاق الله تعالى، إذ لم يبق للأعواض عنده خطر.

وقال بعضهم: قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿١﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٢﴾﴾^(١)، أتم، لأنه حيث قال (وانك) أحضره، وإذا أحضره أغفله وحجبه. وقوله (لأخذنا) أتم، لأن فيه فناء. وهي قول هذا القائل نظر، فهلا قال: إن كان في ذلك فناء ففي قوله (وانك) بقاء، وهو بقاء بعد فناء، والبقاء أتم من الفناء، وهذا اليبق بمنصب الرسالة، لأن الفناء إنما عز لمزاحمة وجود مدموم، فإذا نزع المدموم من الوجود وتبدلت النعوت، فأى عزة تبقى في الفناء، فيكون حضوره بالله لا بنفسه، فأى حجة تبقى هنالك؟.

وقيل: من أوتى الخلق العظيم فقد أوتى أعظم المقامات، لأن للمقامات ارتباطا عاما، والخلق ارتباط بالنعوت والصفات.

وقال الجنيد: اجتمع فيه أربعة أشياء: السخاء، والألفة، والنصيحة، والشفقة.

وقال ابن عطاء: الخلق العظيم أن لا يكون له اختيار، ويكون تحت الحكم مع فناء النفس وفناء الآلوفات.

وقال أبو سعيد القرشي: العظيم هو الله، ومن أخلاقه الجود والكرم والصفح والعفو والإحسان، ألا ترى إلى قوله عليه السلام «لن لله مائة وبضعة عشر خلقا من أتى بواحد منها دخل الجنة» فلما تخلق باخلاق الله تعالى وجد الثناء عليه بقوله ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿١﴾﴾^(١).

(١) سورة الحاقة: الآيات ٥٤، ٥٥.

(٢) سورة القلم: آية ٤.

وقيل: عظم خلقك لأنك لم ترض بالأخلاق، وسرت ولم تسكن إلى النعوت حتى وصلت إلى النعت.

وقيل: لما بعث محمد ﷺ إلى الحجاز حجزه بها عن اللذات والشهوات، والقاء في العربية والجفوة، فلما صفا بذلك عن دنس الأخلاق قال له ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (١).

وأخبرنا الشيخ الصالح أبو زرعة بن الحافظ أبي الفضل محمد بن طاهر المقدسي عن أبيه قال أنا أبو عمر اللبكي قال أنا أبو محمد عبد الله بن يوسف قال أنا أبو سعيد بن الأعرابي قال حدثنا جعفر بن الحجاج الرقي قال أنا أيوب بن محمد الوزان قال حدثني الوليد قال حدثني ثابت عن يزيد عن الأوزاعي عن الزهري عن عروة، عن عائشة رضي الله عنها قالت،

«كان نبي ﷺ يقول «مكارم الأخلاق عشرة، تكون في الرجل ولا تكون في أبيه، وتكون في العبد ولا تكون في سيده، بقسمها الله تعالى لمن أراد به السعادة: صدق الحديث، وصديق الناس، وإن لا يشبع وجاره وصاحبه جالعان، وإعطاء السائل، والكفاية بالصنائع، وحفظ الأمانة، وصلة الرحم، والتذم للصاحب، وإفراء الضيف، ورأسهن الحياء».

وسئل رسول الله ﷺ عن أكثر ما يدخل الناس الجنة، قال «تقوى الله وحسن الخلق».

وسئل عن أكثر ما يدخل الناس النار قال «الغم والفرح» يكون هذا الغم غم فوت الحظوظ العاجلة، لأن ذلك يتضمن التسخط والتضجر، وفيه الاعتراض على الله تعالى وعدم الرضا بالقضاء. ويكون الفرح المشار إليه الفرح بالحظوظ العاجلة الممنوع منه بقوله تعالى ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ (٢). وهو الفرح الذي قال الله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ

(١) سورة القلم: آية ٤.

(٢) سورة الحديد: آية ٢٢.

قَوْمُهُ، لَا تَفْرَحُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ^(١). لما رأى مفاتيحه تنوء بالعصبة
أولى القوة. فاما الفرح بالاقسام الأخروية فمحمود يناهس فيه. قال الله تعالى:
﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا ﴾ ^(٢).

وهو عبد الله بن المبارك حسن الخلق فقال: هو بسط الوجه، وبذل
المعروف، وكف الأذى.

فالصوفية راضوا بنفوسهم بالكائنات والمجاهدات حتى اجابت إلى
تحسين الأخلاق. وكم من نفس تجيب إلى الأعمال ولا تجيب إلى الأخلاق.
هيموس العباد اجابت إلى الأعمال ولا تجيب إلى الأخلاق. هيموس العباد
اجابت إلى الأعمال وجمعت عن الأخلاق، ونفوس الزهاد اجابت إلى بعض
الأخلاق دون البعض، ونفوس الصوفية اجابت إلى الأخلاق الكريمة كلها.

أخبرنا الشيخ أبو زرعة إجازة عن أبي بكر بن خلف إجازة عن السلمي
قال سمعت حسين بن أحمد بن جعفر يقول سمعت أبا بكر الكتاني يقول،
التصوف خلق فمن زاد عليك بالخلق زاد عليك بالتصوف.

فالعباد اجابت نفوسهم إلى الأعمال لأنهم يسلكون بنور الإسلام،
والزهاد اجابت نفوسهم إلى بعض الأخلاق لكونهم سلكوا بنور الإيمان.
والصوفية أهل القرب سلكوا بنور الإحسان، فلما باشر بواطن أهل القرب
والصوفية نور اليقين، وتاصل إلى بواطنهم ذلك اتصلح القلب بكل أرحانه
وجوانبه، لأن القلب يبيض ببعضه بنور الإسلام، وبعضه بنور الإيمان، وكله
بنور الإحسان والإيقان، فإذا أبيض القلب وتنور انعكس نوره على النفس.

وللقلب وجه إلى النفس ووجه إلى الروح. وللنفس وجه إلى القلب
ووجه إلى الطبع والفريضة. والقلب إذا لم يبيض كله لم يتوجه إلى الروح
بكله، ويكون نا وجهين: وجه إلى الروح، ووجه إلى النفس، فإذا أبيض كله

(١) سورة القصص، آية ٢٦.

(٢) سورة يونس، آية ١٠.

توجه إلى الروح بكلمه فيتداركه مدد الروح، ويزداد إشراقا وتنورا، وكلما
انجذب القلب إلى الروح انجذبت النفس إلى القلب، وكلما انجذبت توجهت
إلى القلب بوجهها الذى يليه، وتنور النفس لتوجهها إلى القلب بوجهها الذى
يلى القلب، وعلامة تنورها طمانينتها.

قال الله تعالى ﴿يَتَأْتِيهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ أَرْجَىٰ إِلَىٰ رَبِّكَ
رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾﴾^(١)، وتنور وجهها الذى يلى القلب بمثابة نورانية
أحد وجهى الصدف لاكتساب النورانية من اللؤلؤ، وبقاء شيء من الظلمة
على النفس لنسبة وجهها الذى يلى الغريزة والطبع، كبقاء ظاهر
الصدف على ضرب من الكدر والنقصان مخالفا لنورانية باطنه. وإذا تنور
أحد وجهى النفس لحأت إلى تحسين الأخلاق وتبديل النعوت، ولذلك سمي
الأبدال أبدالاً. والسر الأكبر فى ذلك أن قلب الصوفى بدوام الإقبال على
الله، ودوام الذكر بالقلب واللسان يرتقى إلى ذكر الذات، ويصير حينئذ
بمثابة العرش، فالعرش قلب الكائنات فى عالم الخلق والحكمة، والقلب
عرش فى عالم الأمر والقدرة.

قال سهل بن عبد الله التستري: القلب كالعرش، والصدر كالكورسى.

وقد ورد عن الله تعالى «(لا يسعنى أرضى ولا سمائى، ويسعنى قلب
عبدى المؤمن)».

فإذا اكتحل القلب بنور ذكر الذات، وصار بحرا مواجا من نسمات
القرب، جرى فى جدول أخلاق النفس صفاء النعوت والصفات، وتحقق
التخلق بأخلاق الله تعالى.

حكى عن الشيخ أبى على الفارمى أنه حكى عن شيخه أبى القاسم
الكركانى أنه قال: إن الأسماء التسعة والتسعين تصير لوصافا للعبد السالك،

وهو بعد في السلوك غير واصل، ويكون الشيخ عنى بهذا أن العبد يأخذ من كل اسم وصفا يلانم ضعف حال البشر وقصوره، مثل أن يأخذ من اسم الله تعالى الرحيم معنى من الرحمة على قدر أقصور البشر.

وكل إشارات المشايخ في الأسماء والصفات التي هي أعز علومهم على هذا المعنى والتفسير، وكل من توهم بذلك شيئا من الحلول تزندق والحد. وقد أوصى رسول الله ﷺ معاذنا بوصية جامعة لحسن الأخلاق، فقال له «يا معاذ أوصيك بتقوى الله، وصديق الحديث، والوفاء بالعهد، وأداء الأمانة، وترك الخيانة، وحفظ الجوار، ورحمة اليتيم، ولين الكلام، وبذل السلام، وحسن العمل، وقصر الأمل، وقصد العمل، ولزوم الإيمان، والتفقه في القرآن، وحب الآخرة، والجزع من الحساب، وخفض الجناح، وإياك أن تسب حلما، أو تكذب صادقا، أو تطمع أثما، أو تعصى إماما عادلا، أو تفسد أرضا. أوصيك باتقاء الله عند كل حجر وشجر ومدر، وأن تحدث لكل ذنب توبة، السر بالسر، والعلانية بالعلانية، بذلك أحب الله عباده، ودعاهم إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأدب».

وروى معاذ أيضا عن رسول الله ﷺ قال «حف الإسلام بمكارم الأخلاق ومحاسن الأدب».

أخبرنا الشيخ العالم ضياء الدين عبد الوهاب بن علي بإساده المتقدم إلى الترمذي رحمه الله قال أنبأنا أبو كريب قال حدثنا قبيصة بن الليث عن مطرف عن عطاء عن أم الدرداء عن أبي الدرداء قال سمعت النبي عليه السلام يقول «ما من شيء يوضع في الميزان أثقل من حسن الخلق، وإن صاحب حسن الخلق ليبلغ به درجة صاحب الصوم والصلاة».

وقد كان من أخلاق رسول الله ﷺ أنه كان أسخى الناس، لا يبيت عنده دينار ولا درهم، وإن فضل ولم يجد من يعطيه ويأتيه الليل لا يباوى إلى منزله حتى يبرأ منه، ولا ينال من النخيا. وأكثر قوت عاهه من أسر ما

يجد من التمر والشعير، ويضع ما عدا ذلك في سبيل الله، لا يسأل شيئاً إلا يعطى، ثم يعود إلى قوت عامه فيؤثر منه، حتى ربما احتاج قبل القضاء العام.

وكان يخفض النعل، ويرقع الثوبه ويخدم في مهنة أهله، ويقطع اللحم معهن.

وكان أشد الناس حياءً، وأكثرهم تواضعاً.

فصلوات الرحمن عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين.

الباب الثلاثون في تفصيل أخلاق الصوفية

من أحسن أخلاق الصوفية التواضع، ولا يلبس العبد لبسة أفصل من التواضع. ومن ظفر بكنز التواضع والحكمة يقيم نفسه عند كل أحد مقدارا يعلم أنه يقيمه. ويقيم كل أحد على ما عنده من نفسه، ومن رزق هذا فقد استراح وأراح، وما يعقلها إلا فعالمون.

أخبرنا أبو زرعة عن أبيه الحافظ القدسي قال أنا عثمان بن عبد الله قال أنا عبد الرحمن بن إبراهيم قال حدثنا عبد الرحمن بن حمدان قال حدثنا أبو حاتم الرازي قال حدثنا النضر بن عبد الجبار قال أنا ابن لهيعة عن يزيد بن أبي حبيب عن سنان بن سعد عن أنس أن رسول الله ﷺ قال «إن الله تعالى أوحى إلي أن تواضعوا، ولا يبغى بعضكم على بعض».

وقال عليه السلام في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي﴾^(١). قال «على البر والتقوى والرغبة وذلة النفس».

وكان من تواضع رسول الله ﷺ أن يجيب دعوة الحر والعبد، ويقبل الهدية، ولو أنها جرة لبن، أو فخذ أرنب، ويكافئ عليها، ويأكلها، ولا يستكبر عن إجابة الأمة والسكين.

وأخبرنا أبو زرعة إجازة عن ابن خلف إجازة عن السلمي قال أنا أحمد بن علي المقرئ قال أنا محمد بن للنهال قال حدثني أبي عن محمد بن جابر اليماني عن سليمان بن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال، قال رسول الله ﷺ «إن من رأس التواضع أن تبدأ بالسلام على من لقيت، وترد على من سلم عليك، وأن ترضى بالذنوب من المجلس، وألا تحب الدخلة والتزكية والبر».

(١) سورة آل عمران: الآية ٣١.

وورد أيضا عنه عليه السلام «طوبى لمن تواضع من غير منقصة، ودل في نفسه من غير مسكنة».

سئل الجنيد عن التواضع فقال: خفض الجناح، ولين الجانب.

وسئل الفضيل عن التواضع فقال: تخضع للحق، وتنقاد له، وتقبله ممن قاله، وتسمع منه.

وقال أيضا: من رأى لنفسه قيمة فليس له في التواضع نصيب.

وقال وهب بن منبه: مكتوب في كتاب الله: إني أخرجت الدر من صلب آدم، فلم أجد قلبا أشد تواضعا إلى من قلب موسى عليه السلام، فلذلك اصطفيته وحكمته.

وقيل: من عرف كوامن نفسه لم بطمع في العلو والشرف، وبسلك سهيل التواضع، فلا يخاصم من يذمه، ويشكر الله أن يحمله.

وقال أبو حفص: من أحب أن يتواضع قلبه فليصحب الصالحين وليلتزم بحرمتهم، فمن شدة تواضعهم في أنفسهم يقتدى بهم ولا يتكبر.

وقال لقمان عليه السلام: لكل شيء مطية ومطية العمل التواضع.

وقال النوى: خمسة أنفوس أعز الخلق في الدنيا: عالم زاهد، وفقه صوفي، وغنى متواضع، وفقير شاكرك، وشريف سني.

وقال العجلاء: لولا شرف التواضع كنا إذا مشينا نخطر.

وقال يوسف بن أسباط وقد سئل ما غاية التواضع قال: أن تخرج من بيتك فلا تلقى أحدا إلا رأيته خيرا منك.

ورأيت شيخنا ضياء الدين أبا النجيب وكنت معه في سفره إلى الشام وقد بحث بعض أبناء الدنيا له طعاما على رؤوس الأسارى من الإفريج وهم

في قيودهم، فلما منبت السفرة والأسارى ينتظرون الأواني حتى تصرغ، قال للحادم: احصر الأسارى حتى يفعلوا على السفرة مع المقراء، فجاء بهم وأقعدهم على السمرة صفا واحدا، وقام الشيخ من سجائته ومشى إليهم وقعد بينهم كالواحد منهم، فأككل وأكلوا، وظهر لنا وجهة ما نازل باطنه من التواضع لله، والانكسار في نفسه، وانسلاخه من التكبر عليهم بإيمانه وعلمه وعمله.

أخبرنا أبو زرعة إجازة عن أبي بكر بن خلف إجازة عن السلمي قال سمعت أبا الحسين الفارسي يقول سمعت الجرجري يقول: صبح عند أهل المعرفة أن للدين رأس مال، خمسة في الظاهر وخمسة في الباطن.

فأما اللواتي في الظاهر، فصدق في اللسان، وسغاوة في اللئ، وتواضع في الأبدان، وكف الأذى، واحتماله بلا إباء.

وأما اللواتي في الباطن، فحب وجود سيده، وخوف الفراق من سيده، ورجاء الوصول إلى سيده، والتندم على فعله، والحياء من ربه.

وقال يحيى بن معاذ، التواضع في الخلق حسن،

ولكن في الأغنياء أحسن، والتكبر سميج في الخلق، ولكن في الفقراء أسميج.

وقال ذو النون، ثلاثة من علامات التواضع: تصغير النفس معرفة بالعيب، وتعظيم الناس حرمة للتوحيد، وقبول الحق والنصيحة من كل واحد.

وقيل لأبي يزيد: متى يكون الرجل متواضعا؟ قال: إذا لم ير لنفسه حقا ما ولا حالا من علمه بشرها وزدرااتها، ولا يرى أن في الخلق شرا منه

قال بعض الحكماء: وجدنا التواضع مع الجهل والبخل أحمد من الكبر مع الأدب والسخاء.

وقيل لبعض الحكماء: هل تعرف نعمة لا يحسد عليها، وبلاء لا يرحم صاحبه عليه؟ قال، نعم، أما النعمة فالتواضع، وأما البلاء فالكبر.

والكشف عن حقيقة التواضع أن التواضع رعاية الاعتدال بين الكبر والضعف، فالكبر رفع الإنسان نفسه فوق قدره، والضعف وضع الإنسان نفسه مكانا يزرى به ويقضى إلى تضييع حقه.

وقد افهم من كثير من إشارات المشايخ في شرح التواضع أشياء إلى حد أقاموا التواضع فيه مقام الضعة، ويلوح فيه الهوى من أوج الأفراد إلى حضيض التفريط، ويوهم انحرافا عن حد الاعتدال، ويكون قصدهم في ذلك المبالغة في جمع نفوس الرينين خوفا عليهم من العجب والكبر، فقل أن ينمك مرید من مبادئ ظهور سلطان الحال من العجب، حتى لقد نقل عن جمع من الكبار كلمات مؤننة بالإعجاب. وكل ما نقل من ذلك القليل من المشايخ لبقايا السكر عندهم، وانحصارهم في مضيق سكر الحال، وعدم الخروج إلى قضاء الصحو في ابتداء أمرهم، وذلك إذا حقق صاحب البصيرة نظره يعلم أنه من استراق النفس السمع عند نزول الوارد على القلب، والنفس إذا استرقت السمع عند ظهور الوارد على القلب ظهرت بصفاتها على وجه لا يجفو على الوقت وصلافة الحال.

فيكون من ذلك كلمات مؤننة بالعجب، كقول بعضهم: من تحت خضراء السماء مثلي؟ وقول بعضهم: قدمي على رقبة جميع الأولياء، وكقول بعضهم: أسرجت والجمت وطلعت في القطار الأرض وقلت هل من مبارز، فلم يخرج إلى أحد، إشارة منه في ذلك إلى تفرده في وقته.

ومن أشكال عليه ذلك، ولم يعلم أنه من استراق النفس السمع، فليزن ذلك بميزان أصحاب رسول الله ﷺ وتواضعهم، واجتنابهم أمثال هذه الكلمات، واستبعادهم أن يجوز للعبد التظاهر بشيء من ذلك، ولكن يجعل لكلام الصادقين وجه في الصعلة، ويقال إن ذلك طرح عليهم في سكر الحال، وكلام السكارى يحمل.

فالمشايع لرباب التمكين لما علموا في النفوس هذا الداء النقي، بالغوا في شرح التواضع إلى حد الحقوه بالصعلة تكويًا للمريدين. والاعتدال في التواضع أن يرضى الإنسان بمنزلة دون ما يستحقه، ولو أمن الشخص جموح النفس لأوقفها على حد يستحقه من غير زيادة ولا نقصان.

ولكن لما كان الجموح في حيلة النفس لكونها مخلوقة من صلصال كالفخار، فيها نسبة النارية وطلب الاستعلاء بطبعها إلى مركز النار، احتاجت للتدوى بالتواضع وإيقافها دون ما تستحقه، لنلا يتطرق إليها الكبر. فالكبر ظن الإنسان أنه أكبر من غيره، والتكبر إظهاره ذلك، وهذه صفة لا يستحقها إلا الله تعالى، ومن ادعاه من المخلوقين يكون كاذباً.

والكبر يتولد من الإعجاب، والإعجاب من الجهل بحقيقة المحاسن والجهل الانسلاخ من الإنسانية حقيقة. وقد عظم الله تعالى شأن الكبر بقوله تعالى: ﴿ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُتَكَبِّرِينَ ﴾^(١).

وقال تعالى: ﴿ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾^(٢).

وقد ورد قول الله تعالى: «الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري» فمن نازعي واحدا منهما قصمته» وفي رواية «فلقته في نار جهنم».

(١) سورة النحل، الآية ٢٢.

(٢) سورة الرمز، الآية ٦٠.

وقال عِزَّوَجِل رَدَا لِلْإِنْسَانِ هِيَ طَغْيَانُهُ إِلَى حُدُودِهِ ﴿وَلَا تَمَشِ فِي
الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ (١).

وقال تعالى: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴿١﴾ خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ ﴿٢﴾ ﴿٣﴾
وابغ من هذا قوله تعالى ﴿قَتَلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ ﴿١﴾ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ
خَلَقَهُ ﴿٢﴾ مِنْ نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ ﴿٣﴾﴾ (٢).

وقد قال بعضهم لبعض التكبرين: لولك لطفة مدرة، وآخرتك جيمة
قنرة، وأنت فيما بين ذلك حامل العنزة.

وقد نظم الشاعر هذا المعنى:
كَيْفَ يَزْهَوُ مَنْ رَجَبُهُ أَبَدُ الْفُجَرِ ضَجْبُهُ

وإذا ارتحل التواضع من القلب وسكن الكبر، فتشر آخره في بعض
الجوارح، ويرشح الإناء بما فيه، فتارة يظهر آخره في العنق بالتماهيل، وتارة
في الخد بالتصغير، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُصَغِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ (٣).

وتارة يظهر في الراس عند استعصاء النفس. قال الله تعالى: ﴿لَوْوَا
رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾ (٤).

وكما أن الكبر له انقسام على الجوارح والأعضاء تتشعب منه شعب،
هكذا أن بعضها أكنف من البعض، كالكثير والزهو والعزة وغير ذلك، إلا أن
العزة تشبه بالكبر من حيث الصورة، وتختلف من حيث الحقيقة، كاشتباه
التواضع بالضعف، والتواضع محمود، والضعف مذموم، والكبر مذموم، والعزة
محمودة. قال الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ الْعِزَّةُ الْوَسِيلُ إِلَى رُسُلِهِ وَالْمُؤْمِنِينَ﴾ (٥).

(١) سورة الإسراء: الآية ٣٧.

(٢) سورة الطارق: الآيات ١-٥.

(٣) سورة عبس: الآيات ١٧-١٩.

(٤) سورة لقمان: الآية ١٨.

(٥) سورة المنافقون: الآية ٥.

(٦) سورة المنافقون: الآية ٨.

والعزة غير الكبر، ولا يحل لأومن أن يذل نفسه، فالعزة معرفة الإنسان بحقيقة نفسه، وإكرامها أن لا يضعها لأغراض عاجلة دنيوية، كما أن الكبر جهل الإنسان بنفسه وإنزالها فوق منزلتها.

قال بعضهم للحسن، ما أعظمك في نفسك، قال، لست بعزيز ولكني عزيز.

ولما كانت العزة غير مذمومة، وفيها مشاكلة بالكبر، قال الله تعالى: ﴿تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾^(١) فيه إشارة خفية لإثبات العزة بالحق، فالوقوف على حد التواضع من غير انحراف إلى الضعة وقوف على صراط العزة المنصوب على متن نار الكبر، ولا يؤيد في ذلك ولا يثبت عليه إلا أقلام العلماء الراسخين، والسادة المقربين، ورؤساء الأبدل والصدقين.

قال بعضهم: من تكبر فقد أخرج عن لذاته نفسه، ومن تواضع فقد أظهر كرم طبعه.

وقال الترمذي، التواضع على ضربين: الأول أن يتواضع العبد لأمر الله ونهيه، فإن النفس لطلب الراحة تنهى عن أمره، والشهوة التي فيها تهوى في نهيه، فإذا وضع نفسه لأمره ونهيه فهو تواضع، والثاني أن يضع نفسه لعظمة الله، فإن اشتتت نفسه شيئاً مما أطلق له من كل نوع من الأنواع منعها ذلك، وجملة ذلك أن يترك مشيئته لمشيئة الله تعالى.

واعلم أن العبد لا يبلغ حقيقة التواضع إلا عند إيمان نور الشاهدة في قلبه، فعند ذلك تنوب النفس، وفي ذوبانها صفاؤها من غش الكبر والعجب، فتلين وتطيع للحق والخلق نحو آثارها، وسكون وهجها وغبارها. وكان الحظ الأوفر من التواضع لنبيينا عليه السلام في أوطان القرب، كما روى عن عائشة رضي الله عنها في الحديث الطويل قالت، فقلت رسول الله ﷺ ذات ليلة

فاخذني ما ياخذ النساء من الغيرة ظننا مني انه عند بعض أزواجه، فطلبته في حجر نسائه فلم أجده، فوجدته في السجد ساجدا كالثوب الحلق وهو يقول في سجوده «سجد لك سوادى وخيالى، وآمن بك فؤادى، وقر بك لسانى، وها أنا ذا بين يديك يا عظيم يا غافر الذنب العظيم».

وقوله عليه السلام «سجد لك سوادى وخيالى» استقصاء في التواضع بمحو آثار الوجود حيث لم تتخلف ذرة منه عن السجود طاهرا وباطنا.

ومتى يكن للصوفي حظ من التواضع الخاص على بساط القرب لا يتوفر حظه من التواضع للخلق. وهذه سعادته إن أقبلت جاءت بكليتها والتواضع من أشرف أخلاق الصوفية.

ومن أخلاق الصوفية المنزلة، واحتمال الأذى من الخلق. وبلغ من مداراة رسول الله ﷺ أنه وجد قتيلا من أصحابه بين اليهود، فلم يحف عليهم ولم يزد على مر الحق، بل وده بمانه ناقة من قبله، وإن بأصعابه الحاجة إلى بغير واحد يتقون به.

وكان من حسن مداراته أن لا يذم طعاما، ولا ينهر خادما.

أخبرنا الشيخ العالم ضياء الدين عبد الوهاب بن على قال أنا أبو الفصل الكرخي قال أنا أبو نصر الترياقى قال لنا الجراحى قال أنا أبو العباس المحبوبي قال أنا أبو عيسى الترمذى قال حدثنى فتية قال حدثنا جعفر بن سليمان عن ثابت عن أنس قال: خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين فما قال لى أف قط، وما قال لى لشيء صنعته لم صنعته، ولا لشيء تركته لم تركته. وكان رسول الله ﷺ من أحسن الناس خلقا، وما مسست خزا قط ولا حريرا ولا شيئا كان ألين من كف رسول الله ﷺ، ولا شممت مساقط ولا عطرا كان أطيب من عرق رسول الله ﷺ.

فالدراة مع كل أحد من الأهل والأولاد والجيران والأصحاب والخلق
كافة من أخلاق الصوفية، وباحتمال الأذى يظهر جوهر النفس.

وقد قيل: لكل شيء جوهر، وجوهر الإنسان العقل، وجوهر العقل
الصبر.

أخبرنا أبو زرعة طاهر عن أبيه الحافظ القدسي قال أنا أبو محمد
الصرفيني قال أنا أبو القاسم عبيد الله بن حبابة قال أنا أبو القاسم عبيد الله
ابن محمد بن عبد العزيز قال حدثنا علي بن الجعد قال أنا شعبة عن
الأعمش عن ابن عمر عن النبي ﷺ أنه قال «للمؤمن الذي يعاشر الناس
ويصبر على أذاهم خير من الذي لا يخالطهم ولا يصبر على أذاهم».

وهي الخبر «أعجز أحدكم أن يكون كأي ضمضم. قيل: ماذا كان
يصنع أبو ضمضم؟ قال: كان إذا أصبح قال: اللهم إني تصدقت اليوم
بعرضي على من ظلمني، فمن ضربني لا أضربه، ومن شتمني لا أشتمه،
ومن ظلمني لا أظلمه».

وأخبرنا ضياء الدين عبد الوهاب قال أنا أبو المتج الهروي قال حدثنا
الزياني قال أنا الجراحي قال أنا المحبوبي قال أنا أبو عيسى الترمذي قال
حدثنا ابن أبي عمر قال حدثنا سفيان عن محمد بن النكر عن عروة عن
عائشة ؓ قالت: استأذن رجل على رسول الله ﷺ وأنا عنده فقال «بئس ابن
العشيرة أو أخو العشيرة» ثم لأن له قالان له القول، فلما خرج قلت يا رسول
الله قلت له ثم أنت له القول، قال «يا عائشة إن من شر الناس من يتركه
الناس أو يدعه الناس لقاء حشه».

وروى أبو زر عن رسول الله ﷺ أنه قال «اتق الله حينما كنت، وأتبع
السيئة الحسنة تمحها، وخالف الناس بخلق حسن».

فما شيء يستدل به على قوة عقل الشخص ووفور علمه وحلمه
كحس الداراة. والنفس لا تزال تشمئز ممن يعكس مرادها، ويستعزها
العيط والغصب، وبالداراة قطع حمة النفس، ورد طيشها ونمورها.

وقد ورد «من كظم غيظا وهو يستطيع أن ينفذه دعاه الله يوم
القيامة على رؤوس الخلائق حتى يخيره في أي الحول شاء».

وروى جابر رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال «(ألا أخبركم على من تحرم
النار؟ على كل حين لين سهل قريب».

وروى أبو مسعود الأنصاري رضي الله عنه قال، أتى النبي عليه السلام برجل
فكلمه فأرعد فقال «(هون عليك فإنني لست بملك إنما أنا ابن امرأة من
قريش كانت تأكل القديد».

وعن بعضهم في معنى لين جانب الصوفية:

هينون لينون أسار بنو يسر	سواس مكرمة أبناء أسار
لا ينطقون عن الفحشاء إن نطقوا	ولا يمارون إن ماروا بأكثار
من تلق منهم ثقل لأقبت سيدهم	مثل النجوم التي يسرى بها الساري

وروى أبو الدرداء عن النبي ﷺ قال «(من أعطى حظه من الرقيق فقد
أعطى حظه من الحر، ومن حرم حظه من الرقيق فقد حرم حظه من
الخير».

حدثنا شيخنا ضياء الدين أبو الفجيب إملاء قال حدثنا أبو عبد
الرحمن محمد بن أبي عبد الله الماليني قال أنا أبو الحسين عبد الرحمن بن
أبي طلحة الداودي قال أنا أبو محمد بعد الله الحموي السرخسي قال أنا أبو
عمر ابن عيسى ابن عمر السمرقندي قال أنا عبد الله بن عبد الرحمن
الدارمي قال أنا محمد بن أحمد بن أبي خلف قال حدثنا عبد الرحمن محمد
عن محمد بن إسحاق قال حدثني عبد الله بن أبي بكر عن رجل من العرب
قال: زحمت رسول الله ﷺ يوم حنين وفي رجلى نعل كئيبة فوطئت بها

على رجل رسول الله فنفحنى نفحة بسوط في يده وقال بسم الله أوجعتنى.
قال، فبیت لنفسى لا يما أقول أوجعت رسول الله. قال، فبیت بليلة كما يعلم
الله، فلما أصبحنا إذا رجل يقول أين فلان؟ قلت هذا والله الذى كان منى
بالأمس. قال فانطلقت وأنا متخوف، فقال لى إتك وطنت بتعلك على رجلى
بالأمس فأوجعتنى فنفحتك نفحة بالسوط، فهذه ثمانون نعمة فخلها بها.

ومن أخلاق الصوفية الإيثار والواساة، ويعملهم على ذلك فرط الشفقة
والرحمة طبعاً وقوة اليقين شرعاً، يؤثرون بالوجود، ويصبرون على الفقود.

قال أبو يزيد البسطامى: ما غلبتى أحد ما غلبنى شاب من أهل بلخ،
قدم علينا حاحاً فقال لى، يا أبا يزيد ما حد الزهد عندكم؟ قلت، إذا وجدنا
أكلنا، وإذا فقلنا صبرنا، فقال، هكذا عندنا كلاب بلخ، فقلت له: وما حد
الزهد عندكم؟ قال، إذا فقلنا شكرنا، وإذا وجدنا آثرنا.

وقال ذو النون: من علامة الزهد للشروح صدره ثلاث: تصريق المجموع،
وترك طلب الفقود، والإيثار بالقوت.

روى عبد الله بن عباس رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ يوم النضير للأنصار
«إن شئتم قسمتم للمهاجرين من أموالكم ودياركم وتشاركونهم فى
هذه الغنيمة، وإن شئتم كانت لكم دياركم وأموالكم ولم نقسم لكم شيئاً
من الغنيمة» فقالت الأنصار: بل نقسم لهم من أموالنا وديارنا ونؤثرهم
بالغنيمة ولا نشاركهم فيها، فانزل الله تعالى ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ
كَانَ يَوْمَ حُصَاةٍ﴾^(١).

وروى أبو هريرة رضي الله عنه قال، جاء رجل إلى رسول الله ﷺ وقد أصابه جهد
فقال يا رسول الله إني جائع فأطعمني، فبعث النبى ﷺ إلى أزواجه هل
عندكن شيء، فكلهن قلن والذى بعثك بالحق نبياً ما عندنا إلا الماء، فقال

رسول الله ﷺ: ما عندنا ما نطعمك هذه الليلة، ثم قال، من يضيف هذا هذه الليلة رحمه الله؟

فقام رجل من الأنصار فقال أنا يا رسول الله، فأتى به منزله فقال لأهله: هذاضيف رسول الله ﷺ فأكرميه ولا تدخري عنه شيئاً، فقالت: ما عندنا إلا قوت الصبية، فقال: قومى عليهم عن قوتهم حتى يناموا ولا يطعمون شيئاً ثم أخرجني، فإذا أخذ الضيف لياكل قومى مكانك تصلحين السراج فأطعمنيه وتعالى نمضغ السننتا لضيف رسول الله، حتى يشبع ضيف رسول الله، فقامت إلى الصبية فعللتهم حتى ناموا عن قوتهم ولم يطعموا شيئاً، ثم قامت فأثرتت وأسرجت، فلما أخذ الضيف لياكل قامت مكانها تصلح السراج فأطفأته، فجعل يعضغان السننتها لضيف رسول الله، وظن الضيف أنهما ياكلان معه حتى شبع الضيف وباتا طابوين فلما أصبحوا غدوا إلى رسول الله ﷺ، فلما نظر إليهما تبسم رسول الله ﷺ ثم قال، لقد عجب الله من فلان وفلانة هذه الليلة، وانزل الله تعالى ﴿ وَيُؤْتِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۝ ١١ ﴾.

وقال انس رضي الله عنه، أهدى لبعض أصحابه رأس شاة مشوى وكان مجهوداً، فوهبه إلى جاره له، فتداوله سبعة أنفس ثم عادا إلى الأول، فأنزلت الآية لذلك.

وروى أنا أن الحسن الأنطاكي اجتمع عنده ثيف وثلاثون رجلاً بقرية بقرى الري، وله أرغفة معدودة لم تشبع خمسة منهم، فكسروا الرغمان وأطفاوا السراج وجلسوا للطعام، فلما رفعوا الطعام فإذا هو ببحاله لم ياكل أحد منهم إيثارا منه على نفسه.

وحكى عن حذيفة العلوى قال: فطلقت يوم اليرموك لطلب ابن عم لي ومعى شيء من ماء وأنا أقول إن كان به رمق سقيته ومسحت وجهه، فإذا

أنا به فقلت أسقيك؟ فأشار إلى نعم، فإذا رجل يقول آه، فقال ابن عمي: انطلق به إليه، فجئت إليه، فإذا هو هشام بن العاص، فقلت أسقيك؟ فسمع هشام آخر يقول: آه، فقال: انطلق به إليه، فجئت إليه فإذا هو قد مات، ثم رجعت إلى هشام فإذا هو أيضا قد مات، ثم رجعت إلى ابن عمي، فإذا هو أيضا قد مات.

وسئل أبو الحسين البوشنجي عن الفتوة، فقال: الفتوة عندي ما وصف الله تعالى به الأنصار في قوله ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ﴾^(١).

قال ابن عطاء: يؤثرون على أنفسهم جودا وكرما ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْهُمْ خَصَاصَةٌ﴾^(٢). يعني جوعا وفقرا.

قال أبو حفص، الإيثار هو أن يقدم حظوظ الإخوان على حظوظه في أمر الدنيا والآخرة.

وقال بعضهم، الإيثار لا يكون عن اختيار إنما الإيثار أن تقدم حقوق الخلق أجمع على حقك، ولا تميز في ذلك بين أخ وصاحب وذی معرفة.

وقال يوسف بن الحسين، من رأى لنفسه ملكا لا يصح منه الإيثار، لأنه يرى نفسه أحق بالشيء برؤية ملكه، إنما الإيثار ممن يرى الأشياء كلها للحق، فمن وصل إليه فهو أحق به، فإذا وصل شيء من ذلك إليه يرى نفسه وينه فيه يد أمانة يوصلها إلى صاحبها أو يؤديها إليه.

وقال بعضهم، حقيقة الإيثار أن تؤثر بعض آخرتك على إخوانك، فإن الدنيا أقل خطرا من أن يكون لإيثارها محل أو ذكر.

ومن هذا المعنى ما نقل أن بعضهم رأى أخا له فلم يظهر البشر الكثير في وجهه، فأنكر أخوه ذلك منه، فقال يا أخى سمعت أن رسول الله ﷺ قال

(١) سورة الحشر، الآية ٩.

(٢) سورة الحشر، الآية ٩.

«إنا التقى المسلمان ينزل عليهما مائة رحمة تسعون لأكثرهما بشرا وعشرة لأقلهما بشرا» فرددت إن أكون أقل بشرا منك ليكون لك الأكثر.

أخبرنا الشيخ ضياء الدين أبو النجم إجازة قال أنا أبو حفص عمر بن الصغار النهسا بوري قال أنا أبو بكر أحمد بن خلف الشيرازي قال أنا الشيخ أبو عبد الرحمن السلمي قال سمعت أبا القاسم الرززي يقول سمعت أبا بكر بن أبي سعدان يقول: من صحب الصوفية فليصحبهم بلا نفس ولا قلب ولا ملك، فمن نظر إلى شيء من أسبابه قطعه ذلك عن بلوغ مقصده.

وقال سهل بن عبد الله الصوفي من يرى دمه هنرا، وملكه مباحا.

وقال ربيع، التصوف مبنى على ثلاث خصال، التمسك بالفقر والافتقار، والتحقيق بالهذل والإيثار، وترك التعرض والاختيار

قيل، لما سعى بالصوفية وتميز الجنيب بالفقه، وقبض على الشجام والرقام والنوري، وبسط النطع لضرب رقابهم، تقدم النوري فقيل له: إلى ماذا تنادى؟ فقال: أودر إخواني بفضل حياة ساعة.

وقيل، دخل الرونباري دار بعض أصحابه فوجده غائبا وباب بيته مغلق، فقال، صوفي وله باب مغلق، اكسروا الباب، فكسروه وأمر بجميع ما وجدوا في البيت أن يباع، فأنفذوه إلى السوق واتخذوا رقفا من الثمن وقعدوا في الدار، فدخل صاحب المنزل ولم يقل شيئا، ودخلت امرأته وعليها كساء فدخلت بيتا فرمت بالكساء وقالت: هذا أيضا من بقية التاع فبيعه، فقال الزوج لها، لم تكلفت هذا باختيارك؟ قالت: اسكت مثل الشيخ ببأسطيا ويحكم علينا، ويبقى لنا شيء ندخره عنه.

وقيل، مرض قيس بن سعد، فاستبطا إخوته في عيادته، فسأل عنهم، فقالوا: إنهم يستحيون بمالك عليهم من الدين، فقال: أخزى الله مالا

يمنع الإخوان عن الرياسة، ثم امر مناديا ينادي: من كان لقيس عليه مال فهو عليه حل، فكسرت عتبة داره بالعشى لكثرة عواده

وشيل أتى رجل صديقا له ودق عليه الباب، فلما خرج قال: ماذا جئتني؟ قال: لأربعمئة درهم دين لي، فدخل الدر ووزن أربعمئة درهم وأخرجها إليه ودخل الدر باكيا، فقالت امراته، هلا تعلت حين شق عليك الإجابة؟ فقال: إنما لبيك لأنني لم أتمقد حاله حتى احتاج أن يعاتحنى به.

وأخبرنا الشيخ أبو زرعة عن أبيه الحافظ المقدسي قال أنا محمد بن محمد إمام جامع أصفهان قال حدثنا أبو عبد الله الجرجاني قال أنا أبو طاهر محمد بن الحسن المحمدي قال حدثنا أبو البحري قال حدثنا أبو أسامة قال حدثنا بريدة بن أبي بردة عن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ «إن الأشعريين إذا أرموا في العزو وقل طعام عيالهم جمعوا ما كان عندهم في ثوب واحد ثم اقتسموا في إناء واحد بالسوية، فهم مني وأنا منهم».

وحدث جابر عن رسول الله ﷺ أنه إذا أراد أن يفزو قال: «يا معشر المهاجرين والأنصار إن من إخوانكم قوما ليس لهم مال ولا عدة، فليضم أحدكم إليه الرجل والرجلين والثلاثة، فما لأحدكم من ظهر حمله إلا عقبة كعقبة أحدكم» قال: فضممت إلى اثنين أو ثلاثة مالي إلا عقبة كعقبة أحدهم من حمله.

وروى أنس قال: لما قدم عبد الرحمن بن عوف المدينة آخى النبي عليه السلام بيته وبين سعد بن الربيع، فقال له: أأسمك مالي نصفين، ولي امرأتان فأطلق أحدهما، فإذا انقضت عندها تنزوحها، فقال له عبد الرحمن: بارك الله لك في أهلك ومالك.

فما حمل الصوفي على الإيثار إلا طهارة نفسه، وشرف غريزته وما جعله الله تعالى صوفيا إلا بعد أن سوى غريزته لذلك. وكل من كانت

غريزته السخاء والسخى يوشك أن يصير صوفيا، لأن السخاء صفة الغريزة،
وهي مقابلته الشح، والشح من لوازم صفة النفس. قال الله تعالى ﴿وَمَنْ يُوقِ
شَحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾^(١). حكم بالفلاح لمن يوقى الشح،
وحكم بالفلاح لمن انفق وبذل فقال ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾^(٢). ﴿أُولَئِكَ
عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾^(٣). والفلاح لجمع
اسم لسعادة النارين.

والنبي عليه السلام نبه بقوله «ثلاث مهلكات وثلاث منجيات» فجعل
إحدى المهلكات شحا مطاعا، ولم يقل مجرد الشح يكون مهلكا، بل يكون مهلكا
إذا كان مطاعا، فأما كونه موحوبا في النفس غير مطاع فإنه لا ينكر
ذلك، لأنه من لوازم النفس مستمدا من أصل جبلتها الخابي، وفي التراب
قبض وإمساك، وليس ذلك بالعجب من آدمي وهو جبل في فيه، وإنما العجب
وجود السخاء في الغريزة، وهو لنفوس الصوفية الداعي لهم إلى البذل
والإيثار.

والسخاء أتم وأكمل من الجود، ففي مقابلة الجود البخل، وفي مقابلة
السخاء الشح، والجود والبخل يتطرق إليهما الاستسباب بطريق العادة،
بخلاف الشح والسخاء إذا كان من ضرورة الغريزة. وكل سخى جواد وليس
كل جواد سخيا.

والحق سبحانه وتعالى لا يوصف بالسخاء، لأن السخاء من نتيجة
الغرائز، والله تعالى منزّه عن الغريزة. والجود يتطرق إليه الرياء ويأتي به
الإنسان متطلعا إلى عوض من الخلق أو الحق بمقابل ما من الثناء وغيره من
الخلق والثواب من الله تعالى.

(١) سورة الحشر، الآية ٩

(٢) سورة البقرة، الآية ٢٠٠

(٣) سورة البقرة، الآية ١٧٧

والسقاء لا يتطرق إليه الرباء، لأنه ينبع من النفس الزكية المرتفعة عن الأعواض ديباً وأخره، لأن طلب العوض مشعر بالبخل لكونه معلولاً بطلب العوض، فما تمحض سخاء، فالسقاء لأهل الصفاء، والإيثار لأهل الأنوار.

ويجوز أن يكون قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُطْعِمُونَ لُوحَ اللَّهِ لَا تَرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾^(١). إنه نفى في الآية الإطعام لطلب الأعواض حيث قال (لا تريد) بعد قوله (لوجه الله) فما كان لله لا يشعر بطلب العوض، بل الغريزة لطهارتها تنجذب إلى مراد الحق لا لعوض، وذلك أكمل السخاء من أظهر الفرائز.

روت أسماء بنت أبي بكر قالت قلت: يا رسول الله ليس لي من شيء إلا ما أدخل على الزبير، فأعطيني؟ قال: «نعم لا توكلن فهو كى عليك».

ومن أخلاق الصوفية التجاوز والعفو، ومقابلة السيئة بالحسنة.

قال سفيان: الإحسان أن تحسن إلى من أساء إليك، فإن الإحسان إلى المحسن متاجرة كنفقة السوق خذ شيئاً وهات شيئاً.

وقال الحسن: الإحسان أن تعف ولا تخص، كالشمس والرياح والغيث.

وروى أنس قال، قال رسول الله ﷺ «رأيت قصوراً مشرفة على الجنة، فقلت يا جبرائيل لمن هذه؟ قال: للكاهن الغيظ والعافين عن الناس».

روى أبو هريرة ﷺ أن أبا بكر ﷺ كان مع النبي ﷺ في مجلس فحاء رجل فوقع في أبي بكر وهو ساكت والنبي عليه السلام يتبسم، ثم رد أبو بكر عليه بعض الذي قال، فغضب النبي وقام، فلحقه أبو بكر فقال، يا رسول الله شتمني وأنت تتبسم ثم رجعت عليه بعض ما قال فغضبت وقيمت، فقال «إني كنت ساكناً كان معك ملك يرد عليه، فلما تكلمت وقع

الشيطان فلم أكن لأقعد في مقعد فيه الشيطان. يا أبا بكر ثلاث كلهن حق، ليس عبد يظلم بمظلومة فيعفو عنها إلا أعز الله نصرته، وليس عبد يفتح باب مسألة يريد بها كثرة إلا زاده الله قلبه، وليس عبد يفتح باب عطية أو صلة يبتغي بها وجه الله إلا زاده الله بها كثرة».

أخبرنا ضياء الدين عبد الوهاب بن علي قال أنا الكروخي قال أنا الترياقى قال أنا الجراحى قال أنا المحبوبي قال أنا أبو عيسى الترمذى قال حدثنا أبو هشام الرفاعى قال حدثنا محمد بن فضيل عن الوليد بن عبد الله بن جميع عن أبي الطفيل عن حذيفة قال قال رسول الله ﷺ «لا تكونوا إمعة تقولون إن أحسن الناس أحسنا، وإن ظلموا ظلمنا، ولكن وطنوا أنفسكم، إن أحسن الناس أن تحسنوا، وإن أساؤا فلا تظلموا».

وقال بعض الصعابة، يا رسول الله الرجل أمر به فلا يقربنى ولا يضيفنى، فيمر بي لهاجزيه؟ قال، «لا، أقره».

وقال الفضيل، الفتوة الصفح عن عثرات الإخوان.

وقال رسول الله ﷺ «ليس الواصل للكافي، ولكن الواصل الذى إذا قطعت رحمه وصلها».

وروى عن رسول الله ﷺ «من مكارم الأخلاق، أن تعفو عمن ظلمك، وتصل من قطعك، وتعطى من حرمك».

ومن أخلاق الصوفية البشر وطلاقة الوجه.

الصوفى بكاؤه فى خلوته، وبشره وطلاقة وجهه مع الناس. فالبشر على وجهه من أثار أنوار قلبه، وقد تنازل باطن الصوفى منازل الهمة، ومواهب النفسية، يرتوى منها القلب، ويمتلئ فرحا وسرورا ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾^(١).

والسرور إذا تمكن من القلب فاص على الوجه أثره. قال الله تعالى: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ۖ﴾ ^(١). أي مصينة مشرقة ﴿مُسْتَبْشِرَةٌ﴾ أي فرحة قيل: أشرقت من طول ما أغرت في سبيل الله. ومثال فيض النور على الوجه من القلب كفيضان نور السراج على الزجاج والشكاة. قالوجه مشكاة، والقلب زجاج، والروح مصباح، فإذا تنعم القلب باليد السامرة ظهر البشر على الوجه.

قال الله تعالى: ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ۖ﴾ ^(٢). أي نضارته وبريقه، يقال: انضرت النبت إذا ازهر ونور ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۖ﴾ ^(٣) إلى نيتها ناضرة ﴿فَلَمَّا نَطَرْتُ أَنْظُرًا﴾ ^(٤). فلما نظرت نظرت.

فأرباب الشاهدة من الصوفية تنورت بصائرهم بنور الشاهدة، وانصقلت مرآة قلوبهم، وانعكس فيها نور الجمال الأزلي. وإذا أشرقت الشمس على المرآة المنصولة استنارت الجدران. قال الله تعالى: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِِهِمْ مِّنْ أَثَرِ الشُّجُودِ﴾ ^(٥). وإذا تأثر الوجه بسجود الضلال وهي القوالب في قول الله تعالى: ﴿وَوُضِعَ لَّهُمْ بِالْقُدُورِ وَالْأَصَالِ﴾ ^(٦). فكيف لا يتأثر بشهود الجمال.

أخبرنا ضياء الدين عبد الوهاب بن علي قال أنا الكروخي قال أنا الترياقى قال أنا الجراحى قال أنا المحبوبي قال أنا أبو عيسى الترمذى قال حدثنا قتيبة قال حدثنا النكسر بن محمد بن النكسر عن أبيه عن جابر بن عبد الله قال قال رسول الله ﷺ «كل معروف صدقة، وإن من العروف أن تلقى أخاك بوجه طلق، وإن تفرغ من حلوك في لقاء أخيك».

(١) سورة عبس، الآية ٢٨

(٢) سورة الطغى، الآية ٢٤

(٣) سورة القيامة، الآيات ٢٢-٢٣

(٤) سورة الفتح، الآية ٢٩

(٥) سورة الرعد، الآية ٢٥

وقال سعد بن عبد الرحمن الزبيدي: يحجبني من القراء هكل سهل
 طلق مضجك. فاما من تلقاه باليشر ويلقاك بالعبوس وكأنه يمن عليك فلا
 أكثر لله في القراء مثله.

ومن أخلاق الصوفية السهولة، ولين الجانب، والتزول مع الناس إلى
 أخلاقهم وطباعهم، وترك التعسف والتكلف. وقد روى في ذلك عن رسول
 الله ﷺ أخبار. وأخلاق الصوفية تحاكي أخلاق رسول الله ﷺ. وكان يقول
 عليه الصلاة والسلام «أما إني أمزح ولا أقول إلا حقا».

وروى أن رجلا يقال له زاهر بن حرام، وكان بدويا، وكان لا يأتي إلى
 رسول الله إلا جاء بطريقة يهديها إلى رسول الله، فجاء يوما من الأيام فوجده
 رسول الله ﷺ في سوق المدينة يبيع سلعة له، ولم يكن اتاه ذلك اليوم،
 فاحتضنه النبي عليه السلام من ورائه بكفيه، فالتفت فأبصر النبي ﷺ
 القبل بكفيه، فقال النبي عليه السلام، من يشتري العبد فقال: إذا تجلني
 كاسدا يا رسول الله، فقال ولكن عند الله ربيع. ثم قال عليه السلام، لكل
 أهل حصر بادية، وبادية آل محمد زاهر بن حرام.

وأخبرنا أبو زرعة طاهر بن الحافظ للقدس عن أبيه قال أنا المطهر بن
 محمد الفقيه قال أنا أبو الحسن قال أنا أبو عمرو بن حكيم قال أنا أبو أمية
 قال حدثنا عبيد بن إسحاق العطار قال حدثنا سنان بن هارون عن حميد
 عن أنس قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله أحملني على
 جمل، فقال أحملك على ابن الناقة، قال أقول لك أحملني على جمل وتقول
 أحملك على ابن الناقة؟ فقال عليه السلام، فالجمل من الناقة.

وروى صهيب فقال: أتيت رسول الله ﷺ وبين يديه تمر يأكل فقال:
 أصب من هذا الطعام، فجعلت أكل من التمر، فقال: أنا أكل وأنت رمد
 فقلت: إذا أمضغ من الجانب الآخر، فضحك رسول الله ﷺ.

وروى أنس أن رسول الله ﷺ قال له ذلت يوم: يا ذا الأذنين.

وسئلت عائشة رضي الله عنها كيف كان رسول الله ﷺ إذا خلا في البيت؟ قالت: كان ألين الناس، بساما ضحاکا.

وروت أيضا أن رسول الله ﷺ سابقها فسبقته، ثم سابقها بعد ذلك فسبقها؟ فقال: هذه بتلك.

وأخبرنا الشيخ العالم ضياء الدين عبد الوهاب بن علي قال أنا أبو الفتح الهروي قال أنا أبو نصر الترياقى قال أنا أبو محمد الجراحى قال أنا أبو العباس المحبوبي قال أنا أبو عيسى الحافظ الترمذى قال حدثنا عبد الله بن الوضاح الكوفى قال حدثنا عبد الله بن إدريس عن شعبة عن أبي التياح عن أنس رضي الله عنه قال: إن كان رسول الله ﷺ ليخالطنا حتى إنه كان يقول لأخ لي صغير: يا أبا عمير ما فعل النغير؟ والنغير عصفور صغير.

وروى أن عمر سابق زبيرا رضي الله عنه فسبقه الزبير، فقال: سبقتك ورب الكعبة، ثم سابقه مرة أخرى فسبقه عمر، فقال عمر: سبقتك ورب الكعبة.

وروى عبد الله بن عباس قال قال لي عمر: تعال أنا فسك في ألاء أئنا أطول نفسا، ونحن محرومون.

وروى بكر بن عبد الله قال: كان أصحاب رسول الله ﷺ يتمازحون حتى يتبادحون بالبطيخ، فإذا كانت الحقائق كانوا هم الرجال. يقال بدح يبدح إذا رمى، أي يترامون بالبطيخ.

وأخبرنا أبو زرعة عن أبيه قال أنا الحسن بن أحمد الكرخى قال حدثنا أبو طالب محمد بن إبراهيم قال حدثنا أبو بكر محمد بن محمد بن عبد الله قال حدثني إسحاق الحربي قال حدثنا أبو سلمة قال حدثنا حماد بن خالد قال أنبأنا محمد بن عمرو بن علقمة قال حدثنا أبو الحسن بن محصن الليثي عن يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب بن أبي بلتعة قال: إن عائشة

رضي الله عنها قالت أتيت النبي ﷺ بحريرة طليختها له وقلت لسودة والنبي ﷺ بيني وبينها؛ كلى فأبته فقلت لها، كلى فأبت، فقلت لتأكلن أو لا تلخن بها وجهك، فأبته فوضعت يدي في الحريرة فلتخت بها وجهها، فضحك النبي ﷺ، فوضع فخذه وقال لسودة الطخى وجهها، فلتخت بها وجهي، فضحك النبي ﷺ، فمر عمر رضي الله عنه على الباب فنادى يا عبد الله يا عبد الله، فظن النبي ﷺ أنه سيدخل، فقال: قوما هاغسلوا وجهكما، فقالت عائشة رضي الله عنها: لما زلت أهاب عمر لهيبة رسول الله ﷺ إياه.

ووصف بعضهم ابن طاوس فقال: كان مع الصبي صبيها ومع الكهل كهلا، وكان فيه مزاحاة إذا خلا.

وروى معاوية بن عبد الكريم قال: كنا نتذاكر الشعر عند محمد بن سيرين وكان يقول ونمزح عنده ويمازحنا، وكنا نخرج من عنده ونحن نضحك، وكنا إذا دخلنا على الحسن نخرج من عنده ونحن نكاد نبكي.

فهذه الأخبار والآثار دالة على حسن لين الجانب، وصحة حال الصوفية، وحسن أخلاقهم فيما يعتمدونه من الداعية في الربط، وينزلون مع الناس على حسب طبائعهم، لنظرهم إلى سعة رحمة الله، فإذا خلوا وقفوا موقف الرجال، واكتسوا ملابس الأعمال والأحوال. ولا يقف في هذا المعنى على حد الاعتدال إلى صوفي قاهر للنفس، عالم بأخلاقها وطبائعها، سائس لها بوقور العلم، حتى يقف في ذلك على صراط الاعتدال بين الإفراط والتفريط.

ولا يصلح الإكثار من ذلك للمريدين للبتة، لقلّة علمهم ومعرفتهم بالنفس، وتعنيهم حد الاعتدال. فالنفس في هذه المواطن نهضات ووثبات تجر إلى الفساد، وتجنح إلى العناد. فالنزول إلى طباع الناس

يحسن بمن صعد عنهم، وترقى لعلو حاله ومقامه، فينزل إليهم وإلى طباعهم، حتى ينزل بالعلم.

فأما من لم يصعد بصفاء حاله عنهم، وفيه بقية مزح من طباعهم ونعوسهم الجامحة الأمارة بالسوء إذا دخلت في هذه الداخل أخذت النفس حظها، واغتنتمت مآربها، واستروحت إلى الرخصة، والنزول إلى الرخصة يحسن لمن يركب العزيمة غالب أوقاته، وليس ذلك شأن البقدي.

فالصوفية العلماء فيما ذكرناه ترويح يعلمون حاجة القلب إلى ذلك، والشيء إذا وضع للحاجة يتقدر بقدر الحاجة، ومعيار مقدر الحاجة في ذلك علم غامض لا يسلم لكل أحد.

قال سعيد بن العاص لابنه: لتتصد في مزاحك، فالإفراط فيه يذهب بالبهاء، ويجري عليك السعها، وتركه يغيظ الؤانسين، ويوحش الخالطين.
قال بعضهم: المزاح مسلبة للبهاء، مقطعة للإخاء.

وكما يصعب معرفة الاعتدال في ذلك يصعب معرفة الاعتدال في الضحك، والضحك من خصائص الإنسان، ويميزه عن جنس الحيوان، ولا يكون الضحك إلا عن سابقة تعجب، والتعجب يستدعي العكر، والفكر شرف الإنسان وخاصيته.. ومعرفة الاعتدال فيه أيضا شأن من ترسخ قديمه في العلم، ولهذا قيل: إياك وكثرة الضحك فإنه يميت القلب.

وقيل: وكثرة الضحك من الرعونة.

وروى عن عيسى عليه السلام أنه قال: إن الله تعالى يفيض الضحاك من غير عجب، والشاء في غير لرب.

وذكر فرق بين اللعابة والمزاح، فقيل: اللعابة ما لا يغضب جده، والمزاح ما يغضب جده.

وقد جعل أبو حنيفة رحمه الله القهقهة في الصلاة من الذنب، وحكم ببطلان الوضوء بها وقال، يقوم الإنم مقام خروج الحارج.

فالاعتدال في الزاح والضحك لا يتأتى إلا إذا خلص وخرج من مضيق الخوف والقبض والهيبة، فإنه يتقوم بكل مضيق من هذه الصايق بعض التقويم، فيعتدل الحال فيه ويستقيم، فاليسط والرجاء ينشأن الزاح والضحك، والحواف والقبض يحكمان فيه بالعدل.

ومن أخلاق الصوفية ترك التكلف، وذلك أن التكلف تصنع وتعمل وتمايل على النفس لأجل الناس، وذلك يباين حال الصوفية، وهي بعضه خفي منازعة للأقدار، وعدم الرضا بما قسم الجبار.

ويقال: التصوف ترك التكلف.

ويقال: التكلف تخلف، وهو تخلف عن ضأو الصادقين.

روى أنس بن مالك قال: شهدت وليمة لرسول الله ما فيها خبز ولا لحم. وروى عن جابر أنه أتاه ناس من أصحابه فأتاهم بخبز وخل وقالوا: «كلوا فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «نعم الإدام الخل».

وعن سفيان بن سلمة قال: دخلت على سلمان الفارسي فأخرج إلى خبزاً وملحاً وقال: كل، لولا أن رسول الله ﷺ نهانا أن يتكلف أحد لأحد لتكلفنا لكم.

والتكلف مذموم في جميع الأشياء، كالتكلف باللبوس للناس من غير نية فيه، والتكلف في الكلام وزيادة التملق الذي صار لطلب أهل الزمان، فما يكاد يسلم من ذلك إلا أحاد وأفراد. وكم من متملق لا يعرف أنه متملق ولا يفتن له، فقد يتملق الشخص إلى حد يخرج به إلى صريح النفاق، وهو مباين لحال الصوحي.

أحبرنا الشيخ العالم ضياء الدين عبد الوهاب بن علي قال أنبأنا أبو المتوح الهروي قال أنا أبو نصر الترياقى قال أنا أبو محمد الجراحى قال أنا أبو العباس المحبوبي قال أنا أبو عيسى الترمذى حدثنا أحمد بن منيع قال حدثنا يزيد بن هارون عن محمد بن مطرف عن حسان بن عطية عن أبي أمامة عن النبي ﷺ قال «الحياء والعي شعبتان من الإيمان، والبناء والبيان شعبتان من النفاق» البناء المحش. ولراد بالبيان ههنا كثرة الكلام والتكلف للناس بزيادة تملق وثناء عليهم، وإظهار التصفيح، وذلك ليس من شأن أهل الصدق.

وحكى عن أبي وائل قال، مضيت مع صاحب لي نزور سلمان، فقدم إلينا خبز شعير وملحاً جريشاً، فقال صاحبي: لو كان في هذا الملح سعة كان أطلب، فخرج سلمان ورهن مظهرته وأخذ سعة، فلما أكلنا قال صاحبي: الحمد لله الذي قنعنا بما رزقنا، فقال سلمان: لو قنعت بما رزقك لم تكن مظهرتي مرهونة، وفي هذا من سلمان ترك التكلف قولاً وفعلًا.

وفي حديث يونس النبي عليه السلام أنه زاره إخوانه فقدم إليهم مكسراً من خبز شعير، وجزأهم بقلأ كان يزرعه ثم قال: لولا أن الله لعن المتكلفين لتكلفت لكم.

قال بعضهم: إذا قصدت للزيارة فقدم ما حضر، وإذا استزرت فلا تبق ولا تذر.

وروى الزبير بن العوام قال: نادى مناد رسول الله ﷺ يوماً «اللهم اغمر للذين يدعون لأموال أمتي ولا يتكفون، إلا إني برئ من التكلف وصالحو أمتي».

وروى ان عمر رضي الله عنه قرا قوله تعالى ﴿ فَأَنْبِئْنَا فِيهَا حَبًّا ﴾ (٥٠) وَعِشْبًا وَقَضْبًا (٥١) وَلَزْتُونًا وَمُخَلًّا (٥٢) وَحَدَّاقِي غُلْبًا (٥٣) وَفَنِكَهَةً وَأَبَا (٥٤) ^(١) . ثم قال، هذا كله قد عرفناه فما الأب؟ قال: ويبد عمر عصاة فضرب بها الأرض ثم قال: هذا لعمر الله هو التكلف، فخذوا أيها الناس ما بين لكم منه، فما عرفتم اعملوا به، ومن لم تعرفوا فكلوا علمه إلى الله.

ومن أخلاق الصوفية الإتقان من غير إقتار، وترك الادخار، وذلك ان الصوفي يرى خزائن فضل الحق، فهو بمثابة من هو مقيم على شاطئ بحر، والمقيم على شاطئ البحر لا يدخر الماء في قربته وروايته.

روى ابو هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ انه قال «ما من يوم إلا له ملكان يناديان، فيقول أحدهما، اللهم اعط منفقا خلفا، ويقول الآخر، الله اعط ممسكا تلفا».

وروى انس قال، كان رسول الله ﷺ لا يدخر شيئا لغد.

وروى انه أهدى لرسول الله ﷺ ثلاث طوائر، فاطعم خادمه طيرا، فلما كان الغد أتاه به، فقال رسول الله ﷺ ألم انتهك ان تخبئ شيئا لغد، فإن الله تعالى يأتي برزق كل غد.

وروى ابو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ دخل على بلال وعنده صرة من تمر، فقال، ما هذا يا بلال؟ فقال، ادخر يا رسول الله، قال، أما تخشى، أنفق بلالا، ولا تحش من ذى العرش بالالا.

وروى أن عيسى بن مريم كان يأكل الشجر، ويلبس الشعر، ويبيت حيث أمسى، ولم يكن له ولد يموت، ولا بيت يخربه ولا يخبئ شيئا لغد.

فالصوفي كل خباياه في خزائن الله لصدق توكله، وثقته بربه.

فالدنيا للصوفي كدار غريبة، ليس له فيها ادخار، ولا له منها استكثار.

قال عليه السلام: «لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا».

أخبرنا شيخنا ضياء الدين أبو الفجيب قال أنا أبو عبد الرحمن محمد بن أبي عبد الله الماليني قال أنا أبو الحسن عبد الرحمن النخعي قال أنا أبو محمد عبد الله السرخسي قال أنا أبو عمران السمرقندي قال أنا عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي قال أنا محمد بن يوسف عن سفيان عن أبي المنكر عن جابر قال: ما سئل النبي ﷺ قط فقال لا..

قال ابن عيينة: إذا لم يكن عنده وعد.

وبالإسناد عن الدارمي قال أنا يعقوب بن حميد قال أنا عبد العزيز بن محمد عن ابن أخي الزهري قال: إن جبريل عليه السلام قال: ما هي الأرض أهل عشيرة من أبيات إلا قلبتهم، فما وجدت أحدا أشد إنفاقا لهذا المال من رسول الله ﷺ.

ومن أخلاق الصوفية القناعة بالبسر من الدنيا.

قال ذو النون المصري: من قنع استراح من أهل زمانه، واستطال على أقرانه.

وقال بشر بن الحارث: لو لم يكن في القناعة إلا التمتع بالعز لكفى صاحبه.

وقال بنان الحمالي: الحر عيد ما طمع، والعبد حر ما قنع.

وقال بعضهم: انتقم من حرصك بالقناعة كما تنتقم من عنوك بالقصاص.

وقال أبو بكر الرضى: العاقل من دبر أمر الدنيا بالقناعة والتسوية،
ودبر أمر الآخرة بالحرص والتعجيل.

وقال يحيى بن معاذ: من قنع بالرزق فقد ذهب بالآخرة وطاب عيشه.

وقال أمير المؤمنين على بن أبى طالب كرم الله وجهه: القناعة سيف
لا ينبو.

أخبرنا أبو زرعة عن أبيه أبي الفضل قال أنا أبو القاسم عبد الله بن
الحسن الخلال ببغداد قال أنا أبو حفص عمر بن إبراهيم قال حدثنا أبو
القاسم البعوى قال حدثنا محمد بن عباد قال حدثنا أبو سعيد عن صدقة
بن الربيع عن عمارة بن غزية عن عبد الرحمن بن أبي سعيد عن أبيه قال:
سمعت رسول الله ﷺ وهو على الأعواد يقول «ما قل وكفى خير مما كثر
والهى».

وروى عن رسول الله ﷺ أنه قال «قد اطلع من أسلم وكان رزقه كفافا
اللهم اجعل رزق آل محمد قودا».

وروى جابر رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال «القناعة مال لا ينفد». وروى عن
عمر رضي الله عنه قال: تكونوا أوعية الكتاب، وينابيع الحكمة، وعدوا أنفسكم فى
الوقت، واسألوا الله تعالى الرزق يوما بيوم، ولا يضركم إلا يكر لكم.

وأخبرنا أبو زرعة طاهر عن أبي الفضل والده أنا أبو القاسم إسماعيل
بن عبد الله السامى قال أنا أحمد بن على الحافظ قال أنا أبو عمرو بن حمدان
قال حدثنا الحسن بن سفيان قال حدثنا عمرو بن مالك البصرى قال حدثنا
مروان بن معاوية قال حدثنا عبد الرحمن بن أبى سلمة الأنصارى قال
أخبرنى سلمة بن عبد الله بن محصن عن أبيه قال قال رسول الله ﷺ «من
أصبح آمنا فى سريره، معافى فى دينه، عنده قوت يومه، فكأنما حيزت له
الدنيا».

وقيل في تفسير قوله تعالى ﴿ فَلَنَحْيِيَنَّهُمْ حَيَوةً طَيِّبَةً ﴾^(١) . هي القناعة.

فالصوفي قوام على نفسه بالقسط، عالم بطبائع النفس، وجدوى القناعة والتوصل إلى استخراج تلك من النفس لعلمه بناتها ودوائها.

وقال أبو سليمان النراقي، القناعة من الرضا كما أن الورع من الزهد، ومن أخلاق الصوفية ترك للرء والمجادلة إلا بحق، واعتماد الرفق والحلم، وذلك أن النفوس تثبت وتظهر في المارين. والصوفي كلما رأى نفس صاحبة ظاهرة قابلها بالقلب، وإذا فوبلت النفس بالقلب ذهب الوحشة، والطفات الفتنة. قال الله تعالى تعليمًا لعباده ﴿ أَدْفَعْ بِالْيَمِينِ أَيْ أَحْسَنْ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾^(٢).

ولا ينزع للرء إلا من نفوس زكية انتزع منها العل، ووجود الغل في النفوس وراء الباطن، وإذا انتزع للرء من الباطن ذهب من الظاهر أيضا وقد يكون الغل في النفس مع من يشاكله وبماثل له لوجود المنافسة. من استقصى في تنقيب النفس بنار الزهانة في الدنيا ينمحي الغل من باطنه، ولا يبقى عنده منافسة دنيوية في حظوظ عاجلة من جاه ومال. قال الله تعالى في وصف أهل الجنة اللقيين ﴿ وَتَزَعَّتْ مَأْفِ صُدُورِهِمْ مِّنْ غِلٍّ ﴾^(٣).

قال أبو حفص: كيف يبقى الغل في قلوب اتلفت بالله، واتفقت على محبته، واجتمعت على موافقه، وانست بذكره، فإن تلك قلوب صافية من هواجس النفوس، وظلمات الطبائع، بل مكملت بنور التوفيق، فصارت إخوانا.

فهكذا قلوب أهل التصوف والمجتمعين على الكلمة الواحدة، ومن التزم بشروط الطريق والانكباب على الظفر بالتحقيق.

(١) سورة النحل: الآية ٩٧

(٢) سورة فصلت: الآية ٢٤.

(٣) سورة الأعراف: الآية ٧.

والثامن رجلان:

رجل طالب ما عند الله تعالى، ويدعو إلى ما عند الله بنفسه وعيره، فم
للمحقق الصوفي مع هذا مناقسة ومراء وغل، فإن هذا معه في طريق واحد،
ووجهة واحدة، وأخوه ومعينه والمؤمنون كالبنيان يشد بعضه بعضا

ورجل مفتتن بشيء من محبة الجاه والمال والرياسة ونظر الخلق، فما
للسوفي مع هذا مناقسة، لأنه زهد فيهما فيه رغب. فمن شأن الصوفي أن
ينظر إلى مثل هذا بنظر رحمة وشفقة حيث يراه محجوبا معتتلا فلا
ينطوى له على غل، ولا يماريه في الظاهر على شيء، لعلمه بظهور نفسه
الأمارة بالسوء في الرء والجاهلة.

أخبرنا الشيخ العالم ضياء الدين عبد الوهاب بن علي قال أنا أبو الفتح
الهروي قال أنا أبو نصر الرياقي قال أنا أبو محمد الجراحي قال أنا أبو العباس
الحبوبي قال أنا أبو عيسى الترمذي قال حدثنا زياد بن أيوب قال حدثنا
المحاربي عن ليث عن عبد الملك عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما
عن النبي ﷺ قال «لا تمارى أخاك، ولا تعده موعدا فتخلمه».

وفي الخبر «من ترك الرء وهو مبطل بنى له بيت في ربض الجنة،
ومن ترك الرء وهو محق بنى له في وسطها، ومن حسن خلقه بنى له في
أعلاها».

وأخبرنا شيخنا شيخ الإسلام أبو العجيب قال أنا أبو عبد الرحمن
السهروردي محمد بن أبي عبد الله الماليني قال أنا أبو الحسن عبد الرحمن
الساودي قال أنا أبو محمد عبد الله بن أحمد الحموي قال أنا أبو عمران عيسى
السمرقندي قال أنا أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن النارمي قال حدثنا
يحيى ابن بسطام عن يحيى بن حمزة قال حدثني النعمان بن مكيحول عن
ابن عباس رضي الله عنهما قال قال رسول الله ﷺ «من طلب العلم ليباهي به

العلماء، أو يمارى به السفهاء، أو يريد أن يقبل بوجوه الناس إليه، أدخله الله تعالى جهنم».

أنظر كيف جعل رسول الله ﷺ المارة مع السفهاء سببا لدخول النار، وذلك بظهور نفوسهم في طلب القهر والغلبة، والقهر والغلبة من صفات الشيطنة في آدمى.

وقال بعضهم، المجادل المارى يضع في نفسه عند الخوض في الجدل أن لا يقنع بشيء، ومن لا يقنع إلا أن لا يقنع فما إلى قناعته سبيل، فتنفس الصوفى تبدلت صفاتها، وذهب عنه صفة الشيطنة والسبحية، وتبدل باللين والرفق والسهولة والطمأنينة.

روى عن رسول الله ﷺ أنه قال «والذى نفسى بيده لا يسلم عبد حتى يسلم قلبه ولسانه، ولا يؤمن حتى يأمن جاره بوائقه».

أنظر كيف جعل النبى ﷺ من شرط الإسلام سلامة القلب واللسان.

وروى عنه عليه السلام «أنه مر بقوم وهم يجنون حجرا قال ما هذا؟ قالوا: هذا حجر الأشياء، قال: «ألا أخيركم بأشد من هذا؟ رجل كان بينه وبين أخيه غضب فأتاه فغلب شيطاناه وشيطان أخيه فكلمه».

وروى أنه جاء كلام لأبى ذر وقد كسر رجل شاة، فقال أبو ذر، من كسر رجل هذه الشاة؟ فقال أنا؟ قال ولم فعلت ذلك؟ قال عمدا فعلت، قال ولم؟ قال أغضبتك فتضربتني فتأثم، فقال أبو ذر: لأغضبن من حضك على غيظي، فأعتقه.

وروى الأصمعى عن أعرابي قال: إذا أشكل عليك امرئ لا تدري أيهما أرشد فخالف أقربهما إلى هوائك، فإن أكثر ما يكون الخطأ من متابعة الهوى.

أخبرنا أبو زرعة عن أبي الفضل قال أنا أبو بكر محمد بن أحمد بن علي قال أنا خورشيد قال حدثنا إبراهيم بن عبد الله قال حدثنا أحمد بن محمد بن سليم قال حدثنا الزبير بن بكار قال حدثنا سعيد بن سعد عن أخيه عن جده عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ثلاث منجيات، وثلاث مهلكات، فإما المنجيات فخشية الله في السر والعلانية، والحكم بالحق عند الغضب والرضا، والاقتصاد عند الفقر والغنى، وأما المهلكات فشح مطاع، وهوى متبع، وإعجاب المرء بنفسه».

فالحكم بالحق عند الغضب والرضا لا يصح إلا من عالم رباني، أمير على نفسه، يصرفها بعقل حاضر، وقلب يقظان، ونظر إلى الله بحسن الاحتساب.

نقل إنهم كانوا يتوصأون عن إيذاء المسلم يقول بعضهم: لأن اتوضأ من كلمة خبيثة أحب إلي من اتوضأ من طعام طيب.

وقال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، لحدثنا حدثان: حدث من فرجك، وحدث من فمك.

فلا يحمل حبة الوقار والحلم إلا الغضب، ويخرج عن حد العذل إلى العدوان بتجاوز الحد. فبالغضب يثور دم القلب، فإن مكان الغضب على من فوقه مما يعجز عن إنقاذ الغضب فيه ذهب الدم من ظاهر الجلد، واجتمع في القلب، ويصير منه الهم والحزن والانكماش ولا ينطوي الصوفي على مثل هذا، لأنه يرى الحوادث والأعراض من الله تعالى، فلا ينكمد ولا يفتسم، والصوفي صاحب الرضا صاحب الروح والراحة. والنبى عليه السلام أخبر أن الهم والحزن في الشك والسخط.

سئل عبد الله بن عباس رضي الله عنهما عن الهم والغضب قال: مخرجهما واحد واللفظ يختلف فمن نازع من يقوى عليه أظهره غضبا،

ومن نازع من لا يقوى عليه كتمه حزنا. الحرد غضب ايضا، ولكن يستعمل إذا قصد الغضوب عليه. وإن كان الغضب على من يشاكله ويمثله ممن يتردد في الانتقام منه يتردد دم القلب بين الانقباض والانبساط، فيتولد منه الغل والحقد، ولا يأوى مثل هذا إلى قلب الصوفي. قال الله تعالى ﴿ وَتَرَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ ﴾^(١).

وسلامة قلب الصوفي وحاله يختلف زيد الغل والحقد كما يقذف البحر الزبد، لما فيه من تلاطم امواج الانس والهبه. وإن كان الغضب على من دونه ممن يقدر على الانتقام منه ثار دم القلب، والقلب إذا ثار دمه يحمر ويقرسو ويتصلب، وتذهب عنه الرقة والبهاض، ومنه تحمر الوجهتان، لأن الدم في القلب ثار وطلب الاستعلاء، وانتفخت منه العروق، فظهر عكسه وأخره على الخد، فيتعدى العلود حينئذ بالضرب والشتم، ولا يكون هذا في الصوفي إلا عند هتك الحرمات والغضب لله تعالى، فأما في غير ذلك فينظر الصوفي عند الغضب إلى الله تعالى، ثم تقواه تحمله على أن يزن حرركته وقوله بميزان الشرع والعقل، ويتهم النفس بعدم الرضا بالقضاء.

قبل لبعضهم: من أقهر الناس لنفسه؟ قال: أرضاهم بالقصور.

وقال بعضهم: أصبحت وما لي سرور إلا مواقع القضاء.

وإذا اتهم الصوفي النفس عند الغضب تنركه العلم، وإذا لاح علم العلم قوى القلب وسكنت النفس، وعاد دم القلب إلى موضعه ومقره، واعتدل الحال، وغاضت حمرة الخد، وبانت فصيلة العلم.

قال عليه السلام، «السمت الحسن والتوود والاقتصاد جزء من أربعة وعشرين جزء من النبوة».

وروى حارثة بن قدامة قال: قلت يا رسول الله أوصني وأقلل لعلى أعيه، قال «لا تغضب» فأعاد عليه كل ذلك يقول «لا تغضب» قال عليه السلام «إن الغضب جمره من النار، ألم تنظروا حمرة عينيه وانتفاخ أوداجه، من وجد ذلك منكم فإن كان قائما فليجلس، وإن كان جالسا فليضطجع».

أخبرنا ضياء الدين عبد الوهاب بن علي قال أنبأنا أبو الفتح الهروي قال أنا أبو النصر الترياقى قال أنا الجراحى قال أنا المحبوبى قال أنا أبو عيسى الترمذى قال حدثنا محمد بن عبد الله قال حدثنا بشر بن الفضل عن قرة بن خالد عن أبي حمزة عن ابن عباس رضى الله عنهما أن النبی ﷺ قال لأشج عبد القيس «إن إليك خصلتين يحبهما الله تعالى: الحلم والأناة».

ومن أخلاق الصوفية التوحد والتألف والواقفة مع الإخوان وترك المخالفة. قال الله تعالى فى وصف أصحاب رسول الله ﷺ ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾^(١). ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلْفَتْ بِكَ قُلُوبُهُمْ وَلَعِكَنَّ اللَّهُ أَلْفَ بَيْتٍ﴾^(٢).

والتوحد والتألف من أتلاف الأرواح على ما ورد فى الخبر الذى أورده، لما تعارف منها المتلف. قال الله تعالى ﴿فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾^(٣).

وقال سبحانه تعالى: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾^(٤).

وقال عليه السلام «للمؤمن ألف مألوف، لا خير فىمن لا يألوف ولا يؤلف».

وقال عليه السلام «مثل المؤمنين إذا التقيا مثل اليدين تغسل إحداهما الأخرى، وما التقى مؤمنان إلا استغادا أحدهما من صاحبه خيرا».

(١) سورة الفتح، الآية ٣٩.

(٢) سورة الأنفال، الآية ٦٣.

(٣) سورة آل عمران، الآية ١٠٢.

(٤) سورة آل عمران، الآية ١٠٢.

وقال أبو إدريس الخولاني لعازي: إني أحبك في الله، فقال لبشر ثم أبشر،
فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ينصب لطائفة من الناس كراسي حول
العرس يوم القيامة، وجوههم كالقمر ليلة البدر، يعزح الناس وهم لا
يمزعون، ويخاف الناس وهم لا يخافون، وهم أولياء الله الذين لا خوف عليهم
ولا هم يحزنون، قيل من هؤلاء يا رسول الله؟ قال المتحابون في الله».

وقيل، لو تحاب الناس وتعاطوا اسباب المحبة لاستغنوا بها عن العدالة.

وقيل: العدالة خليفة المحبة، تستعمل حيث لا توجد المحبة.

وقيل: طاعة المحبة الفصل من طاعة الرهبة، فإن طاعة المحبة من
داخل، وطاعة الرهبة من خارج.

ولهذا المعنى كانت صحبة الصوفية مؤثرة من البعض في البعض،
لأنهم لما تحابوا في الله توأصوا بمحاسن الأخلاق، ووقع القبول بينهم لوجود
المحبة، فالتفح لذلك المرید بالشيخ، والأخ بالأخ، ولهذا المعنى أمر الله تعالى
باجتماع الناس في كل يوم خمس مرات في الساجد، أهل كل درب وكل
محلة، وفي الجامع في الأسبوع مرة أهل كل بلد، والاضمام أهل السواد إلى
البلدان في الأعياد في جميع السنة مرتين، وأهل الأقطار من البلدان المتفرقة
في العمر مرة للحج، وكل ذلك لحكم بالغة، منها تأكيد الألفة والود بين
الؤمنين. وقال عليه السلام «لؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا».

أخبرنا أبو زرعة قال أنا والدي أبو الفضل قال أنا أبو نصر محمد بن
سلمان العنل قال أنا أبو طاهر محمد بن محمد بن محمش الزياتي قال أنا
أبو العباس عبد الله بن يعقوب الكرماني قال حدثنا يحيى الكرماني قال
حدثنا حماد بن زيد عن مجالد بن سعد عن الشعبي عن النعمان بن بشير
قال سمعت رسول الله ﷺ يقول «إلا إن مثل المؤمنين في تولاهم وتحابهم

وتراحمهم كمثل الجسد إذا اشتكى عضو منه تدعى سائرته بالسهر والحمى».

والتألف والتودد يؤكد أسباب الصحة، والصحة مع الأخيار مؤثرة جدا.

وقبل قبل: لقاء الإخوان لقاح.

ولا شك أن البواطن تتلفح ويتفوى البعض البعض، بل بمجرد النظر إلى أهل الصلاح يؤثر صلاحها، والنظر في الصور يؤثر أخلاقا مناسبة لخلق المنظور إليه، كدوام النظر إلى الخزون يحزن، ودوام النظر إلى السرور يسر.

وقد قبل، من لا ينفك لحظه لا ينفك لفظه. والجمال الشرود يصير ذلولا بمقارنة الجمال الذلول، فالمقارنة لها تأثير في الحيوان والنبات والجماد، والماء والهواء يفسدان بمقارنة الجيف. والزرع تنهى عن أنواع العروق في الأرض والنبات لموضع الإفساد بالمقارنة. وإذا كانت المقارنة مؤثرة في هذه الأشياء، ففي النفوس الشريفة البشرية أكثر تأثيرا.

وسمى الإنسان إنسانا لأنه يأنس بما يراه من خير وشر.

والتألف والتودد مستجلب للمزيد، وإنما العزلة والوحدة تحمد بالنسبة إلى لزال الناس وأهل الشر، فاما أهل العلم والصفاء والوفاء والأخلاق الحميدة هيغتنم مقارنتهم، والاستئناس بهم يستئناس بالله تعالى، كما أن محبتهم محبة الله، والجامع معهم رابطة الحق، ومع غيرهم رابطة الطبع.

فالصوفي مع غير الجنس مكائن بائن، ومع الجنس مكائن معاين. والمؤمن مرآة للمؤمن، إذا نظر إلى أخيه يستشف من وراء أقواله وأعماله وأحواله تجليات إلهية، وتعريفات وتلويحات من الله الكريم خفية، غابت عن الأغيار، وأدركها أهل الأنوار.

ومن أخلاق الصوفية شكر المحسن على الإحسان، والدعاء له، وذلك منهم مع كمال توكلهم على ربهم، وصفاء توحيدهم، وقطعهم النظر إلى الأغيار، ورؤيتهم النعم من النعم الجبار، ولكن يفعلون ذلك اقتداء برسول الله ﷺ على ما ورد أن رسول الله ﷺ خطب فقال «ما من الناس أحد آمن علينا في صحبته وذات يده من ابن أبي قحافة، ولو كنت متخذا خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً».

وقال «ما نفعني مال كمال أبي بكر».

فألحق حجبوا عن الله بالخلق في النعم والعطاء.

فالصوفي في الابتداء يفتي عن الخلق، ويرى الأشياء من الله حيث طالع ناصيته التوحيد، وخرق الحجاب الذي منع الخلق عن صرف التوحيد، فلا يثبت للخلق منعا ولا عطاء، ويحجبه الحق عن الخلق، فإذا ارتقى إلى ذروة التوحيد يشكر الخلق بعد شكر الحق، ويثبت لهم وجودا في النعم والعطاء، بعد أن يرى السبب أولا، وذلك لسعة علمه وقوة معرفته يثبت الوسائط، فلا يحجبه الخلق عن الحق كعامة المسلمين، ولا يحجبه الحق عن الخلق كآرباب الإرادة والمبتدئين، فيكون شكره للحق، لأنه النعم والمعطي والسبب، ويشكر الخلق لأنهم واسطة وسبب. قال رسول الله ﷺ «أول ما يدعى إلى الجنة الحمدون الذين يحمنون الله تعالى في السراء والضراء».

وقال عليه السلام «من عطس أو تجشأ فقال الحمد لله على كل حال، دفع الله تعالى بها سبعين داء أهونها الجذام».

وروى جابر رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ «ما من عبد بنعم عليه بنعمة فحمد الله إلا كان الحمد أفضل منها».

فقوله عليه السلام «كان الحمد أفضل منها» يحتمل أن يرضى الحق بها شكرا ويحتمل أن الحمد أفضل منها نعمة، فتكون نعمة الحمد أفضل من

النعمة التي حمد عليها، فإذا شكروا النعم الأول يشكرون الواسطة للنعم من الناس ويدعون له.

روى عن انس رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا افطر عند قوم قال: «افطر عندكم الصائمون، وأكل طعامكم الأبرار، ونزلت عليكم السكينة». «السكينة».

أخبرنا أبو زرعة عن أبيه قال أنا أحمد بن محمد بن أحمد البزار قال أنا أبو حفص عمر بن إبراهيم قال حدثنا عبد الله بن محمد البغوي قال أنا عمرو بن زرارة قال حدثنا عبيدة بن يونس عن موسى بن عبيدة عن محمد بن ثابت عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ «(من قال لأخيه، جزاك الله خيراً فقد أبلغ في الثناء)».

ومن أخلاق الصوفية بذل الجاه للإخوان والمسلمين كافة، فإذا كان الرجل وافر العلم، بصيرا بعيوب النفس وأفاتها وشهواتها، فليتوصل إلى قضاء حوائج المسلمين ببذل الجاه والمعاونة في إصلاح ذات البين. وفي هذا المعنى يحتاج إلى مزيد علم لأنها أمور تتعلق بالخلق ومخالفاتهم ومعاشرتهم، ولا يصلح ذلك إلا لصوفي تام الحال عالم رباني.

روى عن زيد بن اسلم أنه قال: كان نبي من الأنبياء يأخذ بركاب الملك يتألفه بذلك لقضاء حوائج الناس.

وقال عطاء: لأن يراني الرجل سنين فيكتسب جاهها يعيش فيه مؤمن أتم له من أن يخلص العمل لنجاة نفسه.

وهذا باب عامض لا يؤمن أن يفتتن به خلق من الجهال الدعين، ولا يصح هذا إلا لعبد اطلع الله على باطنه، فعلم منه ألا رغبة له في شيء من الجاه والمال. ولو أن ملوك الأرض وقفوا في خدمته ما طغى ولا استطال ولو دخل إلى اتون يوقد ما ظهرت نفسه بصريح الإنكار لهذا الحال.

وهذا لا يصلح إلا لأحد من الخلق والفراد من الصادقين ينسلخون عن
إرادتهم واختيارهم، ويكاشفهم الله تعالى بمراده منهم، فيدخلون في الأشياء
بمراد الله تعالى، فإذا علموا أن الحق يريد منهم للخالطة وبذل الجاه يدخلون
في ذلك بغيره صفات النفس.

وهذا لأقوام ماتوا ثم حشروا، وأحكموا مقام الفناء ثم رفقوا إلى مقام
البقاء، فيكون لهم في كل مدخل ومخرج برهان وبيان وإن من الله تعالى،
لهم على بصيرة من ربهم، وهذا ليس فيهم ارتباب لصاحب قلب مكاشف
بصريح الراد في خفي الخطاب، فيأخذ وقته أبدا من الأشياء، ولم تأخذ
الأشياء من وقته، ولا يكون في قطر من الأقطار إلى واحد متحقق
بهذا الحال.

قال أبو عثمان الحيري، لا يكمل الرجل حتى يستوى قلبه في أربعة
أشياء: المنع، والعطاء، والعز، والذل، ولمثل هذا الرجل يصلح بذل الجاه
والدخول فيما ذكرناه.

قال سهل بن عبد الله، لا يستحق الإنسان الرياسة حتى تجتمع فيه
ثلاث خصال، بصرف جهله عن الناس، ويحتمل جهل الناس، ويترك ما في
أيديهم، ويبذل ما في يده لهم.

وهذه الرياسة ليست عين الرياسة التي زهد فيها وتعين الزهد فيها
لضرورة صدقه وسلوكه، وإنما هذه رياسة أقامها الحق لصلاح خلقه، فهو
فيها بالله يقوم بواجب حقها وشكر نعمتها لله تعالى.

الباب الحادي والثلاثون في ذكر الأدب ومكانه من التصوف

روى عن رسول الله ﷺ أنه قال «أحبتي ربي فأحسن تأديبي».

فالأدب تهذيب الظاهر والباطن، فإذا تهذب ظاهر العبد وباطنه صار صوفيًا أدبيًا.

وإنما سميت للأدب مادة لاجتماعهما على أشياء.

ولا يتكامل الأدب في العبد إلا بتكامل مكارم الأخلاق. ومكارم الأخلاق مجموعها في تحسين الخلق، فالخلق صورة الإنسان، والخلق معناه. فقال بعضهم: الخلق لا سهيل إلى تغييره كالخلق. وقد ورد: فرغ ربكم من الخلق والخلق والرزق والأجل. وقال تعالى ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾^(١). والأصح أن تبديل الأخلاق ممكن مقصور عليه بخلاف الخلق.

وقد روى عن رسول الله ﷺ أنه قال «حسنوا أخلاقكم» وذلك أن الله تعالى خلق الإنسان وهياه لقبول الصلاح والفساد، وجعله أهلاً للأدب ومكارم الأخلاق. ووجود الأهلية فيه كوجود النار في الزناد، ووجود النخل في النوى. ثم إن الله تعالى بقدرته ألهم الإنسان ومكنه من إصلاحه بالزبية إلى أن يصير النوى نخلاً، والزناد بالعلاج حتى تخرج منه نار، وكما جعل في نفس الإنسان صلاحية الخير جعل فيها صلاحية الشر حال الإصلاح والإفساد.

فقال سبحانه وتعالى ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾^(٢) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا^(٣). فتسويتها بصلاحيتها للشينين جميعاً. ثم قال عز وجل ﴿

(١) سورة الروم، الآية ٣٠.

(٢) سورة الشمس، الآيات ٧-٨.

قَدْ أفلَحَ مَنْ زَكَّيْنَهَا ﴿١﴾ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّيْنَهَا ﴿٢﴾^(١). فإذا تركت النفس تدبرت بالعقل، واستقامة أحوالها الظاهرة والباطنة، وتهذبت الأخلاق، وتكونت الأدب.

فالآدب استخراج ما في القوة إلى الفعل، وهذا يكون لمن ركبت السجية الصالحة فيه، والسجية فعل الحق لا قدرة للبشر على تكوينها، مكنون النار في الزناد، إذ هو فعل الله المحض، واستخراجه بكسب آدمي، فهكذا الأدب منبعها السجيا الصالحة، والمنح الإلهية.

ولما هيا الله تعالى بواطن الصوفية بتكميل السجيا فيها، توصلوا بحسن للممارسة والريضة إلى استخراج ما في النفوس مركوز بخلق الله تعالى إلى الفعل، فصاروا مؤدبين مهذبين. والآدب تقع في حق بعض الأشخاص من غير زيادة ممارسة وريضة، لقوة ما أودع الله تعالى في غرائزهم، كما قال رسول الله ﷺ «ادبني ربي فأحسن تأديبي».

وهي بعض الناس من يحتاج إلى طول للممارسة، لنقصان قوى أصولها في الغريزة، فلهذا احتاج المريئون إلى صحبة للشايخ، لتكون الصحبة والتعلم عوناً على استخراج ما في الطبيعة إلى الفعل. قال الله تعالى ﴿قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾^(٢). قال ابن عباس رضي الله عنهما، فقهوهم وادبوههم.

وهي لفظ آخر قال رسول الله ﷺ «ادبني ربي فأحسن تأديبي، ثم امرني بمكارم الأخلاق فقال ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾^(٣).

(١) سورة الشمس: الآيات ٩-١٠.

(٢) سورة التحريم: الآية ٦.

(٣) سورة الأعراف: الآية ١٩٩.

قال يوسف بن الحسين: بالأدب يفهم العلم، وبالعلم يصح العمل، وبالعمل تنال الحكمة، وبالحكمة يقام الزهد، وبالزهد تترك الدنيا، وبترك الدنيا يرغب في الآخرة، وبالرغبة هي الآخرة تنال الرتبة عند الله تعالى.

قيل، لما ورد أبو حفص العراق، جاء إليه الجنيد فرأى أصحاب أبي حفص وقوا على رأسه ياتمرون لأمره، لا يخطئ أحد منهم، فقال يا أبا حفص، أدبت أصحابك أدب الملوك، فقال: لا يا أبا القاسم، ولكن حسن الأدب هي الظاهر عنوان الأدب في الباطن.

قال أبو الحسين النوري: ليس لله في عبده مقام ولا حال ولا معرفة تسقط معها أدب الشريعة، وأدب الشريعة حلية الظاهر، والله تعالى لا يبيح تعطيل الجوارح من التحلى بمحاسن الأدب.

قال عبد الله بن المبارك: أدب الخدمة أعز من الخدمة.

حكى عن أبي عبيد القاسم بن سلام قال: دخلت مكة فكنيت ربما القعد بحذاء الكعبة، وربما كنيت استأقني وأمد رجلي، فجاءتني عائشة السكينة فقالت لي: يا أبا عبيد يقال إنك من أهل العلم، أقبل مني كلمة، لا تجالسه إلا بأدب وإلا هيحمى اسمك من ديوان القرب. قال أبو عبيد: وكانت من العارفات.

وقال ابن عطاء: النفس مجبولة على سوء الأدب، والعبد مأمور بملازمة الأدب، والنفس تجرى بطباعها في ميلان الخالفة، والعبد يردّها بجهد إلى حسن الطالبة، فمن أعرض عن الجهد فقد أطلق عنان النفس، وغفل عن الرعاية، ومهما أعانته فهو شريكها.

وقال الجنيد: من أعان نفسه على هواها فقد أشرك في قتل نفسه، لأن العبودية ملازمة الأدب والطغيان سوء الأدب.

أخبرنا الشيخ العالم ضياء الدين عبد الوهاب بن علي قال أنا أبو الفتح الهروي قال أنا أبو النصر الترياقى قال أنا أبو محمد الجراحى قال أنا العباس المحبوبي أنا أبو عيسى الترمذى قال حدثنا قتيبة قال حدثنا يحيى بن علي عن ناصح عن سماك عن جابر بن سمرة قال: قال رسول الله ﷺ «لأن يؤدب الرجل ولده خير له من أن يتصدق بصاع».

وروى أيضا أنه قال عليه السلام «ما تحل والد ولدا من نحلة أفضل من أدب حسن».

وروت عائشة رضى الله عنها عن رسول الله ﷺ قال «حق الولد على الوالد أن يحسن اسمه، ويحسن موضعه، ويحسن أدبه».

وقال أبو علي الدقاق: العبد يصل بطاعته إلى الجنة، وبأدبه إلى طاعته إلى الله تعالى.

قال أبو القاسم القشيري رحمه الله: كان الأستاذ أبو علي لا يستند إلى شيء، فكان يوما في مجمع فارت أن أضع وسادة خلف ظهره لأنى رايت غير مستند، فتنجى عن الوسادة قليلا، فتوهمت أنه تولى الوسادة لأنه لم يكن عليها خرقعة أو سجادة، فقال: لا أريد الاستناد، فتأملت بعد ذلك فعلمت أنه لا يستند إلى شيء أبدا.

وقال الجلالى البصرى: التوحيد يوجب الإيمان، فمن لا إيمان له لا توحيد له، والإيمان يوجب الشريعة، فمن لا شريعة له لا إيمان له ولا توحيد له، والشريعة توجب الأدب، فمن لا أدب له لا شريعة له ولا إيمان ولا توحيد.

وقال بعضهم: ألزم الأدب ظاهرا وباطنا، فما لساء أحد الأدب ظاهرا إلا عوقب ظاهرا، وما لساء أحد الأدب باطنا إلا عوقب باطنا.

قال بعضهم، هو غلام الدقاق، نظرت إلى غلام أمرد، فنظر إلى الدقاق وأنا
انظر إليه، فقال لتجدين غيبها ولو بعد سنين. قال فوجبت غيبها بعد عشرين
سنة أن نسيت القرآن.

وقال سري: صليت وردى ليلة من الليالي ومندت رجلى في الحراب،
فهوديت، يا سري هكنا تجالس اللوك. فضممت رجلى ثم قلت وعزتك لا
مندت رجلى أبدا. وقال الجنيد: بقي ستين سنة ما مد رجله ليلا ولا نهارا.

قال عبد الله بن المبارك: من تهاون بالأدب عوقب بحرمان السنن، ومن
تهاون بالسنن عوقب بحرمان الفرائض، ومن تهاون بالفرائض عوقب
بحرمان المعرفة.

وسئل السري عن مسألة في الصبر، فجعل يتكلم فيها، فذهب على رجله
عقرب فجعلت تضربه بإبرتها، فقيل له ألا تنزعها عن نفسك؟ قال، استحي
من الله أن اتكلم في حال ثم أخالف ما أعلم فيه.

وقيل: من ادب رسول الله ﷺ أنه قال «زويت لي الأرض فرأيت مشارفها
ومغاريها» ولم يقل رأيت.

وقال يس بن مالك: الأدب في العمل علامة قبول العمل.

وقال ابن عطاء: الأدب الوقوف مع المستحسنات. قيل: ما معناه؟ قال: أن
تعامل الله سرا وعلنا بالأدب، فإذا كنت كذلك كنت أديبا وإن كنت
أعجميا، ثم أنشد:

إذا نطقت جاءت بكل مליحة وإن سكنت جاءت بكل مليح

وقال الجريري: منذ عشرين سنة ما مندت رجلى في الخلوة، فإن
حسن الأدب مع الله أحسن وأولى.

وقال أبو علي: ترك الأدب موجب للطرد، فمن أساء الأدب على البساط
رد إلى الباب، ومن أساء الأدب على الباب رد إلى سياسة النواب.